عباس محمود العقاد

حياة قلم

الناشر
دار الكتاب العربي
بيروت - لبنان

حيـــاة قلــم

الطبعة الثانية

١٩٦٩
بيروت

مقدّمة الناشر

لا نظن أصدق من سيرة قلم يرويها صاحبه ، وبخاصة اذا كان يحسن تشقيق الكلام وتصريف المعاني كما يفعل الاديب « العقاد » . فمن مولده في أسوان ، بلـد العصور والدهور ، وموطن السماء الصاحية ، ومشتى العظماء الى القاهرة حيـث هبط طالب المدرسة العنيد « عباس » ليجرب حظه في الحيـاة بقلمه ـ يتحفنا ذلك العملاق جسما وعقلا بسلسلة مترابطـة الحلقات من أحداث زمانه وتغيرات نظرته الى الناس والافكار ونظراتهم اليه . ومن « كل الناس الا عباس » ننطلق في فتـرة وجيزة الى قول سعد زغلول فيه « هذا شرف لا أدعيه وتهمة لا أدفعها » . وتتقلب الايام بالعقاد ، فيغدو وفديا ، ثم يتمرد على روتينية الوفد ومساوماته . وتضيق به الحال ، فيبيع كتبه كي يتقوت . ثم انه يسكن منزلا ما أسرع ان تخطب له الجارات فيه عروسا لا يعرفهـا ، ويخشى التصريح بالرفض ولا يـود ان يزيف على نفسه القبول .. ويهجر ذلك المسكن .

وبعد هذا يلتقي بعبقري القلم الساحر، ذلك الانسان الذي كان يرى الحياة « قبض الريح » ، ويتصرف فيهـا « عالماشي » حتى يبلغ « حصاد الهشيم » أعني ابراهيم المازني ، ذلك الرجل الضئيل الذي سماه التلاميذ « ماردا » . وما أجمل قلم العقاد في تذكره ووفائه لذلك الصديق !

وبين العمل الصحفي وامتهان التدريس تنتقـل الحيـاة بالعقاد .. فمن اشارة الى ضرورة استقالته من الوظيفة الى فرار

شيطاني من حجزه في اسوان يوم اختلف مع المفتش الانكليزي فكتب ذلك الاجنبي المتعجرف طالبا نفيه الى مالطة ..

وبين دخول السجن من جريرة القلم والخروج لاحياء مهرجان عند تمثال سعد ، نعيا على النحاس ورفاقه ، يظل العقاد حر الرأي لا يرضخ لحاجة المال ولا نشدان الزعامة .. انه عنيد يحمل رأسه على رأس قلمه ، ومن رأس قلمه يمج رأيه الحر من رأسه .

أي عظماء قابل صاحب « حياة قلم » في حياته الصحفية : سعد ، كتشنر ، برناردشو ، اميل لودفيغ .. وغير هؤلاء كثير .. لكنه يقول : « انني أفضل قراءة سيرة العظيم على لقياه .. » وهو يعطي عنهم لمسات حية رسمها وحي قلمه المبدع حتى لتكاد الشخصية العظيمة منهم تنطق بجماع رأيها في عبارة واحدة او فقرة قصيرة ..

ان هذا هو العقاد ويكفيه ما قاله فيه سعد زغلول ، ابو الشعب المصري البار « أحب ان اقرأ له . »

جبار القلم هذا هو الذي يرق ويرهف في قلمه حتى يكون الطف من النسيم حين يفيض بوحه عن لواعج عاطفته المشبوبة، لكنه غرام جديد ، انه غرام بالحرية المطلقة والاستقلال الذاتي السمح ، دون انتقاص للغير ولا عنجهية فردية .. ومن أقدر على الموازنة بين اطراف هذا الموقف الدقيق من العقاد !!

كل هذا ما دفعنا الى استكمال صورة « العقاد » الذهنية في نفوس القراء العرب ، فعمدنا الى نشر هذا السفر القيم راجين به اطلاع القارىء العربي على شخصية واحد من عمالقة الادب العربي الحديث ، على ان يكون القارىء نفسه هو الحكم، ونرجو ان نكون قد فزنا ببعض التوفيق ، معترفين ان ايفاء الحق لاصحابه شيء لا نطمع فيه ولا نطمح الى عليائه ..

الناشر

تقديم
طاهر الطناحي

الآن سبق وصدر كتاب « أنا » لفقيد البيان عباس محمود العقاد .. وقد حوى أربعين مقالا تناولت حياتـه الشخصية بما لها من صفات وطباع وخصائص ، وتربية أدبية وفكرية ، وبما طبع أو انطبع في نفسه من ايمان وعقيدة ومبادىء ، وبما تأثر به من بيئة وأساتذة ، أو بعبارة جامعة : « عبـاس العقـاد الانسان » .. !

وكنت ألمعت في مقدمة « أنا » الى أن حياة العقاد لها جانبان تاريخيان : جانب شخصي انساني ، وجانب اجتماعي عـام ، يتصل بمن عاصرهم وعاشرهم من الناس في حياته الصحافيـة والأدبية والسياسية . ويتناول الاحداث التي اشترك فيهـا ، وخاض من اجلها عدة معارك قلمية . وكانت صناعة القلم أبرز ما فيها منذ بدأ اشتغاله بهذه الصناعة ، وهو في السادسة عشرة من عمره .

وفي منتصف اغسطس سنة ١٩٥٧ م أخذ يكتب عن الجانب الاجتماعي والسياسي من حياته بعنوان « حياة قلم » . فكتب عدة فصول بدأها بولادة هذا القلم في أسوان ، وتحـدث عـن

ظروف هذه الولادة ، وعن الجيل الذي ولد فيه ، وقارن بين قلمه وقلم «عبد الله النديم» في ذلك الحين، ثم تحدث عن الصحافة قبل خمسين سنة ، وعن موزعي الجرائد ، وفي مقدمتهم المعلم « عكريشة » ، وعن أحاديثه مع السامية من الوزراء وغير الوزراء ، وكيف شق هذا القلم طريقه ، وما وقع لهذا القلم وصاحبه من أزمات ، وكيف اشتغل بالصحافة في الحرب العالمية الاولى ، وكيف انقطع عنها ، ثم عاد اليها الى اخر ما تناوله في الفصل الثامن في هذا الكتاب « حياة قلم » حتى انتهت هذه الحرب ، وقامت ثورة سنة ١٩١٩ م .

وهنا وقف عن كتابة هذه الفصول أو المذكرات التاريخية التي تعد بلا شك جزءا من تاريخ مصر ، ومرجعا للمؤرخ فيما عالجه العقاد من موضوعات عن هذه الحقبة التي تناولت نحو عشرين عاما من الحياة العامة عاشها وساهم فيها بقلمه .. !

ثم يبقى ما تلا هذه الحقبة من جهاد وجهود ، واحداث واطوار ، لهذا القلم في الميدان العام .. فهل عوضتنا كتاباته الاخرى ومؤلفاته عما نقص من سلسلة هذه المقالات ؟

- ١ -

الواقع أن حياة العقاد العامة ، أو حياة قلمه منذ ثورة سنة ١٩١٩ م تكاد تكون معروفة لابناء هذا الجيل من زملائه الادباء والصحافيين . ومن السهل الرجوع اليها في الصحف والمجلات التي اشترك فيها ، وعالج فيها ما عالج من موضوعات سياسية واجتماعية وأدبية . وقد كان كاتب الوفد الاول منذ فجر هذه

الثورة الى أن اختلف مع زعماء الوفد سنة ١٩٣٥ م كما سيجيء في هذه الصفحات ..

وقد كتب عن هذه الثـورة ، وأبـدى آراءه في رجالهـا وأحداثها كسياسي مفكر ، وكوطني كبير ، مستقلا عـن آراء حزبه ، وان كان هو كاتب هذا الحزب ، والمؤيد لسياسته التي تتفق مع آرائه في ذلك الوقت . وقد كان زعيم الوفد سعد زغلول يقدره كل التقدير ، ويقول عنه ما يرويه لنا الاستاذ كامـل سليم سكرتير مجلس الوزراء ، وسكرتير الوفد المصري حين سافر الوفد الى أوربا للمفاوضة ، فقد كتب مقالا في مجلـة الثقافة في ٢٧ يوليو سنة ١٩٤٠ م بعنوان : « سعد زغلول كما عرفته ، رجلا ، وزعيما ، وسياسيا » . وقد جاء فيه :

« وسألته مرة عن رأيـه في كاتب كبير ـ يعنـي العقاد ـ فقال :

« أديب فحل ، له قلم جبار ، ورجولة كاملة ، ووطنيـة صافية ، واطلاع واسع . ما قرأت له بحثا ، أو رسالة في جريدة أو مجلة الا أعجبت به غاية الاعجاب . وهو لا يعالج موضوعا الا أحاط به جملة وتفصيلا ، احاطة لا تترك بعدها زيادة لمستزيد .. وله اسلوب أدبي فريد » !!

ـ ٢ ـ

والذين يراجعون كتاب « سعد زغلول » الذي آلفه العقاد سنة ١٩٣٦ م يستطيعـون أن يلموا بتاريـخ زعيـم الثـورة واحداثها ورجالها وتطوراتها ومفاوضاتها الى أن توفي « سعد » في أغسطس سنة ١٩٢٧ م . ويعد هـذا الكتـاب من حياتـه

السياسية و « حياة قلمه » وطورا من اطواره الوطنية .

ولما توفي سعد زغلول ، وكانت الاحزاب المصرية مؤتلفه مع الوفد ، لم يستمر هذا الائتلاف سوى عام ، ثم ما لبث الخلاف أن عاد بين الوفد وحزب الاحرار الدستوريين . وتولى زعيم هذا الحزب رياسة الوزارة ، وعطل الحياة النيابية ،وحكم البلاد بيد من حديد ، حتى دعي حكمه باليد الحديدية . ورأى « العقاد » أن مصر في ذلك العهد امتحنت بالحكم الدكتاتوري ، وكان « موسوليني » قد ظهر في ايطاليا بالدكتاتورية السياسية، فألف كتابه « الحكم المطلق » في القرن العشرين ، وحمل فيه على هذا الحكم الاستبدادي حملة شعواء ، وأبان فساده سياسيا وعلميا واجتماعيا . وتحدث عن الديموقراطية ونجاحها ،ونجاح الحكم النيابي . ثم اصدر كتاب « اليد القوية في مصر » سنة ١٩٢٨ وكان الحكم المطلق وقتئذ قد أصبح عدوي في بعض البلدان الشرقية والغربية ، وظهر هتلر بديكتاتوريته في المانيا، فكتب العقاد عدة مقالات ضده ، ثم اخرج كتاب « هتلر في الميزان » . ثم كتاب « النازية والاديان » ..!

وكانت سنة ١٩٣٠ م وقد اعيدت الحياة النيابية ، وكان العقاد وقتئذ عضوا في مجلس النواب . ثم اشيع أن الملك فؤاد سيقيل الوزارة ، ويعطل الحياة النيابية . فوقف على منبر المجلس في احدى الجلسات ، وتحدث عما يشاع من تعطيل الدستور ، وحل البرلمان . واحتد في خطابه ، ودفعته وطنيته الجريئة الصريحة الى أن قال كلمته المشهورة :

« ان الأمة على استعداد لان تسحق أكبر رأس في البلاد يخون الدستور ، ولا يصونه » ..!

وكان لهذه الكلمة دويها في جميع الاوساط ، واتخذها

المنافقون والملكيون حجة ضده ، وحبالة ينصبونها للايقاع به والانتقام من جرأته . ولما كان وقتئذ عضوا في مجلس النواب الذي أعيد بعد استقالة رئيس الاحرار الدستوريين ، وكان يتمتع بالحصانة البرلمانية ، فقد أخذوا يتربصون له حتى عطلت الحياة النيابية في وزارة صدقي باشا ، وكان ما يزال يحرر موضوعاته السياسية ، ولم يكن قد اعتزل السياسة .. وذهبوا يجمعون مقالاته المعارضة لسياسة الحكم ، ثم أحيل للمحاكمة بتهمة : « العيب في الذات الملكية » . فحوكم في اكتوبر سنة ١٩٣٠ م وحكم عليه بالسجن تسعة أشهر ، قضاها بين سجن الاستئناف ، وسجن قره ميدان بالقاهرة . وحينما افرج عنه في شهر يوليو من ذلك العام قصد فورا ضريح سعد زغلول وأنشد في مستقبليه من الجماهير قصيدته الوطنية : « على ضريح سعد » التي يقول فيها :

الى الذاهب الباقي ذهاب مجدد
وعند ثرى سعد مثاب ومسجد

الى مرجع الاحرار في الشرق كله
الى قبلة فيها الامام موسد

نحيي من الدنيا التي نستعيدها
مكانا من الدنيا له العود احمد

ثم ختمها بقوله :

وكنت جنين السجن تسعة أشهر
فهأنذا في ساحة الخلد أولد

ففي كل يوم يولد المرء ذو الحجى
وفي كل يوم ذو الجهالة يلحد

عداتي وصحبي لا اختلاف عليهما
سيعهدني كل كما كان يعهد

وبعد خروجه من السجن ببضعة أعوام استكتبته لمجلة « كل شيء » في « حياة السجن » . فكتب لهذه المجلة عدة مقالات جمعها في كتاب بعنوان : « في عالم السدود والقيود » .

ولا ريب أن هذه المدة ، وتلك المقالات ، كانت فترة هامة من حياته وحياة قلمه . وقد استكتبته يوما لمجلة « المصور » عن تجاربه في الانتخابات ، وقد دخلها ومارسها ، ونجح فيها . فكتب مقالا طويلا . نقتبس منه ما يلي :

« مارست الانتخابات بأنواعها التي عرفناها في مصر منذ اعلان النظام الدستوري الحديث . مارست الانتخاب على درجتين ، والانتخابات على درجة واحدة . واختبرت الاخفاق في هذه التجارب ، كما اختبرت النجاح بالتزكية ، والنجاح بالكثرة الساحقة .

« وفي وسعي أن أقول كلمة محققة عن كل نوع من هذه الانواع . وان كانت الكلمات المحققة في شئون الانتخاب أقل من القليل . !!

« فالمحقق عندي في الانتخاب على درجتين أنه نظام لا مزية له على الاطلاق . وانما تظهر صورته في حالتين غير محمودتين : احداهما تدخل الادارة ، والثانية شراء الاصوات ..

« أما الفوز بالتزكية ، فقد طعن فيه بعض الباحثين الدستوريين ، وأشاروا في علاجه الى اعادة باب الترشيح مرة أخرى في كل دائرة لم يتقدم لها أكثر من مرشح واحد .

« أما النجاح بالكثرة الساحقة ، فقد عرفت صعوباته الكثيرة ، وعرفت أصعب هذه الصعوبات . وهو بذل الوعود

الانتخابية والسعي في تحقيقها . واذا قلت الوعود الانتخابية ، فانما أعني الوعـود العامة ، ولا أعني الوعود الشخصيـة . لانني اعلنت في كل دائرة تقدمت فيها انني لن أقبل الوساطة في مسألة شخصية ، الا أن تكون تقريرا لحق ، أو دفعا لمظلمة .. »

- ٣ -

عاش « العقاد » منذ ١٣ نوفمبر سنة ١٩١٨ م ـ ومنـذ قامت الثورة القومية في سنة ١٩١٩ م بقيـادة سعد زغلول ـ في جهاد وطني عنيف ، مويـدا لسياسته ، فقد كـان يقدره ، ويؤمن باخلاصه ووطنيته . وكان سعد يحبه ويحترمه على صغر سنه بالنسبة له . وكانت جريدة البلاغ في عهده هي جريـدة الوفد الاولى ، فكان هو كاتبها الجريء ، وسهمها النافذ الذي يرمي به الوفد خصومه . ولم تر كاتبا سياسيا مثله يكتب كل يوم مقالة سياسية طول اشتغاله بالسياسة الى جانب ما يؤلفه من كتب أدبية ، وما يكتبه من مقالات في الادب والفن والفلسفة والترجمة والتاريخ كل ثلاثاء .

وقد عانى العقاد ما عانى الوفد من شدائد ، واحتمل متاعب السجن والاضطهاد ، واستمر مع خلفاء سعد في الوفد مدافعا عن آرائه ، مناهضا للاستعمار والمستعمرين ، محاميا عـن الاهداف التي قام الوفد من اجلهـا وهي الحريـة والاستقلال والدستور ، ولم يكن في تأييده لسياسة الوفد يدافع عن حزب ولا عن آراء زعيم ، لانه كان يكره الحزبية ، ولم يكن كاتبـا حزبيا . وقد كان يرى أن الوفد في ذلك الوقت الذي يخوض فيه المعركة يمثل : « عقيدة وطنية » و « فكرة سياسية حرة » ، وان الصحافة الوفدية التي يكتب فيها هي وسيلة التعبير عن هذه العقيدة ، وتلك الفكرة . وقد كتب عن العقيدة الوفدية ،

فقال : « .. نحن لا نحب أن نعرف العقيدة الوفدية من طريق البرامج والاقوال ، وانما نعرفها من طريق الوقائع التي تنطق بها أعمال الخصوم ، قبل ان تنطق بها السنة الاصدقاء والانصار . وتتلخص العقيدة الوفدية على هذا المعنى في عبارة وجيزة هي : « المحافظة على القومية المصرية بقوة الامة المصرية » . ومن اجل هذا يبغضها أشد البغض كل من يكرهون ان تكون لهذه الامة قوة تعتمد عليها ، وتقف بها في وجوه أعدائها . ولو لم تكن « الوفدية » هي مناط هذه القوة ، لما أبغضها الطامعون في ضعفنا وعجزنا عن المقاومة والاستقلال بالارادة . ولو كان للعقيدة الوفدية شركاء في هذه المزية لابغضهم المستعمرون ومنكرو ارادة الامة .. »

الى أن يقول عن الصحافة الوفدية التي كان أكبر كتابها :

« .. انما تؤدي الصحافة الوفدية واجب التعبير عن عقيدة البلاد السياسية ، لا واجب الدعاية الحزبية وما اليها . وما من مبدأ أصيل تدين به صحافة مصرية بريئة الا والامة تصدقه قبل ذلك تصديق من لا يحتاج فيه الى اقناع ، أو تذليل .. »

هكذا كان رأيه في « الوفد » . وعلى هذا المعنى كان يدافع عنه ويؤيده ، وهو في ذلك كان يدافع عن عقيدة وطنية ، ويؤيد مبدءا وطنيا كان يؤمن به كل الايمان ، وهو « المحافظة على قومية الامة بقوة الامة » لا بقوة أحد سواها .

ولم ينصرف العقاد يوما عن تأييد هذه العقيدة ، ولم يخرج عن سياسة الوفد الذي تأسس وقام على هذه العقيدة ، حتى أصاب الوفد ما أصابه من الانحراف وانتقل من هيئة شعبية وطنية الى حزب سياسي يقوم على برامج، ويعتبر الحكم وسيلة لتحقيق هذه البرامج ، ويسعى ما استطاع الى تولي الوزارة ، ويتهافت عليها تهافت المستوزرين .. !

وفي أوائل عام ١٩٣٤ م نظم العقاد « نشيده القومـــي » وكان وقتئذ يحرر مقالاته السياسية في البلاغ . وقد جاء فـي مطلع هذا النشيد :

قد رفعنــا العلم للعـــلا والفدى
في ضمان السماء
أرض الهـــــرم حي مهـد الهدى
حي أم البقــاء

وعلى أثر نشر هذا النشيد اجتمع طائفة من كبار أدبـاء مصر ومفكريها ، وأقاموا له حفلة تكريم في مسرح حديقـــة الازبكية ـ برياسة زعيم الوفد ـ حضرها جمهور كـــبير من اعلام الفكر والبيان ، واعضاء البرلمان والوزراء ورجـــال التعليم ، وكرائم السيدات . وكان في مقدمة المتكلمين عن العقاد الدكتور طه حسين ، فألقى خطبة ضافية عن « العقاد ولـــواء الشعر » قال فيها :

« انه مهما كرم العقاد ، فان مكرميه لن يبلغوه حقـه من التكريم بالقياس الى احسان العقاد اليهم .. ! »

ثم يستطرد ، فيقول : « تسألونني لماذا أؤمن بالعقـاد في الشعر الحديث ، وأؤمن به وحده ، وجوابي يسير جدا ، لماذا؟. لانني أجد عند العقاد ما لا أجده عند غيره من الشعراء .. وان شئتم ، فاني لا أجد عند العقاد ما أجده عند غيره من الشعراء، لاني حين اسمع شعر العقاد او حين أخلو الى شعر العقاد ،فانما أسمع نفسي ، وأخلو الى نفسي .

« انما أرى صورة قلبي ، وصورة قلب الجيل الذي نعيش فيه ، وحين اسمع لشعر العقاد ، انما أسمع الحياة المصريـة

الحديثة ، وأتبين المستقبل الرائع للادب العربي الحديث .. »

وبعد ذلك يضرب الامثلة من « ديوان العقاد » . ويشيد بقصائده ، ولا سيما قصيدة « ترجمة شيطان» التي يقول فيها انه لم يترأ مثلها لشاعر في أوربا القديمة وأوربا الحديثة ، ثم يقول في النهاية : « ضعوا لواء الشعر في يد العقاد ، وقولوا للادباء والشعراء : أسرعوا واستظلوا بهذا اللواء فقد رفعه لكم صاحبه » .. !!

– ٥ –

وكان خريف سنة ١٩٣٤ م ، وتألفت وزارة محمد نسيم باشا الثالثة في ٢٢ نوفمبر من ذلك العام ، بعد استقالة وزارة عبد الفتاح يحيى باشا التي سارت على سياسة اسماعيل صدقي باشا . وكانت الامة غير راضية وقتئذ عن سيسة صدقي في الحكم والحياة النيابية التي قامت على دستوره الجديد ، فلما تولى نسيم باشا الحكم ، وأوقف دستور صدقي باشا ، انتظرت الامة منه أن يعيد دستور ١٩٢٣ م ونظامه النيابي ، وانتظرت من الوفد أن يطالبه بذلك خصوصا وقد أعلن تأييده للوزارة النسيمية ، ولكن نسيم باشا كان يتباطأ في الاستجابة لرغبة الامة . وكلما الحت عليه بالرجوع الى الحياة النيابية ودستور سنة ١٩٢٣ م الذي كان خيرا من دستور صدقي باشا ماطل وتغافل ، واخذ يحكم الامة حكما فرديا غير دستوري . وأثارت سياسة نسيم باشا « كاتب الوفد الاول » منذ ظهرت بوادر هذا الحكم ، ولم تمض على نسيم باشا ثلاثة أشهر ، فأخذ ينقد سياسته ويحذر رجال الوفد من اطماعه ونواياه . فلم يوافق الوفد على معارضة « العقاد » للوزارة النسيمية التي كان

يؤيدها ، ويعلم صلتها بالانجليز . وحدثت مشادة بينهما في بيته انتهت بخروجه على سياسة الوفد التي كانت تمالىء هذه الوزارة . وكان « العقاد » يكتب مقالاته وقتئذ في جريدة « روز اليوسف » ، فاشتدت حملته على هذه السياسة وعلى زعيم الوفد وصحبه ، واضطر نسيم باشا ان يصدر في ١٥ نوفمبر سنة ١٩٣٥ م بيانا سياسيا جعل عنوانه : « بيان للناس » . فكتب عباس العقاد مقالا نشرته روز اليوسف في اليوم التالي بعنوان: « قصة الدستور في بيان نسيم باشا » جاء فيه :

« وان للدستور في بيان نسيم باشا ـ على حد تعبير صديقنا الدكتور طه حسين ـ لقصة ، وانها لتختلف عن كل ما أذاعه المطبلون للوزارة النسيمية والمزمرون ، حين طلعوا علينا باسطورة منتصف شهر مايو الماضي ومنتهاه ، ثم باعجوبة الخريف والشتاء .. لكن مالنا وللانشاء الذي يتطرق اليه التحريف والتصحيف أو الشدة في التعبير والاساءة في التصوير .. وأمامنا بيان رئيس مجلس الوزارة وقد تضمن من الوقائع ما يكفي سرده في ترتيب لتقديم القصة للقراء أصدق تقديم .. »

ثم سرد هذه الوقائع التي أحصاها فكانت ثلاثا وعشرين واقعة . وفي مقدمتها : « ولي نسيم باشا الحكم ، وهو لا يقصد الى اعادة دستور ١٩٣٢ م بالذات ، اذ اكتفى الامر الملكي الذي استصدره في ٣٠ نوفمبر سنة ١٩٣٤ م بان يشير الى أن البلاد سيوضع لها نظام دستوري ، ولما أراد نسيم باشا تنفيذ الامر الملكي الصادر له أبلغه المندوب السامي ان الحكومة البريطانية ترى « ان البلاد قد تستفيد من تأجيل المسألة ، وان مصلحة البلاد تقتضي عند سنوح الفرصة أن يكون شكل

الدستور الجديد ، موضع درس مهم يتناول جميع وجوه المسألة . »

وقد علق العقاد في نهاية مقاله على الوقائع التي تضمنها البيان ، فقال :

« وبعد ، أفليست هذه القصة التي استخرجناها بكل أمانة من بيان نسيم باشا ، مؤيدة التأييد كله ، لكل ما سبق لنا ذكره عن نسيم باشا وموقفه من الوزارة ومن الانجليز ومن الدستور ؟

« وقد قلنا منذ الساعة الاولى انه قد ولي الحكم متفاهما مع « مستر بيترسون » على أن يحكم مصر من غير دستور سنتين كاملتين ، وان الدستور الذي يقدم لمصر بعد ذلك لا يكون هو دستور ١٩٢٣ م ، بل دستورا جديدا محدودا !! »

ـ ٦ ـ

لقد اقسم « العقاد » لزعيم الوفد في أكتوبر سنة ١٩٣٥ وهو يشير الى قلمه الرصاص الذي كان يكتب به مقالاته ـ وكان يحمله وقت جداله معه في بيته بالاسكندرية ـ الا ينتهي هذا القلم حتى تنتهي وزارة نسيم باشا من دست الحكم . وقد صدق.. فما كاد يمضي اليوم الرابع من يناير سنة١٩٣٦م حتى استقالت الوزارة النسيمية استقالة أشبه ما تكون بالاقالة وتولت الحكم بعدها وزارة « علي ماهر باشا » !

وأصر « العقاد » على مخالفته لزعيم الوفد في سياسته التي كانت تهدف الى تولي الوزارة في ذلك الحين ، مع مهادنة الاستعمار ، وممالأة مندوب المستعمرين في مصر ، واشتد في حملته على الوفد في معارضته ، واحتد زعيم الوفد ، وهو يجادله

في اجتماع ضمه وضم سكرتير الوفد وبعض أعضائه ، وذكره « بانه زعيم الوفد » فقابل العقاد احتداده بأشد منه ، وأجابه قائلا :

« انك زعيم الوفد ، لان هؤلاء الذين حولك اجلسوك على هذا الكرسي ، أما انا ، فان قلمي وحده هو الذي وضعني في مكان قدره رئيسك سعد زغلول وقدرته الامة » .

وأخذ الوفد يحارب جريدة روز اليوسف ، ويحاربه ، حتى عطلت هذه الجريدة . وكان قد انفصل قبل ذلك عن عبد القادر حمزة ، صاحب «البلاغ» لخلاف شخصي لا صلة له بالسياسة. فاتفق مع صاحب امتياز جريدة « الضياء » عبد الحميد حمدي على اصدار جريدته لحسابه . وكان هو مدير « السياسة » فيما رئيس التحرير « كليم أبو سيف » . وصدر العدد الاول منها بتاريخ ٨ فبراير سنة ١٩٣٦ م في ١٢ صفحة افتتحه «العقاد» بمقال ملأ أعمدة الصفحة الاولى بعنوان : « عهد وذكرى » ، جاء فيه ما يوضح فيه خطته ، فقال :

« في هذا اليوم نحن بادئون بعمل جديد ، ومثابرون على خطة معروفة معهودة لزمناها عشرين سنة في خدمة الصحافة والقضية الوطنية . فمن الاطالة على حضرات القراء ، أن نفيض في الشرح ، ونسهب في العهود والوعود فيما هو معروف معهود . وحسبنا اليوم ان نقول اننا سنمضي على ما كنا فيه ، لنكون قد قلنا ما فيه الكفاية ، واستغنينا عن الفضول والتكرار . فان كان لا بد من ايضاح لهذا الاجمال ، فايضاح هذا الاجمال انناسنعلن ما نعتقده من رأي في غير محاباة ولا احجام ، واننا لن نتردد في ابداء الرأي الذي نؤمن به ، كلما وجب ابداؤه وتعزيزه، واننا منذ اليوم الذي قضت فيه هذه الخطة نفسها بان نستقل عن جميع الهيئات والاحزاب قد آلينا على أنفسنا الا يعوق هذا

الاستقلال عائق ، ولا يحجبه حجاب نحن قادرون على أن نميطه ونعلو عليه .. فسياستنا في جميع المسائل والحوادث سياسة قومية تنظر الى الاعمال ، لا الى العناوين، والى المبادىء القويمة، والمصالح المصرية ، لا الى الاحزاب والهيئات .. »

ثم انتقل الى حرية الرأي والشجاعة الادبية في ابدائه — تلك الحرية التي حاربه فيها زعيم الوفد وقتئذ . فقال :

« حرية الرأي والشجاعة الادبية في ابدائه هما المثل الاعلى فيما نتوخاه من عمل صحافي ومن خلق قومي تدين به الامة ، وتعكف عليه ، ولا تعدل به مطلبا من المطالب ، ولا برنامجا من البرامج ، ولا وعدا من الوعود ! ..

« حرية الرأي والشجاعة الادبية في ابدائه أنفس من الاستقلال ، لان الامة التي تملك رأيها، وتملك شجاعة ايمانها وفكره الخصب ، وأدبه الرائع ، وعلمه الفياض — هي مستقلة فعلا وحقا ، ولو احتلتها فيالق الغاصبين .. فأما اذا خسرت الامة حرية رأيها وشجاعة ايمانها ، فلا خير لها في استقلال ، ولا دستور ، ولا نيابة ، ولا انتخاب ، لانها تساق سوق العبيد لكل من خطر له أن يسودها من الاقرباء أو البعداء. وتعيش عيشة العبيد ، ولو لم يكن لها سيد قريب أو غريب .. ولا فرق بين عبد مسود ، وعبد مطلق اليدين والقدمين . لان العبودية في النفوس والقلوب لا في القيود والاغلال .. »

ثم أخذ يحصي الحقائق التي دافع عنها ، واخلف فيها مع الوفد ، ورأى فيها آراء سديدة صدقتها الحوادث ، واثبتت صحتها الايام . ثم قال في النهاية :

« .. نعم ما صنعناه ، ونصنعه في كل حين . وذلك هو العهد الذي نعاهد القراء عليه . وتلك هي الذكرى التي نعود بها الى الاذهان والضمائر .. » !

هذه مقتبسات من الافتتاحية التي صدر بها هذا العدد وقد وطد « العقاد » العزم على متابعة اصدارها . ولكنه ما لبث ان حاربه خصومه بأساليبهم الحزبية ، واتفقوا مع متعهد توزيع الصحف على قتلها ، وهي في المهد . فانصرف « الكاتب الكبير » عن السياسة الى الكتابة الادبية وتأليف الكتب كما كانت عادته في كل ازمة يتعطل فيها عن الكتابة السياسية ، فيجد في ميدان التأليف والكتابة في الصحف الادبية والعلمية مجالا لعلمه البليغ .

انقطع « العقاد » عن الكتابة السياسية ، أو انصرف عنها حينا .. ثم كان انشقاق الوفد الثاني بزعامة احمد مـــاهر ، وتألف حزب « السعديين » . وأصدر جريدة الدستور ، وطلبوا منه ان يكون رئيسا لتحريرها ، فلم يقبل ، واعتذر بانصرافه عن الكتابة السياسية . وكان وقتئذ يؤلف كتاب « سعد زغلول » الذي صدر في ستمائة وثلاثين صفحة . ولما اصدر هذا الحزب جريدة « الأساس » كان محمود فهمي النقراشي زعيــم هــذا الحزب ورئيس الوزارة وقتئذ بعد مقتل احمد ماهر ، فألح على صديقه « عباس العقاد » ان يحرر في جريدة الاساس ، فاخذ يكتب مقالاته السياسية مستقلا في آرائه التي يراها في الاحداث الوطنية والمسائل القومية كعادته في كل ما يكتب، وخصص «يوم الثلاثاء » للكتابة الادبية . ولكن جهده الاكبر منذ تعطلت جريدة الضياء في سنة ١٩٣٦ قد انصرف الى تأليف الكتب وتحريـــر الفصول الادبية في المجلات الشهرية والاسبوعية .

ونستطيع ان نقول ان المدة التي بدأت من سنة ١٩٣٦ الى ان انتهت بوفاته في مارس ١٩٦٤ كانت أخصب انتاجا ، واكثر تأليفا من غيرها في « حياة قلمه » المباركة . فقد ألف فيها خمسة

ومبعين كتابا من نحو مائة كتاب ونيف ألفها طول حياته .

هذا عدا نحو خمسة عشر الف مقال او تزيد كتبها في الآداب والعلوم والفنون في الصحف العلمية والادبية مما يملأ مئات من الكتب الاخرى الى ما خلف من مؤلفات غزيرة .

– ٨ –

ولقد كان ديمقراطيا في حياته ، واشتراكيا تعاونيـا في مذهبه . فقد سئل يوما : « لمـاذا هو ديموقراطي ؟ » فأجاب : « لانني لست بالمذل ولست بالذليل ، ولست بالمؤمن بصلاحية الاستبداد في جميع الاحوال ، وهذه هي الاسباب التي تبغض الي الاستبداد حيث كان ، وتحبب الي الديموقراطية حيث كانت . ولو كانت بين أناس لا يستحقونها أحسن استحقاق .

« فالحرية في أقبح أوصافها خير من الاستبداد .. وقـد شبع العالم منعيوب الحكم المطلق ألوفا بعد الوف من السنين.. »

وقال عن مذهبـه الاشتراكي من مقال كتبـه في ذلك : **« انه هو اشتراكية التعاون التي تحـداها ولاة الامر في وطننا ، لاصلاح المجتمع بتحسين معيشة العامل والفلاح ، وتحديـد الثروة على أنواعها ، وتقريب المسافة بين طبقات الامة وهـي اشتراكية تؤتي ثمراتها على التحقيق ، كلما تتابعت بها التجربة بعد التجربة ، عـلى أساس التوفيـق بـين تقييد الاحتكـار والاستغلال ، واطلاق النشاط الحر ، والكفايـة الضرورية في ميادين العمل كافة ... »**

وقد كتب في عهد ثورتنا الحاضر مقالات عن العروبة والعرب والسياسة العربية من جوانبها العامة . وكتب عن كتاب « فلسفة الثورة » للرئيس جمال عبد الناصر مقالا ضافيا قارن فيه بين الثورة الفرنسية والثورة التركية، والثورة الصينية، والثورة المصرية . ثم قال عن كتاب رئيس الجمهورية جمال عبد الناصر :

« .. وبعد هذه المقارنة السريعة بين ثورتنا ، وثورات غيرنا نرى ان التفاهم على التفصيلات قريب كالتفاهم على الاصول الكبرى .

« فقد قرأت الصفحات الثمانين التي كتبها الرئيس جمال عبد الناصر في كتاب « فلسفة الثورة » فخرجت منها وانا اعتقد ان الخلاف عليها أقل خلاف في مثل هذه الصفحات وفي مثل هذا الموضوع .

« صواب ولا شك ان الحركة المصرية ، لا توصف بأنها تمرد عسكري » .

« وصواب ولا شك ان الحاضر يعيش ببقية من مساوىء العهود الماضية . وهذا هو باب الأسف والاسى ، ولكنه كذلك باب الامل والعزاء ، لانه يدفع اليأس من النفوس اذا عولج ، فلم يذهب به العلاج بين عشية وصباح « اذ لم يكن يكمن في غمضة عين أن تزول رواسب قرون » .

« وصواب كذلك ، ان الشك آفة معطلة للجهود معطلة للافكار والآراء ، فليس الانصاف وحده بالذي يشفع لأصحاب الشكوك ، ويعفيهم من عقاب لم يستحقوه وحدهم بعد اجيال

واجيال . ولكن العلاج المأمون نفسه هو الشفيع البليغ قبل شفيع الانصاف .

« يقول السيد الرئيس جمال عبد الناصر : (كان من السهل وقتها ، وما زال سهلا حتى الان ان نريق دماء عشرة أو عشرين ، أو ثلاثين ، فنضع الرعب والخوف في كثير من النفوس المترددة، ونرغمها على ان تبتلع شهواتها واحقادها وأهواءها ..)

« ثم يقول : (.. ولكن أية نتيجة كان يمكن ان يؤدي اليها مثل هذا العمل ؟ . كان من الظلم ان يفرض حكم الدم علينا دون ان ننظر الى الظروف التاريخية التي مر بها شعبنا والتي تركت في نفوسنا جميعا تلك الآثار) .

« نعم . يكون ذلك ظلما ، ويكون أكثر من ظلم ، لانه يصيب من لم يصبه العقاب فيضاعف داء الشك والحذر ، ويبطل فائدة العلاج ، وييئس من عقباه .. »

ثم يتناول « العقاد » بعد ذلك سائر ما جاء في « فلسفة الثورة » بالتعليق .. ويقول في ختام المقال :

« .. على ان الصفحات الثمانين التي تحمل اسم « فلسفة الثورة » لا تنحصر بالقارىء في حدود الافق المصري ، وان كانت لا تخرج به من آفاق المسألة المصرية في أوسع حدودها . **فالمصري في عصرنا هذا لا يهتم بوطنه حقا ان لم تشغله علاقاته بثلاثة آفاق أو عوالم ، لا انفصال لها من وطنه ، وهي العالم العربي ، والعالم الافريقي والعالم الاسلامي من اقصاه الى اقصاه .**

« .. أين نحن من العالم العربي ؟

«أين نحن من العالم الافريقي ؟

« أين نحن من العالم الاسلامي ؟

« نحن في قلب كل عالم من هذه العوالم ، فليس في وسعنا

ان نجهل علاقتنا بها ومستقبلنا معها . يقول الرئيس جمال :
(ان نصف الاحتياطي المحقق من البترول في العالم يرقد تحت ارض المنطقة العربية . فنحن اقوياء اقوياء ..)

« ويقول : (اننا لن نستطيع بحال من الاحوال حتى لو اردنا ــ ان نقف بمعزل عن الصراع الدامي المخيف الذي يدور اليوم في اعماق افريقيا بين خمسة ملايين من البيض ، ومائتي مليون من الافريقيين . اننا في قلب افريقيا، والنيل شريان الحياه لوطننا يستمد ماءه من قلب القارة ..) .

« ويقول الرئيس عن العالم الاسلامي : (حين امرح بخيالي الى ثمانين مليونا من المسلمين في اندونيسيا وخمسين مليونا في الصين ، وبضعة ملايين في الملايو ، وسيام وبورما ، وما يقرب من مائة مليون في الباكستان ، واكثر من مائة مليون في منطقة الشرق الاوسط ، واربعين مليونا داخل الاتحاد السوفيتي ، وملايين غيرهم في ارجاء الارض المتباعدة ــ حين امرح بخيالي الى هذه المئات من الملايين الذين تجمعهم عقيدة واحدة اخرج باحساس كبير بالامكانيات الهائلة التي يمكن أن يحققها تعاون بين هؤلاء المسلمين جميعا ، تعاون لا يخرج عن حدود ولائهم لاوطانهم الاصيلة بالطبع ، ولكنه يكفل لهم ولاخوانهم في العقيدة قوة غير محدودة) .

ويعلق « العقاد » على كلام الرئيس ، فيقول :

« وهذا كله صحيح في الجملة والتفصيل . وليس الاهتمام به من طموح الشباب ، كما يتخيل المتخيل الوادع في عقر داره ، بل اخشى ان اقول انه من اعباء الشيخوخة قبل اوانها .. بل من همومها في ابانها ، ان كان حمل الهموم البعيدة وقفا على الشيوخ . !

« ماذا نصنع ان جنى البترول على العالم العربي ، فضيعه بدلا من تزويده بأسباب القوة والمناعة .

« وماذا نصنع ان أصبحت أفريقية للمستعمرين الاوربيين ولم تصبح في الغد القريب افريقية للافريقيين .

« وماذا نصنع ان تهدم معنى الحياة ، كما تمثله المادية الحيوانية ، أو كما تمثله الحضارة الحسية ، ولم نعتصم من التيار الجارف بعصمة شريفة تعمر نفوس الملايين ، وترتفع بها من غمار الذل والاستكانة ، أو غمار القنوط والحيرة ؟

« فروض جسام . ولكنها فروض واقعة لا تهدأ ولا تنام .. » !

١٠

ذلك بعض ما جاء في مقال العقاد عن « فلسفة الثورة » . وهو مقال يعد من عيون مقالاته التي لم تجمع في كتاب . وقد آثرنا أن نتحدث عنه في هذا التقديم .

أما مقالاته الفلسفية والادبية والعلمية الاخرى فقد أضفنا بعد الفصل الثامن الى هذا الكتاب فصولا أخرى تحتوي على « ذكريات شخصية » ومقالات عن «أرض الميعاد» وهي بحوث كتبها بعد زيارته لفلسطين قبل التقسيم ، ومقالات أخرى في الادب والفلسفة والشعر والدين . وهذه المقالات اخترناها مما لم ينشر في كتاب من كتبه . وفي عزمنا أن ننشر من هذه المقالات مجموعات أخرى في كتب ملائمة لموضوعاتها المتقاربة ، أو المتجانسة في الفن ، والفلسفة والعلوم ، والآداب عما قريب ! ..

وقد أنتج في الاثنتي عشرة سنة الاخيرة أضعاف ما أنتجه

في غيرها من السنين السابقة لعهد الثورة . فمنذ قامت الثـورة المصرية في سنة ١٩٥٢ الى أن توفي ألف ما يربو على أربعين كتابا . وهذا يدل على نشاطه الكبيرة في شيخوخته بعد أن بلغ الثالثة والستين من عمره .

ولقد كانت الدور العلميـة والادبية تتسـابق الى نشر مؤلفاته ، كما كـانت الصحف والمجلات تهتم بنشر بحوثـه ودراساته . وكان من عادته فيما عدا مؤلفاته ومقالاته السياسية ان يفضل اقتراح الجريدة او المجله في الموضوع الادبي أو العلمي الذي تريده ، اما الموضوعات السياسية فهو صاحب اقتراحاتها ، لا يقبل من أحد أن يملي عليه اقتراحا سياسيا يكتب فيه ، ولو كان سعد زغلول الذي كان يقدره ويحبه . وفي ذلك يقول :

« انني افضل اقتراح المقالات الادبية للمجلات والصحـف السيارة لسببين :

« أحدهما أنه يريحني من حيرة التردد بين الموضوعـات الكثيرة ، فلا أضيع الوقت بين المناسب والانسب ، وبين الحسن والاحسن . وثانيهما ان محرري المجله او الصحيفة أولى باختيار موضوعاتها وتنسيقها . لان الكتاب قد يكررون الموضـوع اذا اختار كل موضوعـه مستقلا باختياره من غير مشـاورة ولا مقابله . فلا محل للاعتراض على محرر المجلة اذا اقترح موضوعا لكل كاتب يعاونه على عمله . ولا مساس بكرامة الكاتب مـن الاقتراح عليه ، بل هو نقيض ذلك دليل على الثقة ، وتحقيق لقول القائل : « اطلب تجد » ويقصدون به القدرة على الاستجابة لكل سؤال .

« وانني على ترحيبي بالاقتراح الادبي ، أرفض كل اقتراح سياسي بالكتابة في مسألة من مسائل السياسة وقد كان سعد زغلول رحمه الله ــ وهو زعيمنا الذي نحبه ونجله ــ يعلـم

ذلك ، فلا يقترح على الكتابة ، ولا الكف عن الكتابة . وغاية ما يستبيحه من طلب الكتابة اذا أرادها ان يبسط المسألة للمناقشة، ويسمع ما نقوله فيها : فان وجد أن الرأي متفق مع وجهة نظره قال : « أود أن اقرأ لك شيئا في هذه المسألة » . !

« وقد حدث أن اللورد جورج لويد « المندوب السامي في ذلك الحين » طلب اليه أن يكفنا عن الحملة عليه ، وأرسل اليه من يبلغه أنه يحسبه موعزا بها ، فما زاد على ان قال قولته المشهورة: « هذا شرف لا أدعيه ، أو تهمة لا أدفعها » .

« ولم يفض الينا بما حدث الا بعد انقضاء الازمة . وقد سيرت فيها الاساطيل للانذار والارهاب ، أو للتهويل والتمثيل. واننا نحمد الله على ما فرق به بين الادب والسياسة ، فلولا ذلك ما طلبنا بأنفسنا اقتراحا في الكتابة الادبية ، ورفضنا الاقتراح في السياسة وأنكرناه وان تحركت له الاساطيل » ! ..

هذا ما أردنا أن نقدم به « حياة قلم » . وان نتابع أحداثه وتطوراته السياسية والادبية بالاجمال، بعد ما وقف به الاستاذ العقاد عند ابتداء ثورة سنة ١٩١٩ م . فقد كان في عزمه أن يكمله . ولامر ما وقف به هذا الموقف ..

ويرى القراء فيما قدمنا من صفحات هذا التقديم صورة واضحة ــ وان كانت مركزة في لمحات ــ عن جهاد هذا القلم وصاحبه في نحو خمسة وأربعين عاما من حياته الفذة .. !

فحياة قلم العقاد فذة عظيمة بلا ريب ، ليست كحياة أي كاتب أو أديب في عصره . ويزيد هذه الحياة قيمة ومكانة أن صاحب هذا القلم كان عصاميا في نشأته وجهاده ، وأنه في كل ما حصله من علوم وفلسفة وآداب ، كان أستاذ نفسه وولي أمره ، ومدرسة فكرية جامعة ، ومكتبة نفيسة حافلة بالاطلاع الواسع .

وقد زود اللغة العربية وعلومها وآدابها بثروة قيمة الــى ثروتها الكبرى . ولو أن كتابات العقاد ومؤلفاته ، فقدت مــن المكتبة العربية لخسرت خسارة فادحة لا تعوض ، لانها عصارة فكر قدير، وحصيلة قريحة خصبة ووليدة ثقافة اصيلة، وانتاج ذهن عبقري ، عاش صاحبه اديبا مجاهدا ، وعالمــا مفكرا ، ومؤلفا غزير الانتاج واسع الاطلاع، وفيلسوفا سامي المبادىء، عظيم الاهداف .. !

طاهر احمد الطناحي

ولادة قلم

ألا أعرف نفسي ؟

سؤال نسمعه كل يوم ولا نجيب عنه ، ولا يجيب عنه قائلة ، لانه في عرفنا جميعا غني عن الجواب ، أو جوابه بلسان الحال يغني عن جوابه بلسان المقال ، وكأننا نقول لكل من يسأله : عفوا .. كيف لا تعرف نفسك ؟ .. تعرفها بالتحقيق !

ومع هذا اقول بعد تجربة طويلة للبواعث النفسية التي تدفعني الى أكبر الاعمال وأصغر الاعمال على السواء :

ان الانسان يعرف نفسه بالتخمين لا بالتحقيق، وأنه كثيرا ما يكون في تخمينه عنها غريبا يبحث عن مر غريب ، ولا فرق في هذا بين البحث عن أعمالنا والبحث عن أعمال غيرنا الا في الدرجة والمقدار ، بحكم العادة والتكرار .

حديث مع نفسي !

انني أعمل في تحرير الصحف من خمسين سنة ، (١) وكنت أكتب لها متطوعا قبل ذلك بسنوات قليلة ... وأزيد القارىء فأقول : انني منذ بلغت من الطفولة وفهمت شيئا يسمى

(١) كتب هذا الفصل ــ وهو اول فصول حياة قلم ــ في اغسطس سنة ١٩٥٧ .

المستقبل لم اعرف لي أملا في الحياة غير صناعة القلم ، ولم تكن أمامي صورة لصناعة القلم في أول الامر غير صناعة الصحافة .

ولكنني مع هذا اسأل نفسي الان كما سألتها من قبل : لماذا اخترت هذه الصناعة دون غيرها في طفولتي ، وجعلتها أملا من آمال الحياة الكبرى .. بل أمل الحياة الاكبر ؟ فلا أدري باعث هذا الاختيار على سبيل التحقيق ، ولا استغني فيه عن التخمين أو التخمين الكثير ، بعد المقارنة بين ذكريات الطفولة وملابساتها وبعد الترجيح من هنا والشك من هناك ، كما يفعل الباحث في السير والتراجم حين يعمد الى التخمين عن حياة الآخرين .

وأكثر من هذا انني « اضبط » نفسي وهي تروغ مني وتحاول ان تقنعني بوجهة غير الوجهة التي تعنيها او تعنيني ، ثم نتلاقى مبتسمين ، وأكاد أسألها : أأنت هنا ؟ وتكاد تسألني: وها أنت يا صاح ؟ .. ثم لا نلبث أن نعلم أننا لم يفهم بعضنا بعضا من الكلمة الاولى ، وانا نحتاج بعدها الى كلمة أو كلمات نثوب بعدها الى التفاهم والاتفاق .

***

قلت انني لم أعرف لي في طفولتي أملا غير صناعة القلم .

وهذا صحيح ..

وهذا غير صحيح .. !

صحيح اذا نظرنا الى الوجهة القصوى في نهاية الطريق .

وغير صحيح اذا نظرنا الى عطفة هنا أو منعرج هناك أو زقاق بين بين في اثناء الطريق ..

كلا ! بل تمنيت حينا ان أكون جنديا . وتمنيت حينا آخر

أن أكون عالما زراعيا ، وهما فيما يبدو صناعتان متباعدتان !

ولكنني لم البث أن علمت انني تعلقت بالجندية لأنني أريد صناعة القلم ، وتعلقت بالعلوم الزراعية لانني أريد صناعة القلم ، وان صناعة القلم كانت تلمحني بعينيها الساحرتين من وراء النقاب وأنا أحسبني أغازل صناعة السيف أو أغازل صناعة المنجل والمحراث ..

حادث مع قومندان الانجليز

كانت لعبة الجيوش في أواخر القرن التاسع عشر لعبة الاطفال المفضلة في أسوان . وكانت دروب المدينة وحيشان المدارس والمكاتب ميادين قتال لا ينتهي بين جيش مصر وجيش السودان وجيش الدراويش وجيش الترك وجيش الانجليز .. وكلهم بين قادة وجنود من صغار الاطفال الذين لا يجاوزون العاشرة ، لان المسألة كانت جدا ـ ولم تكن لعبا فحسب ـ مع الاطفال في هذه السن على الخصوص . اذ كانوا يسمعون أن الدراويش اذا دخلوا قرية قتلوا رجالها ، وسبوا نساءها ، وحملوا أطفالها مطعونين على أسنة الحراب ، فلا جرم تشغلهم هذه الحرب عن كل شاغل من شواغل الخطر والخوف فضلا عن شواغل الالعاب ..

ومما أتمثله أمامي حتى الساعة ، وأبتسم له كلما تمثلته ـ منظر زميلنا المقدام « عبد المعطي فرج » قائد الجيش السوداني المغير على مكتب « القومندان » في المعسكر الانجليزي وهو يصيح وأذنه في يد القومندان الجبار :

« مش انا يا عمي .. مش أنا والله يا مستر » .. ويكاد القومندان يقهقه وهو يدفعه الى الخارج ويزجره قائلا «مأعلمك

كيف تنط يا خنزير ! » .

ذلك اننا في هذه الهجمة زدناها حبتين ، ولعلها زادت في الحقيقة أكثر من حبتين ! ..

قررنا ــ نحن قادة الجيوش المصرية والسودانية ــ ان نهجم حقا على القومندان الانجليزي في معقله بجانب المدرسة ، وكان هذا القومندان رجلا صارما يخافه الانجليز من مرءوسيه ويستعيذ من شره أهل المدينة الخاضعون لاحكامه العرفية ،فما هو الا أن سمع دبة عبد المعطي تحت السور حتى وثب الى الباب مستغربا ان يجترىء أحد على اقتحام مكتبه هذا الاقتحام في وضح النهار ، وفتح الله على قائدنا المغوار ــ عبد المعطي ــ بالعذر الوحيد الذي لا يقبل التصديق في هذا الحرج الشديد : اذنه بين اصبعي الرجل ولسانه يصيح : انه ليس هو المقبوض عليه .

على الربابة !

هذه اللعبة ــ لعبة الجيوش ــ كانت شغلنا الشاغل في المدينة التي لا لعب ولا لهو فيها ، وكانت من جانبي أنا على الاقل لعبة عسكرية أدبية في وقت واحد .. لأنني كنت قائد الجيش المصري الذي يطلب المبارزة من الاعداء ويطلبها على الطريقة العنترية الهلالية اليزنية المشهورة في ملاحم شعراء الربابة ، فلا يبدأ الصدام قبل تبادل الشعر الحماسي على حسب المقام ..

وكان زملاؤنا ــ أو أعداؤنا ــ يستعينون في تحضير هذه الحماسيات بشعراء الربابة الذين امتلأت بهم قهوات البلدة في أيام الحملة السودانية وأغنوها عن المسارح وملاعب البهلوانات

والقرقوزات ، لازدحام المدينة بالجنود والباعة من أبناء الصعيد ـ طلاب هذا الضرب من القصص والاناشيد ـ ومن لم يجد من الطلاب بغيته عند شاعر الربابة طلبها في بيت هنا او قطعة هناك من كتب المحفوظات أو روايات التمثيل ، وفيها الكثير منمواقف الفخر والحماسة أو مواقف التخويف والتهويل ..

وكنت أنا قد جربت نظم الشعر في بعض المقاصد المدرسية ، فشجعتني التجربة على نظم الاناشيد الحماسية لميدان المبارزة ، وأردت أن أثبت للسامعين انني صاحب تلك الأناشيد فالتزمت في نظمها أن أذكر اسمي كاملا في كل قطعة منها . وانتصرت بها انتصارا أعظم من انتصار القتال. اذ أوشكت المناوشة كلها ان تنحصر في الاستماع الى قصائد الفخر والحماسة بغير قتال ..

وانتهت مدتي في الجندية بنهاية هذه الجندية المتطوعة !! .. فلمْ يعسر عليّ ان أفهم ان حماسة النشيد هي بيت القصيد عندي من الجندية والتجنيد ، وانها كانت منفسا للملكة الناشئة التي لم تستقر بعد على قرار ..

سر الولع بالزراعة

أما الولع بالعلوم الزراعية ، فلم ألبث أن علمت انه في دخيلته ولع بتطبيق الاشعار التي أقرأها عن الازهار والعصافير والحدائق وجداول الماء والانهار .. وربما كان مدخلها الى نفسي أعمق من ذلك وأخفى مكانا على النظرة الاولى التي نظرتها بها يوم ذاك ، فان علوم الزراعة تعين علي مراقبة أطوار الحياة وغرائب الحيوان والنبات ، وليس أوثق من العلاقة بين الدراسات النفسية وبين تلك الغرائب والاطوار ، ولا أراني حتى الساعة أوثر كتابا في سيرة علم من اعلام التاريخ على

كتاب في طبائع الاحياء والحشرات او آثارها القديمة في بقايا الحفريات ..

كانت أمنية الجندية وعلوم الزراعة اذن ترجمة لامنية الكتابة مستعارة في صور الصناعات الاخرى ، وبخاصة حين نذكر انها كتابة لا تخلو من نضال ، ولا تخلو كذلك من زراعة ولا من عناية بالحياة والاحياء ..

ومثل هذه الترجمة فيما أظن معهودة في كل محاولة ناشئة قبل أن تستقر على قرارها ، فلا يزال الناشيء يتمنى شيئا بعد شيء ويجهل ما يتمناه حتى يثبت فيه على القرار الاخير .. ويومئذ يعلم انها كانت جميعا أمنية واحدة في باطنها ، وانه كان بينه وبين نفسه في هرب ولقاء كأنهما في طراد البحث والاستخفاء .

أول مجلة :

وأحسبني حتى الساعة لم ابلغ من معرفة الباعث الصحفي في نفسي مبلغ اليقين الجازم الذي لا رجعة فيه ولكنني على يقين جازم من انني انشأت صحيفة في طفولتي الباكرة ، وانني لم أنشئها قبل أن أطلع على ودائع دولاب المنظرة في بيتي ، وأكثر ما فيه صحف أسبوعية أو شهرية قديمة ، وأكثر هذه الصحف القديمة من مجلات عبد الله نديم ، وليس بينها أكثر عددا ولا أكبر حظوة عندي يومذاك من مجلة « الأستاذ » .

ودولاب المنظرة مستودع عزيز يعرفه أبناء الريف ولا تخلو منظرة في بلدة ريفية من دولاب منه على الاقل ، يفرغ في جوف الحائط ويقام عليه باب بمفتاح أو بغير مفتاح ، ويغلب ان يكون الباب بغير مفتاح لان الودائع التي يحرص عليها

أصحابها لا تودع في المناظر على متناول الداخل الغريب .

وعلى تعداد الصحف في دولاب المنظرة عندنا لم تكن بينها صحيفة أبرع في العناوين من صحف عبد الله نديم ، وكان هذا الصحفي المطبوع أستاذ زمانه ، بل لعله استاذ من أساتذة العناوين في كل زمان ..

من عناوينه عنوان « كان ويكون » للترجمة ، وعنوان « التنكيت والتبكيت » لاسم صحيفة ، وعنوان « المسامير » لكتاب هجاء ، وعناوين أخرى بهذه البراعة لعشرات من الفصول والاخبار .

معارضة النديم !

ولفتتني العناوين البارعة فقرأت كل ما وجدته من صحف النديم ، ووجدتني ذات يوم أقطع الورق قطعا على قدر المجلة وأعمد الى مكان ألعنوان منها فأكتبه بخطي متأنقا وأعارض عنوان « الاستاذ » بعنوان « التلميذ » .

أما المقالة الافتتاحية فقد كانت أيضا من قبيل المعارضة لمقالة من أشهر المقالات التي تردد صداها زمنا في البيئات المصرية ، وهي المقالة التي جعل عنوانها « لو كنتم مثلنا لفعلتم فعلنا » وافتتح بها الجزء الثاني والعشرين من السنة الاولى .

فكتبت مقالي الافتتاحي وجعلت عنوانه « لو كنا مثلكم ما فعلنا فعلكم » .

وكان فحوى مقال النديم اننا نطلب الاستقلال وندعي اننا والاوربيين أشباه وأمثال ، ولكن الاوربيين ينكرون هذه الدعوى ،ولا يكلفون أنفسهم غير دليل واحد يثبتون به الفارق البعيد بيننا وبينهم . فاذا قلنا لهم نحن مثلكم قالوا لنا تلك

دعواكم ، ولو كنتم مثلنا لفعلتم مثلنا ..

واستغرقت مقالة النديم أكثر من عشرين صفحة ختمها بقوله : « ان آخر الدواء الكي وقد بلغ السيل الزبى فان رفأنا هذا الخرق وشددنا أزر بعضنا .. أمكننا أن نقول لاوربا نحن نحن وانتم أنتم ، وان بقينا على هذا التضاد والتخاذل والليـاذ بالاجانب فريقا بعد فريق حق لاوربا أن تطردنا من بلادنا الى رؤوس الجبال لتلحقنا بالبهيم الوحشي وتصدق في قولها : لو كنتم مثلنا لفعلتم فعلنا » .

***

وتناولت في مقالي فقرات النديم واحدة واحدة بردود لا أذكرها الان ، ولكني أذكر منها ما يدل عليه العنوان ، وفحواه اننا نحن الشرقيين لو كنا مثلكم ـ أيها الغربيون ـ فاتحين منتصرين لما فعلنا فعلكم من نهب الاموال واستباحة الحقوق وافتراء الاكاذيب والتعلل بالمواعيد ، ولكننا لسنا مثلكم ولا نريد أن نفعل فعلكم ، وسترون فعلنا عما قريب ..

ثم اصدرت من صحيفة التلميذ المخطوطة بضعة اعداد لم يكن لها من قراء غير زملائي في المدرسة وأقاربي المشجعين أو المتندرين المتفكهين . ولم يكن لها من اشتراك غير تعب النسخ لمن يراها مستحقة لهذا الثمن ..

عادة .. من أيامها !

اخالني الآن على حق اذا قلت ان هـذا السر ـ سر دولاب المنظرة ـ هو كذلك سر الاتجاه الاول عندي الى صناعة القلم ، ويؤيد هذا الظن الراجح انني تعودت من أيامها عادة لم تفارقني

الى اليوم في تجهيز ورق الكتابة الصحفية بصفة خاصة .. فهـذه الورقة التي اكتب عليها الان مقصوصة على النحو الذي اخترته لصفحات مجلة « التلميذ » ... ومتى كتبتها طويتها طولا كما تطوى المجلة ووضعتها في غلاف مستطيل كالغلاف الذي توضع فيه المجلات ، وقد اتخذت من هذه الاوراق ومن ذلك الغلاف ذخيرة حاضرة أوصي بصنعها اذا نفدت من السوق ، كما تنفد أحيانا في بعض أيام الحروب العالمية .

***

وعلى هذا النحو من التخمين نعرف أنفسنا باحثين مترددين، قبل أن نصل الى اليقين ، ان وصلنا الى يقين ..

لكنني لا تفوتني كلمة سمعتها من صديق كان يناقشني كلما تساءلت عن سر اتجاهي الى صناعة القلم فيقول : وهل من حاجة الى البحث عن سر لهذا الاتجاه ؟ الا يكفي أنك أنست من نفسك القدرة على الكتابة فاتجهت الى صناعة الكتابة ؟ ..

ولست على رأي الصديق في هذا التعليل لاتجاهاتنا النفسية ، فان الملكة النفسية تخلق فينا قبل أن تخلق لها أدواتها ، وربما كانت سهولة الكتابة عندي نتيجة مستفادة من سهولة القراءة ، ولم أكن قارئا الا لانني سأكون كاتبا يوما من الايام متى تيسرت الأداة .

على أن شعور الطفل بقدرته على الكتابة لا يأبى عليه أن يتمنى الوزارة أن يتمنى الوجاهة الاجتماعية أو يتمشى صناعة القلم مبتدئا بعمل من الاعمال الكتابية غير الصحافة ، ولست أعتقد أن مئات الاطباء والمهندسين والصناع وذوي الملكات المنوعة الذين ظهروا من ابناء جيلنا قد استلهموا اختيار صناعاتهم من وحي القدرة على علم من علومهم المدرسية ، بل

لعلهم توجهوا وجهتهم في مستقبلهم على الرغم من جميع تلك العلوم ..

جيل وجيل

كان عبد الله النديم استاذ مدرسته في الصحافة والدعوة الوطنية ، وكان كل من نشأ بعده بقليل بين واحد من اثنين : اما تلميذ يقتدي به ، واما خصم يبغضه وينحي عليه ..

ونشأ مصطفى كامل في هذه المدرسة ، وكان خصوم النديم يزعمون ان الخديو لم يعرض عن الاستاذ ويقبل على التلميذ الا لان أبناء الاسرة الخديوية غضبوا لتقريبه رجلا كان يحاربهم في الثورة العرابية ويعمل على تقويض عرشهم ، فاختار الخديو من تلاميذه شابا بعيدا عن هذه الشبهة وميزه على استاذه لمعرفته باللغة الافرنجية ، وقال ولي الدين يكن في كتابه « المعلوم والمجهول » :

« من أجل هذا قال أكثر الامراء من الاسرة الحاكمة على مصر أن مقام الامارة لا يقرب منه النديم لانه عدو أسرته وجنسه ، وبهذه السياسة المضحكة آل الامر الى الاعتماد على « كامل » وقد كان كامل ممن يرددون نغمات النديم ، وانما ميز المقلد عن المجتهد المامه باللغة الفرنساوية واستطاعته بيان آرائه للغربيين ولم يفز النديم بمثل ذلك » .

الا ان الامر لم يكن في هذه المسألة خاصة أمر اللغة الافرنجية ، لان الخديو قرب اليه الشيخ علي يوسف الازهري وهو ممن انشأوا الصحف منافسة للنديم وتطلعوا الى محاكاته في المنهج والاسلوب ، ولكنها مسألة المدرسة الصحفية التي كانت تحمل علم الدعوة أمام الصحافة المسخرة للدعاية الاجنبية ، ولم

تكن هناك مدرسة تحمل هذا العلم في أول عهد الاحتلال غير مدرسة النديم .

ويصدق هذا على جيل النديم والجيل الذي تلاه ، ولكنه لا يصدق على الجيل الذي نشأ بعد ذلك بسنوات ، لان هذه الفترة قد اتسعت لعوامل جديدة في السياسة والتفكير تخالف العوامل التي غلبت على الثورة العرابية أو على جيل المخضرمين بين الثورة والاحتلال .

أنا .. والنديم

ولهذا أرجع الى ظواهر كثيرة صاحبت نشأتي الصحفية فلا أستطيع أن أقول انني على الجملة من تلاميذ مدرسة النديم ، وان كان النديم أول من لفتني الى العمل في الصحافة وكانت مطالعته أول مطالعة وجهتني الى هذه الصناعة ..

لا بل هناك مشابهات عديدة بين النديم وبيني لا أدري هل جاءت من وحي القدوة الخفية أو جاءت مصادفة بغير قصد مني ولا من أحد ..

فقد تعلمت صناعة التلغراف كما تعلمها النديم، واشتغلت بالتعليم في مدرسة خيرية كما اشتغل النديم ، وجربت الاستخفاء على الطريقة البوليسية أكثر من مرة في ابان الحرب العالمية الاولى ، وكذلك فعل النديم عند مطاردته في أعقاب الثورة العرابية ..

ولكنني ــ مع هذه المشابهات ــ لم أشعر من قبل ولا أشعر الان بأن الرجل قدوتي المختارة بين أمثلة النبوغ التي أتمناها أو بين « الشخصيات » المثالية التي أجلها واحب أن أنتمي اليها ..

وأحسب أن المرجع في هذا الاختلاف الى سببين : أحدهما يرجع الى الاحوال العامة ، والاخر يرجع الى المزاج الشخصي الذي فطرت عليه ..

فالأحوال العامة في عصرنا تخالف الاحوال العامة قبيل الاحتلال أو في الفترة بين الثورة العرابية والاحتلال ، لان دخول الانجليز مصر كان مسألة دولية تعمل فيها الدولة العثمانية عملا « قانونيا » يصح الاعتماد عليه باعتبارها صاحبة السيادة القانونية على الديار المصرية ، وكانت مناورات الدول المتنافسة على فتوح الاستعمار بابا مفتوحا على مصراعيه يتسع للمساومات والدسائس والمعاكسات ويتعلق الامل به من جانب المصريين ، ولو الى حين ..

وهذا فيما نظن أحد الاسباب التي تحولت بأنظار عبد الله النديم وتلاميذه الى الدولة العثمانية ، وجعلت سيادة هذه الدولة على مصر ركنا مهما في برنامج مصطفى كامل والحزب الوطني الذي قام على يديه ..

أما في عصرنا ــ نحن الذين ولدنا بعد الاحتلال ــ فقد أصبحت مسألة الاحتلال من أعبائنا الوطنية التي لا عمل فيها للدولة العثمانية ولا للمناورات الدولية ، وانما يقع العبء الاكبر فيها على عواتقنا نحن المصريين .. فلا يجوز لنا أن نفرط في مبدأ الاستقلال من أجل صيغة « شكلية » لا تفيدنا في جهادنا ان صح أنها كانت تفيدنا قبل ذاك ..

هذا هو سبب الاختلاف بين جيلنا وجيل النديم فيما يرجع الى الاحوال العامة .

وأما سبب الاختلاف الذي يرجع الى المزاج الشخصي فخلاصته في كلمتين : ان الرجل كان ينزع كثيرا أو قليلا الى شيء من التهريج ، وانني نشأت في بيئتي البيتية بين أبوين

محافظين أشد المحافظة على سمت الوقار و « اللياقة » ونقلت هذا الخلق منهما بالوراثة كما نقلته بالقدوة والمحاكاة ..

كل الناس .. ولا عباس !

ومما يحضرني من ذكرياتي فيما دون العاشرة انني رفضت كل الرفض أن ألبس البنطلون القصير يوم دخلت المدرسة في نحو السابعة من عمري ، وانني رفضت أشد الرفض أن أجيب نداء المعلم حين دعاني باسم « عباس حلمي » جرياً على تقاليد ذلك العهد التي بقيت الى الان في أسماء المعاصرين .. فلم يكن أحد من التلاميذ يدعى باسم أبيه ولكنهم كانوا يلقبون بألقاب حلمي وصبري ولطفي وحسني وشكري وما شاكلها على حسب المطابقة لاسماء المشهورين أو الموافقة لجرس اللقب ورنينه في الاسماع ، فبقيت واحدا من قليلين يذكرون بأسماء آبائهم بين أبناء ذلك الجيل ، ولولا اصراري على رفض اللقب المستعار لكان اسمي اليوم « عباس حلمي محمود » كما كتب في قائمة « التصنيف » أي توفيق الاسماء والالقاب ..

والى اليوم يذكر شيخاتنا وشيوخنا في الاسرة كلمة الامهات التي كن يرددنها لاطفالهن كلما أصابهم ما يسوءهم من التورط في المزاح معي وراء الحد الذي أسيغه ، فاذا ذهبوا الى أمهاتهم يشكون ما أصابهم كان الجواب الذي يقال بين الضحك والغضب: امزح مع من شئت يا بني .. ولكن « كل الناس ولا عباس ! »

ومن الطبيعي لطفل في هذا المزاج أن ينظر الى مثله الأعلى فلا يراه في صاحب التنكيت والتبكيت وصاحب المسامير ، واحسبني لم أفضل الاستاذ الامام محمد عبده على صاحبنا النديم الا لسبب من جملة أسباب ترجع الى هذا المزاج ، فان

وقار محمد عبده هو القدوة التي أرتضيها حين أنظر الى النديم فيظفر مني بالثناء ولا يظفر مني بالاقتداء ، وكلاهما فيما عدا هذا الخلق صنوان ينتميان الى الثـورة العرابيـة والى مدرسة جمال الدين والى العمامة والبيئة الازهرية ..

مدرستان ! ..

وأيا كانت أسباب الاختلاف بين النديم وبيني ، فالعصر الذي نشأنا فيه لا يسمح لمدرسة واحدة أن تطغي على أفكـار الناشئة في كل بقعة من بقاع البلاد المصرية .. لانه كان عصرا مزيجا مضطربا بين عصرين ذهب احدهما ولـم يخلفـه العصر القادم على رأي واضح مقسوم بين كل فئة من الناشئين ومـا يوافقها وتوافقه من التفكير الحديث .

كان عصرنا « برج بابل » يبنى ويعـاد بناؤه بـين عـام وعـام ..

كنا نعيش في عصر الجامعة الاسلامية على مذاهب ،ونعيش في عصر الجهاد الوطني على مذاهب ، ونعيش في عصر التجديـد الفكري على مذاهب ، ولا نرى أمامنا مذهبا واحدا في قضية من قضايانا الكبرى ، وكلها مشكلات ..

فالجامعـة الاسلاميـة مدرستان : مدرسة جمـال الدين ومدرسة الدعاة الرسميين ..

مدرسة جمال الدين تعني بالجامعة الاسلامية أن تكـون جامعة شعوب متيقظة مسؤولة عن شؤونها مرعية الحقوق مـع ملوكها وأمرائها ، فضلا عن حقوقها مـع الطامعـين المتربصين بهـا ..

ومدرسة الدعاة الرسميين تعمل للملوك والامراء وتريد

من الجامعة الاسلامية أن تكون وحدة سياسية بزعامة هـذا الخليفة أو ذاك من ملوك المسلمين ، وأعلاهم صوتا في مصر من كان يعمل لخليفة بني عثمان ..

ومدرسة الجهاد الوطني على هذه الحال :

مذهب يعتمد علىمناورات الدول وحقوقالسيادة الشرعية، ومذهب يستضعف هذا الرأي ، ويحسب العمل فيه من ضياع الوقت على غير جدوى ، وبخاصة في أمر التعويل على السيادة العثمانية . لان حقوق هذه السيادة لم تكن عصمة للمعتمد عليها ، بل كان مجرد الانتماء الى الرجل المريض صاحب التركة المنتظرة ـ كما كانت الدولة العثمانية تسمى في ذلك الحين ـ ذريعة الى ضياع البلد في معركة النزاع على التركة أو في مساومات التقسيم والتفريق ! ..

بلبال !

ويزيد البرج بلبالا خليط الاصوات المنبعثة من طغمة الدعاة المأجورين المسخرين لخدمة الدسائس الاجنبية ..

فمن هؤلاء من كان يضرب المعول في أركان الدولةالعثمانية جاهدا مكابرا باسم الاصلاح والثورة على الاستبداد ، وهو في باطن الامر صنيعة للدول ومسمار من مسامرة الاستعمار الذين يقصدون في الواقع الى هدم الاسلام وتمكين المستعمرين من الدولة المستقلة الباقية بين بلاد المسلمين ..

ومن هؤلاء من كان يعلن الغيرة على حقوق مصر والدولة العثمانية ، وهو في باطن الامر صنيعة السياسة الفرنسية في الشرق يناوىء الاحتلال بأمرها ويورط البلد في المشكلات تحقيقا لمآربها ..

ومنهم من كان يثير دعوة الجامعة الاسلامية ليتخذها وسيلة الى ايقاع الشقاق بين أبناء الوطن الواحد ، تأييدا لدعوى الدول التي تستفيد من تهمة التعصب الديني ، وتلوح بها لاقناع الاجانب بحاجتهم الدائمة الى الحماية من دولة أوربية ..

ومنهم من كان يطلب الدستور ، ولكنه لا يطلبه حبا للحرية ولا انصافا للامة بل تعزيزا لسلطان الخديو .. وتمهيدا لاطلاق يده في ميزانية الدولة ووظائف الحكومة بمعزل عن دار المندوب البريطاني ومستشاريها في الدواوين ..

بلبال ، وأي بلبال ..

وأشد منه اختلاطا بلبال اخر في ميدان الفكر والثقافة ، يضطرب فيه القول بين تكفير من يعجب بالثقافة الحديثة وبين اتهام من يزدريها بالجهل المطبق والبهيمية العجماء ، وسوف نعرض لهذا البلبال الفكري في مكانه من الفصول القادمة .. لأننا نبدأ بالكلام عن الصحافة وموضوعاتها الغالبة عليها قبيل اشتغالي بالتحرير فيها ، ثم نقفوه بالكلام على غيره من الموضوعات ..

بلبال يهون الى جانبه ضوضاء برج بابل .. فأين يذهب الطفل الناشىء في دروب هذا التيه وزواياه بين مهابطه ومراقيه .. ؟!

وانا في السادسة عشرة !

لا أعيد هنا كل ما عرض لي في هذا الطريق من حيرة وشك وعثرات وأزمات .

لكنني أعلم علم اليقين انني كنت على قرار واضح في كل قضية من هذه القضايا حين بلغت السادسة عشرة ، ثم عملت

لاول مرة في تحرير صحيفة الدستور ..

الجامعة الاسلامية عندي هي جامعة جمال الدين ، أو جامعة شعوب متيقظة متعاونة لا جامعة ملوك وعروش تساق لخدمة هذا الخليفة أو تخليف ذلك السلطان ..

الدولة التركية نتمنى بقاءها وصلاحها ، ولكننا لا نتمنى سيادتها ولا نستمع لمن يحاربها باسم الشورى أو النقمة على الاستبداد ..

الدول الاجنبية لا تنفعنا ان لم ننفع أنفسنا ، وسياسة « مصر للمصريين » هي أقوم سياسة يتبعها المصريون ويهتدون بهديها فيما لهم من حق وعليهم من واجب ..

الحزب الوطني حزب مخلص مجتهد ، ولكنه مفرط في مجاملة « يلدز » و « عابدين » مقصر في مساعيه نحو « مصر للمصريين » .

الملوك والامراء يخدمون القضايا بمقدار ما تخدم عروشهم، فان تلاقت مصالحهم ومصالح الوطن فحبا وكرامة ، وان تشعبت الطريق بين هذه المصالح وتلك المصالح فلا خفاء بالطريق القويم ..

الحكم الدستوري لا غنى عنه ، ولا وجه للمقارنة بينه وبين حكم الاستبداد بحال من الاحوال ..

داخل النطاق

منذ كتبت في صحيفة الدستور لم تخرج كتابتي عن هذا النطاق في قضية من هذه القضايا ..

لم أمدح الخليفة « عبد الحميد » الا في مناسبة واحدة وهي علان الدستور ، ويومئذ كتبت أبياتا أهنئه بها وأسجل

تاريخ السنة بحساب الحروف الابجدية ، فكان التاريخ هــذه الشطرة :

« قد أنشأ الدستور عبد الحميد » .

ومجموع حروفها بحساب الجمل « ١٣٢٦ » وهي السنــة الهجرية التي أعلن فيها الدستور ..

ولما توفي مصطفى كامل شيعته صحيفة الدستور ــ وهي من صحف الحزب الوطني ــ برثاء أبلغ من رثاء صحيفة اللواء ، ولكنني أحجمت عن رثائه بثناء خلو من النقد وأحجمت في ذلك المقام من نقد سياسته قبل الآستانة وقبل الخديو وقبل السيادة العثمانية ، وكاشفت الاستاذ فريد وجــــدي بحرجي وحرج صحيفته وهي لسان الجامعة الاسلامية الاولى ولسان الحزب الوطني الثاني بعد اللواء ، فقال لي رحمه الله انه يفهــم هذا الحرج وانه يقوم عني بما أتحاشاه ، فآثرت الصمت عن الرثاء على ثناء بغير نقد ، أو نقد متحفظ ، متحرج ، بين مضطرب الآراء ..

***

وانقطعت الصلة بيني وبين الصحيفة بضعة أشهر لا أكتب فيها ولا أكتب اليها، ولكنني كتبت اليها مقالي الوحيد من الخارج يوم أعلن الدستور في ايران ، وقلت فيه مهنئا للشاه الصغير : لو كنت في فرنسا لكـــان مصيرك كمصير الصبي ابن لويس السادس عشر ، ولكنك تحمد الله لانك في بلد اسلامي وتحمد لشعبك ــ ولا ريب ــ جميل هذا الصنيع .

والان ــ بعد نصف قرن كامل ــ أقول انني قد جربت هذا البرنامج السياسي، الصحفي، في مشكلات هذه الحقبة وأزماتها جميعا .. فحمدت مغبة هذه التجربة ، ولم أجد فيما وجدته من

الحوادث المتناقضة برنامجا أصبح منه ولا أصلح لقضية مصر وقضايا الامم الشرقية ، ولا أعلم أن الحوادث بعد الحوادث كشفت لنا عن خطة أهدى منه للعاملين وأحق منه باتباع المتبعين ..

وبعد ، فانني لا أحب أن أنافق القارىء باصطناع التواضع الكاذب طلبا للثناء الأكذب ، فأقول ان الحكاية سهلة على كل من يطلبها ، وانها حكاية يطلبها كل من شاء بغير عناء ..

الاستقلال ..

كلا ! ... ليس من السهل على كل ناشىء في العشرة الثانية من عمره أن يسلك سبيله بين تلك النقائض والشبهات دون أن يروض نفسه على استقامة القصد الى الحقيقة واستقلال الرأي بين شتى الدوافع والمغريات ..

ولكنني أعود فأقول انه لا استقلال الرأي ، ولا استقامة القصد ، كانت كافية لهدايتي الى سبيلي لو لم أستفد من ظروف الاوَنة التي نشأت فيها وظروف البلد الذي نشأت فيه..

لقد كانت الآونة في مصر آونة نادرة ، لم تمتحن فيها العقول بعد بمحنة المحن في العصر الحديث : محنة تكوين الرأي جماعات جماعات ، فلا ينطوي الشاب في جماعة صاخبة حتى يحرم القدرة على نقدها ونقد سواها ، فهو مع جماعته التي انطوى فيها يقبل خطأها كما يقبل صوابها ، وهو مع الجماعات الاخرى يرفض صوابها كما يرفض خطأها ، وانه لخاسر مضلل في كلتا الحالتين ..

وكانت البلدة التي نشأت فيها بلدتي أسوان بأقصى الصعيد ، يكاد الناشىء في مثل سني أن يأوي بها الى صومعة

من صوامع الفكر يقلب فيها وجوه النظر في كل ما يسمع أو يبصر من الشؤون العامة ، بغير تضليل أو تهويل .. وتهب الزوبعة القومية فلا تفاجئنا في وسط غبارها فتعمي البصائر عما فيها ، ولكنها تقترب منا رويدا رويدا فلا تصل الينا حتى تنكشف على جلاء ..

***

وهل في ذلك عبرة ؟ ..

نعم .. عبر قريبة فيما نرى ، فخير ما يصنعه الشاب في فترة تكوين الرأي أن يروض نفسه سنوات على النظر الى ما حوله مستقلا عن طغيان الجماعات ، فاذا دخل في جماعة منها بعد ذلك عرفها بمحاسنها وعيوبها معرفة تمييز وتقدير ، ولم يعمل فيها آلة من الآلات ..

قلم يشق طريقه

صحيفة مطبوعة بعد المخطوطة

أصدرت صحيفتي المخطوطة ــ التلميذ ــ وأنا تلميــــذ في الثانية عشرة ، لم أبرح المدرسة ، ولم أملك في يدي مبلغا من المال يكفي للتفكير في طبع ورقة ... ان وجدت المطبعة حيث كنت في الصعيد الاقصى .. وهي غير موجودة ! ..

لكنني الآن موظف حكومة ، تخرجت من المدرسة الابتدائية واشتغلت بالقسم المالي في مديرية الشرقية ، وعرفت لي مبلغا من المال أقبضه في أول كل شهر : خمسة جنيهات ! ..

ومن هذه الجنيهات الخمسة أستطيع ان أدخر جنيها في كل شهر ، وان اجمع من هذه الجنيهات المدخرة مبلغا يكفي للانفاق على العددين الاولين من صحيفة مطبوعة ، ثم لا حاجة بعد ذلك الى المال لان الصحيفة تباع وتأتي بتكاليفها عددا بعد عدد ، أو عددين بعد عددين ..

وكنت قدعرفت شيئا عنتكاليف الطباعة فيمدينة الزقازيق عاصمة الشرقية ، لانني اشتقت الى بلدتي بعد ان فارقتها يافعا لاول مرة فنظمت قصيدة عــلى وزن قصيدة « المعــري » التــي يقول في مطلعها :

عللانـــي فان بيض الامـــاني
فنيـــت والظـــلام ليس بفان

فقلت في مطلع قصيدتي :

ذكراني نعيمهـــا ذكـــراني
حبـذا لو علمتمـــا ما أعانـــي

وقلت منها أذكر أسـوان

« ألست أرجو عودا الى اسوان »

ولا يحضرني الآن الشطر الاول من البيت ..

وراقت القصيدة من سمعوها من الزملاء المتأدبين، فاقترحوا علي طبعها ليحتفظ كل منهم بنسخة منها .. وتكفل أحدهـــم بتقديمها لمطبعة المدينة فلم تكلفنا ورقا وطبعا أكثر من ثلاثـين قرشا لمائتي نسخة ، وقيل لنا انها تكلفنا اقل من خمسين قرشا اذا طبعنا منها مائتي نسخة أخرى فعرفنا السعر وعرفنا الفرق بين تكاليف طبع القصيدة وتكاليف طبع الصحيفـــة ، وهي في تقديرنا تقع في ثماني صفحات بدلا من صفحتين .

حسبة ميسورة مشجعة ، ومرتب شهر واحد يكفي للبدء في طبع الصحيفة على بركة الله ! ..

وماذا يبقى بعدالطبع مما يحتاج الىالتدبير والاستعداد؟..

لا شيء ! ..

فالتحرير مضمون بغير كلفة ، لانني محرر الصحيفـــة الوحيد ..

والتوزيع مضمون لا خوف عليه ، وكيف لا يكون مضمونا وهؤلاء قراؤنا يتهافتون على اقتناء الطبعة الاولى ويستنفدون منها مائتين في يوم أو يومين ؟

***

ومن البديهي انني لا أصدر الصحيفة وانا موظف بالحكومه ... ولا أطبعها ، من ثم ، في الزقازيق حيث طبعت القصيدة .

الا انها عقبة هينة لا يصعب علينا تذليلها ، فليس اهون من الانتقال الى القاهرة بعد الاستقالة من الوظيفة ، وليس ابناء القاهرة بأقل من ابناء الزقازيق اقبالا على قراءة المنظوم والمنثور .. وكنت اذهب الى القاهرة مرة في كل اسبوع او اسبوعين ، اشهد التمثيل في مسرح الشيخ سلامة حجازي ، وأزور حي الازهر باحثا عن الكتب الادبية القديمة بثمن رخيص ..

فذهبت الى القاهرة ، وأحببت أن أحقق وأدقق واستوفي المعلومات اللازمة قبل الشروع في العمل .. ووقع اختياري ــ لاستقصاء البحث في المسألة ــ على صاحب مكتبة عظيم الخبرة بالمطبوعات القديمة والحديثة ، كثير الاتصال بالصفحيين والادباء ، تعودت ان اشتري منه ما أجده عنده وان أوصيه باستحضار الكتب النادرة من الطبعات المرجوعة ..

والواقع ان « الاستقصاء » الذيعولت عليه لم يكن ليعوقني عن المضي فيما نويت ، وانما هو مسألة شكلية على حكم العادة في الاستشارة والاستخارة .. وليقل صاحبنا ما يقول ، فانني أعددت الصحيفة كتابة وتقسيما وتبويبا وتسمية واخطارا للحكومة ، ولم يبق من معداتها شيء غير الطبع والتوزيع ..

* * *

وكنتاتردد بيناسمين:اسم «البيرق» واسم «رجعالصدى»، ولا أحسبني يومئذ قصدت الفرق بين الاسمين وعنيت ما فيه من الدلالة على الصحيفة التي تقود الآراء ويلتف بها الشعراء كما يلتفون بالبيرق ، أو عنيت ما فيه من الدلالة على الصحيفة التي تردد أصداء الآراء ولا تزيد على عرض الحوادث والانباء..

لا أحسبني قصدت الى هذه التفرقة ، ولكنني انتهيت على غير قصد مني الى تفضيل اسم « رجع الصدى » على اسم « البيرق » ... وكتبت العنوان بخطي ليخرجه الحفار كما كتبته ، بدعة من بدع التجديد في العناوين ! ..

ولست انسى نظرة الكتبي العتيق الي من تحت نظارته الملحومة في موضعين أو ثلاثة ! ..

« ماذا؟ تترك خدمة «الميري»وتشتغل بالغزازيط والجرانيل؟ ان كنت لا تدرك ما انت مقدم عليه فانتظر هنيهة لترى مائة من هؤلاء «الصائعين » الضائعين يتمنون التراب تحت قدميك في وظيفتك ولا يصلون اليه ... لا يا صاحبي .. انني أراك أعقل من هذا يا بني .. فلا تخيب املي فيك .. ! »

ولم يقنعني كلامه ، لأنني لم اسمع منه جديدا عن خدمة « الميري » وقداستها في عرف أبناء جيله ، ولم يزحزحني تحذيره قيد شعرة عن نية المضي في الاستعداد والتنفيذ ..

وانما زحزحني عن هذه النية قيد فرسخ — لا قيد شعرة وحسب — منظر أو منظران من المناظر التي كانت تتكرر في كل حلقة صحفية ولا يستغربها أحد من المتفرجين لانها من أدوات المهنة المتفق عليها ومن ادوارها التي تعاد في كل قصة ، فلا يجهلها الا الذين يجهلون الصحف والصحفيين أو الجرنالجية وجماعة الغزازيط وتجار التجريس والتنبيط !

كانت بجوار المكتبة مطبعة صغيرة تطبع فيها الصحف الاسبوعية وكان « مدير » احدى الصحف يرجو صاحب المطبعة أن يعجل باصدار العدد ويأبى صاحب المطبعة أن يخرج العدد ، ما لم يحصل على أجرته وأجرة العدد السابق الذي صدر قبل أسابيع ، ووقف المدير ينتظر وكيلا له أرسله الى المشتركين للتحصيل وعاد الوكيل على صورة يقصر عنها أمل المتسول الذي يريد أن

يبالـغ في اثبات صناعة التسول واستدرار شفقـة المحسنين ، والمسيئين ! ..

فصاح به المدير : ما وراءك ؟

فأخرج له الوكيل ايصالا معادا من احد المشتركين ، وقال ان الاشتراك مسدد قبل الآن ..

فسأله المدير : واين الايصال الآخر ؟

قال الوكيل : ان الرجل قطعه ورماه في خلقتي ! ..

فهم المدير بضربه وهو يقول مختنقا من الغيظ : رماه في خلقتك ؟ مستحيل .. ا نفضيحة بيته معروفة يخشى من الاشارة اليها بكلمة ، فلا تقل انـه قطع الايصال ورمـاه في خلقتك الشريفة ، بل قـل انك سكرت بالاشتراك كعادتك وجئتنـا برائحة الخمر تفوح من فيك ..

وكان هذا أول الادوار التقليدية المحفوظة ولم يكن آخرها ولا أقبحها ، وفي واحد منها الكفاية للعدول على الاقل عن الخطوة الاولى ، وقد عدلت عنها الى الآن .

ولكن .. لم احتقر الصحافة

ان هذه المناظر المخجلة حقرت في نظري طائفة من المتطفلين على الصحافة ، ولكنها لم تحقر صناعة الصحافة ، ولا نزلـت بأعلامها النابهين الى منزلة أولئك المتطفلين ، ولست اعتقد انني كنت مستطيعا ان احتقر هذه الصناعة من أجل ذلك المنظـر المخجل ، ولو كنت من المستخفين بها والزاهدين فيها .. لان قوة الدعـوة القلمية في تلـك الفترة قـد بلغت في القاهـرة مبلغا لا يدانيـه مـا بلغته في عاصمـة من عواصم المشرق والمغرب ، ولا اخالهـا تبلغـه اليوم على عظـم الفارق بـين صحافـة

اليوم وصحافة مصر والشرق قبل خمسين سنة . .

كانت القاهرة مركزا لكل دعوة تهتم بها دول العالم ذوات المطامع في الشرقين : الادنى والاقصى، ومركزا لكل دعوة يديرها دعاة الجامعة الاسلامية ودعاة الوحدة العربية ودعاة تركيا الفتاه ودعاة الاصلاح في ايران وأواسط آسيا ، ودعاة الحركات الوطنية في مصر نفسها وفي سائر الاقطار الافريقية من شمالها في بلاد المغرب الى جنوبها في بلاد السواحل وزنجبار .

وكانت قوة هذه الدعوة تخيف الملوك والساسة على عروشهم وعلى أرواحهم وأبدانهم ولا تمهلهم أن يتجاهلوها أو يغفلوا طرفه عين عن أخطارها وعواقبها، وقد حدث أن حركة في القاهرة زلزلت عرش عبد الحميد في الاستانة ، وان رجلا شهرته دعوة القلم واللسان ذهب الى ايران لاتمام هذه الدعوة فطرده الشاه واهانه اثنان من وزرائه ، فقتل الثلاثة جميعا ، وقال قاتلوهم انهم قضوا عليهم بالحق انتقاما لذلك الداعية الطريد : جمال الدين .

كانت هذه الحقيقة من وقائع الحال الغنية عن المقال ، ومن طرائفها المروية أن السلطان عبد الحميد كان ينام في يلدز وعيناه في شارع محمد علي بالقاهرة ، واتفق يوما ان المويلحي الكبير (١) صاحب «مصباح الشرق» ـ دخل مكتب «المؤيد» ووجد فيه نخبة من كتاب عصره وفضلائه ، فتوقف عند الباب وقال وهو يرفع يديه الى سقف الحجرة : قادر أنت يا رب أن تسقط هذا السقف على من تحته فيستريح عبد الحميد ! .. قال محمد عبده ، وكان من زوار الحجرة : نعم .. لو تقدمت أنت خطوتين!

وتلك نادرة من نوادر الفكاهة التي تخلقها الحقيقة الواقعة، وما يكون لها أن تخلقها لو كانت محض مزاح .. !

---

(١) يقصد ابراهيم المويلحي صاحب صحيفة « مصباح الشرق » ووالد محمد المويلحي .

تهيأت القاهرة لاجتماع هذه القوة فيها لامتيازها بين عواصم الشرق بمركزها التاريخي ومركزها الحديث ، ولم تتهيأ لهـــا مدينة اخرى على مثالها من الآستانة عاصمة الخلافة الى ما دونها من عواصم الولايات والحكومات ، ولم تكن القاهرة عاصمة الدعوة الكبرى مصادفة ولا لعلة من العلل العارضة ..

فالآستانة هي عاصمة الخلافة ، ومركزها بهذه الصفة أهم المراكز في العالم الاسلامي وعالم السياسة الشرقية على اجماله .. ولكن قيام الدعوات القلمية ، أو اللسانية فيها أمر لا يخطر على بال الدعاة لشدة الحجر فيهـا على الاقـلام والالسنة ، وحظر الاجتماع فيها وتأليف الجماعات للمقاصد السياسية ..

وعواصم الشرق الادنى مهمة بشهرتها وموقعها ، ولكنها لم تكن قط مركزا يتلقى منه العالم الشرقي دعوة عامة عـــلى نطاق واســع ، وحكمها حكم الآســـتانة في حرية الدعـــوة والاجتماع ..

أما القاهرة فقد كانت ، منذ بنيت في ايام الفاطميين ، مركز داعي الدعاة ،أستاذ الاساتذة في فنون الدعوة بالقول والاشارة، اي بالخطب والرسائل والرموز السرية والموالد والزفات ! ..

ثم أصبحت مركــز الاعـلان الاقتصادي والسياسي فـــي الحقبة التي اشتدت فيها المنافسة بين أصحاب التجارة من طريق البحر الاحمر واصحاب التجارة من طريق رأس الرجاء ..

ثم جعلها الخـــديو اسماعيل قطعة من أوربا بمحاكمهـــا المختلطة ، وامتيازاتها الاجنبية ، واشتباك المصالح المتعارضة فيها بين الدول ، وتلاطم التيارات حولها من داخل البلاد العثمانية في شؤون الحكم أو شؤون الثقافة ..

ثم انطلقت فيها حرية الصحافة وحرية الاجتماع ، فتمت

فيها معدات الدعوة ، وترادف عندها نمط الدعوة القديم ونمط الدعوة الحديث ..

تاريخ الشرق مرتبط بصحافته ..

وفيما تقدم من العوامل والمهيآت كفاية ..

ولكننا نحسب انها لم تكن لتفعل فعلها بين أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين لو لم تكن الدعوة في هذه الفترة مطلوبة من كل صوب ، ولو لم تكن بلاد الشرق متعطشه الأسماع الى كل صوت ينادي بكلمة الأمل ، أو كلمة النصيحه والتحذير ..

ولا ننسى سحر « الكلمة المطبوعة » في جدتها قبل ان تبتذلها كثرة التداول ، وتدخلها الألفة في عداد اليوميات الرتيبة التي تنتظر في أوقاتها ولا تحتاج الى لهفة في الانتظار ..

وان تعجب لسر من أسرار تلك الدعوة في نفاذها ، وبعد مداها، فاعجب للبون الشاسع بين ضخامة اثرها وضآله وسائلها، وانظر الى البون الشاسع مثلا في صحيفة كصحيفة « العروة الوثقى » أو « أبو نضارة » أو « الطائف » أو « الاستاذ » .

وريقة ذات مقال وبضعة أخبار من قبيل الاخبار البوليسيه او البرقيات المقتضبة ، وتحاول ان تتبع أثرها الى أقصى مداه فلا تستقصيه ، لانك قد تسمع صداه في تخوم الصين وعلى متون الرمال في جوف الصحراء ..

ولا محل للمقارنة من الوجهة الفنية بين تلك الصحافة وصحافتنا اليوم ، ولكن لا محل كذلك للمقارنة بين دعوة يطلبها الناس ويتشوقون اليها ودعوة تطلبهم وتحتال عليهم بأفانين الترغيب والتقريب .

ان منظر الحساب بين مدير الصحيفة الاسبوعية ووكيلها قد يصح أن يثنيني عن طبع العدد الاول من صحيفتي المطوية وأن يضعف أملي في تحصيل تكاليفها بعد عدد أو عددين ..

ولكن هل تراه يذهلني عن هذه القوة الهائلة وأنا أحسها من حولي كالدوامة المدوية في لجة البحر الموار بالامواج والرياح ؟ ..

ان ألف دجال باسم الطرق الصوفية لا يمسحون من الضمائر قداسة الدين ، وان الف دجال باسم الصحافة لا يمسحون قداسة « الكلمة » الحية بين أناس يحتاجون الى الكلمة حاجتهم الى العمل في ساعة اليقظة من سباتهم الطويل . .

ان الصحف التي تستغل مخاوف الملوك وفضائح الدول لا تستطيع أن تملأ الجو من أعلاه الى أدناه ، ولا أن تستوعبه بجميع زواياه ..

فاذا وجدت هذه الصحف ، فهي الشفاعة المقبولة أو غير المقبولة لوجود طبقات في الجو الصحفي الى جانبها ، تنزل من الملك الى الوزير ومن الوزير الى الرئيس الصغير ومن الرؤساء الى عمد القرى ومشايخ الحارات ، ومن هؤلاء ما دون ذلك في طبقات ذلك الجو الفسيح ..

وليقل العائب العاتب ما شاء ، فانه لن يستطيع ان يقول في النهاية شيئا عن تاريخ الشرق الحديث دون ان يقول معه شيئا عن الدعوة القلمية وعن الصحافة والصحفيين .

صحيفة الدستور

كانت صحيفة « الدستور » التي أصدرها الاستاذ « محمد

فريد وجدي » منذ نصف قرن أول صحيفة يومية عملت في تحريرها ..

ولا أقول انه كان « عمل ضرورة »

ولا اقول كذلك انه كان عمل اختيار .

ولكنه كان ضرورة مختارة بين ضرورات ، اذا صح هذا التعبير ، وأبادر فأقول انه صحيح غاية الصحة ، لاننا في اعمالنا التي نعدها من معالم حياتنا لا نستطيع ان نقول عن عمل واحد انه كله اختيار ، أو أنه كله اضطرار ..

وكان في وسعي قبل العمل في تحرير الدستور ان أعمل في تحرير «اللواء» أو في الترجمة باللواء على الأصح .. لانني علمت انهم يطلبون مترجمين يعرفون الانجليزية او الفرنسية ، بعد تفكيرهم في انشاء «لواءات» غير «اللواء العربي» تصدر باسم « الاستاندرد » و « ليتندار » ..

التحرير أو الترجمة

وكانت الترجمة الصحفية من اعمال تلك الفترة التي كان امثالي يستطيعونها، وكانت ظروف التعليم والنشأة «الأسوانية» مما يرشحني لادائها ، ويجعلني من المفضلين في « امتحاناتها » .

فقد كنا نتعلم دروسنا المهمة باللغة الانجليزية ، ومنها دروس الجغرافيا والمعلومات العامة « أو الاشياء » .

وكانت صحف المدارس المقروءة في انجلترا بين «المطالعات» الاضافية المقررة علينا في السنة الرابعة الابتدائية .

والى هنا نتساوى جميعا في مدارس القطر كله ، ثم يأتي دور النشأة الاسوانية بمزية تنفرد بها مدينة أسوان ولا تشاركها فيها سائر المدن في الوجهين .

كانت المكتبات الافرنجية تفتح في موسم الشتاء لبيع الكتب

والمجلات والصحف الاجنبيـــة المحلية ، وكان كبـار الزوار لا ينقطعون عن زيارة المدرسة خلال الموسم الذي كان يمتد مـــن ديسمبر الى مارس ، وتتبع زيارتهم احيانا دعوات خاصة نجلس فيها مع ابنائهم ولا نتكلم اثناءها بغير اللغة الإجنبية .

وتضاف الى ذلك حالتان طارئتان عـلى أسوان ـ في ذلك الحين ـ لم تجتمعا لبلد من بلدان السياحة ، وهما حملةالسودان وبناء الخزان ..

ففي أثناء حملة السودان ، كان الحاكم العسكري ومحافظ المدينة وقاضي المحكمة وقادة الفرق الموزعون عـلى المصالح ، طائفة من الانجليز العسكريين أو المدنيين لا يعرفون العربية ، وكان كل بيت فيه « ولد من اولاد المدارس » مرجعا نافعا لقراءة الاوراق الرسمية أو ترجمة العرائض الى « الحكام » على حسب الاجتهاد ، وكان « نصف الفرنك » نفحة سخية يحصل عليهـا « الولد » المترجم الذي يستطيع ان يخط في الورق بضعة سطور تدل على معنى من المعاني مفهوم بالاشارة او بالتخمين .. فأمـا « الولد » الذي تتكرر الشهادة له بحسن الترجمة فنصف الفرنك قد يصعد في معاملته الى نصف ريال ، ويزداد التقدير مع زيادة القرابة أو الجوار ..

أما بناء الخزان فقد جلب الى المدينة مئات من المهندسين والخبراء والمفتشين يقرأون الصحف الافرنجية طوال العـام ، ويدفعنا حب الاستطلاع الى النظر في هذه الصحف وفي صحف السائحين ، فلا يفوتنا ـ مع تتابع النظر ـ أن نعرف اقسـام الصحيفة وعناينها وأماكن البرقيات والاخبار منها ، وان نختطف عبارة هنا وتعليقا هناك فلا يخفى علينا معناها بالمقابلـة بعد المقابلة أو بالتصحيح بعد التصحيح ..

مع مصطفى كامل ..

فلما علمت أن « اللواء » يطلب مترجمين يعرفون الانجليزية خطر لي ان استقيل من وظيفتي وان ارشح نفسي للعمل فيه ..

ولكني ترددت ، وطال التردد حتى احجمت ، ثم فضلت ترك هذه « الفرصة » وانتظار فرصة غيرها لسببين :

« أولهما » انني اذا اقدمت على هجر الوظيفة الحكومية مفضلا عليها الصحافة فليكن ذلك لأكتب لا لاترجم ، فانني ما احببت الصحافة لانها مورد رزق افضل من موارد الوظائف الحكومية ، ولكنني أحببتها لانها مجال للكتابة او صناعة القلم بغير وساطة من صناعة النقل او الترجمة ! ..

والسبب الثاني شخصية مصطفى كامل رحمه الله ،، فان محادثتي الاولى له لم تشجعني على مزاملته في عمل دائم، وصورته لي رجلا معتدا بذاته ، ضيق الحظيرة ، لا يسمح حتى للفكاهة أو « للقافية » أن تفتح عليه بابا لتصحح قولة قالها أو رأيا ارتآه ..

كنت اتبرع بالتعليم في المدرسة الاسلامية بأسوان ، وحضر مصطفى كامل متفقدا للمدرسة ومعه الكاتبة الفرنسية مدام « آدم جولييت » وسيدة انجليزية ، وكانت الحصة حصة محفوظات ولغة .. فأملى مصطفى كامل على التلاميذ هذا البيت لأبي العلاء :

والمرء ما لم تفد نفعا اقامته
غيم حمى الشمس لم يمطر ولم يسر

وترجمه للسيدتين بطلاقة وايقاع ، ثم طلب من التلاميذ

ان يشرحوه ويعلقوا عليه ، فاضطربوا ولم يحسنوا الشرح أو التعليق ..

والتفت مصطفى كامل الي ، والى الاستاذ « محمد شلبي عيد » متسائلا ، فأدركته قائلا ان التلاميذ معذورون .. لانهم في أسوان يعلمون ان الغيم الذي يظـــلل الرؤوس شيء نافع لا يضربون به المثل لقلة النفع .. فلعله انفع لهم من شعاع الشمس ومن المطر ..

« حسن تخلص » كنت أقدر من « خطيب » مثله ان يتقبله بالامتحسان والارتياح ، ولكنه تجهم وزوى وجهه ، وبدا لي ان الاستدراك عليه ــ ولو من باب الفكاهة ــ أمر كثير على طاقته الفكرية والنفسية ، وأرى الأن انها لم تكن منه فلتة عارضة في زيارة عاجلة ، لان حياة الرجل كلها لا تعرض لنا لمحة واحدة فيها شيء من سماحـــة الفكاهة أو سماحــة التوفيـــق بين الآراء ...

فريد وجدي .. والدستور

ولم يطل بي الانتظار حتى اعلن الاستاذ فريد وجدي عن عزمه على اصدار « الدستور » .

ولم يكن اسم « فريد وجدي » غريبا عني ، ولا عن قراء ذلك الجيل من طلاب الثقافة الاسلامية الفلسفية .. فقد كانت له كتابات ضافية يرد بها على كتاب الغرب وفلاسفته المنكــرين لحقوق المسلمين وفضائل الاسلام ، وكانت له شهرة بالاطلاع على ثقافة الدين وثقافة العصر الحديث ، فلما لقيته وحادثتــه لم يكن أيسر من الاتفاق معه على العمل في صحيفته ، وخرجت أقول لنفسي ان اكبر خلاف بيني وبين كاتب كهذا لن يعوقني

عن العمل معه ، لانني عجبت لحرية فكره، مع اشتهاره بالتعصب والمحافظة ، بل بالتزمت والحرج في شؤون الدين والدنيا .. فما من فكرة قط كان يرى انها قضية مسلمة ، وأنها لا تقبل المناقشة .

وأظن اليوم أن فرط الثقة بقوة الحجة والقدرة على الاقناع هو الذي كان يسوغ له ان يسمع كل رأي ، ويقبل كل تحد ، ويجيب عن كل سؤال. ودام عملي في صحيفة الدستور من عددها الاول الى عددها الاخير الا أشهرا قليلة فارقتها فيها ثم عدت اليها .. فأكاد اقول ان ما خالفته فيه اثناء هذه المدة اكثر مما وافقته عليه ، ولكنه لم يغير كلمة واحدة كتبتها لمخالفة رأيه .

كان شديد الايمان بالجامعة الاسلامية على منهج قريب من مناهج الرسميين ، ولم يكن كغيره من طلاب الكسب والجاه من وراء هذه الدعوة ، بل كان يخسر الكثير في احرج أوقات الحاجة الى المال . ومن ذلك انه رفض الاتفاق مع حزب تركيا الفتاة اعتبار « الدستور » لسان حال للحزب في سياسته العثمانية بعد ان تكفل الحزب بالانفاق على الصحيفة وسداد ديونها ، لان الحزب كان يشترط ان ترفع من عنوان الصحيفة كلمة « لسان حال الجامعة الاسلامية » .. ولم تمض أسابيع حتى كان الرجل يبيع كتبه بثمن يضارع ثمن وزنها من الورق ليؤدي مرتبات الموظفين والعمال .

وعلى هذا التشبث بهذه الدعوة كنت اخالفه فيها ، وأرى انها تعمل لنفسها ، ويعمل لها الزمن اضعاف ما يعمله المنقطعون لها من دعاتها المخلصين وغير المخلصين .. فلم يحاول قط ان يفرض علي رأيا في قضية من قضاياها بغير الاقناع أو السكوت ..

وكانت صحيفة « الدستور » لسانا ثانيا للحزب الوطني بعد «اللواء» .وكان موقف الحزب الوطني معروفا من سعد زغلول وبخاصة بعد قيام الشيخ جاويش على تحرير اللواء ، ولكنني كنت اؤيد سعدا وأرد على ناقديه في الدستور ، فلم يمنع كلمة واحدة مما كتبته في هذا الموضوع ..

وكان من غلواء الاستاذ وجدي في محاربة الاختلاط الجنسي أنه كان يشجع الهواة على انشاء فرق تمثيلية يتم فيها التمثيل بغير ظهور النساء على المسرح ، وهذه حذلقة تغري بالسخرية حتى في تلك الاونة .. ولم يكن الرجل على جهل بتاريخ التمثيل في الغرب الحديث أو القديم ، فكان اذا لمح مني بادرة من بوادر السخر الخفية لم يزد في حدته على أن يقول : « لقد أجازها شكسبير كم لضرورة من ضروراته .. فهل وقفت ضرورات الدنيا كلها عند شكسبير » !

الغاضبون !

وأعتقد ان اختيار اسم الصحيفة وحده كان ميزانا لنزاهة هذا الرجل ولحريته الفكرية والدستورية ، يغني عن كثير من الموازين ..

وماذا في « اسم » على رأي شكسبير أيضا ؟ ..

فيه كثير وكثير ، ولا سيما في العصر الذي سميت فيه الصحيفة باسم الدستور ..

كان اسم « الدستور » يغضب قصر « يلدز » ويغضب قصر عابدين ، ويغضب « قصر الدوبارة » ..

وكان الحزب الوطني يطلب الدستور ولكنه يتحرج من الدعوة العامة اليه ، لانه ينكر مقاصد المطالبين به من رعايا

الدولة العثمانية ، ويشفق من غضب السلطان عبد الحميد . ويراجع القارىء اليوم صحيفة « اللواء » فيرى انها كتبت عن المطالبين بالدستور في تركيا ، قبل اعلانه هناك بيوم واحد ، فقالت انهم قوم يسبحون في الخيال ..

وكان الخديو يحرض على طلب الدستور سرا كلما أراد بالتحريض عليه احراج الانجليز والحد من سلطة المندوب البريطاني والمستشارين ، ولكنه كان يرفض الاصغاء الى هذا الطلب كلما ثاب الى شيء من الوفاق بينه وبين المحتلين .. ولهذا كان حزب القصر يسمي نفسه « حزب الاصلاح على المبادىء الدستورية » .. ولا يخفي الفارق بين الدستور واصلاح الدواوين على مبادىء الدستور !

وكان حزب « الامة » كما يدل عليه اسمه يعارض الحكم المطلق للعرش في مصر وللعرش في عاصمة الدولة العثمانية ، وكان ينادي بالاستقلال التام فيهدده « المؤيد » بحكم القانون لان السيادة العثمانية مقررة فيه ، ولكن حزب الامة على مناداته بحصر الحقوق كلها في الامة لم يخل من اقطاب مخلصين كانوا يحسبون الطفرة في الحكم النيابي خطرا حقيقا بالحذر والاجتناب .

فاذا ظهر من بين هذه الصفوف رجل لا سند له من أصحاب العروش ، ولا من جمهرة الاحزاب ، فاختار كلمة « الدستور » دون غيرها اسما لصحيفته الوليدة ، فهو اسم يدل على كثير وان غضب صاحبنا شكسبير ! ..

صحافة المتطوعين

في هذه الصحيفة بدأت عملي الاول ، فماذا كان عملي

الاول هذا ؟ او بماذا نسميه في « تقاسيم » الصحافة الاخيرة ؟

لا يوجد له اسم واحد ، وقد يحيط به على الجملة انني كنت نصف هيئة التحرير برمتها ، اذ لم يكن في قلم التحرير غير كاتبين اثنين ، احدهما انا والاخر صاحب الصحيفة !

ولا نبخس في هذا المقام فضل « التطوع » في تحرير صحيفة الدستور ، ولا في تحرير غيرها من صحف تلك الفترة .. فقد كان قوام المقالات الصحفية من « تحرير المنازل » وكانت اشهر الفصول على الاطلاق في ذلك العهد فصولا كتبها المحررون المتطوعون ، وكل حامل قلم في البلد محرر متطوع ما عدا الجالسين على مكاتبهم في دور الصحف المحدودة ، وهم معدودون على الاصابع .

ولقد كان نصيب «الدستور» من التطوع أوفى نصيب ، اذ كان فيها « محرر متطوع » دائم يكاد ينهض بعمل الترجمة الفرنسية وحده ، ويكتب الى جانبها التعليقات وحواشي الاخبار والمتفرقات ..

كان الاستاذ « احمد وجدي » شقيق الاستاذ فريد صاحب الصحيفة هو ذلك المحرر المتطوع الدائم ، وكان رحمه الله شابا المعي الذكاء كريم الخلق مستقيم الذهن مجتهدا في كل عمل تولاه ، وقد تولى عملا قليلا في الصحافة ثم تولى عمله في المحاماة أمام محكمتي الزقازيق والمنصورة ، فاشتهر في الاقليمين أيما شهرة ، وقامت شهرته على الذمة والعفة كما قامت على البراعة والبلاغة ، ولو امهلته المنية بضع سنوات لما عرفت مصر اسما أشهر من اسمه في عالم المحاماة .

وكان زملاء « الاستاذ احمد وجدي » يتطوعون معه بالكتابة والترجمة من حين الى حين ، ولكنهم أضربوا جميعا ـ أو كادوا ـ بعد الخلاف الذي حدث بين فريد وجدي ومصطفى كامل .. وكان

فحوى هذا الخلاف ان صاحب الدستور اعترض في مجلس ادارة الحزب على اختصاص وزارة الخارجية البريطانية بالاحتجاج على الاحتلال ، وقال ان هذا الاختصاص ربما اعطاها الصفة « الاستثنائية » التي تدعيها في مصر ، ولا ضرر من تعميم الاحتجاج على صيغة من الصيغ اذا كانت الصيغة المكتوبة لا تسمح بتوجيهها الى اكثر من دولة واحدة ، فأعرض مصطفى كامل عن اقتراحه واعرض معه اكثر الاعضاء ، وكتب فريد وجدي خلاصة المناقشة في الدستور فحسبه المؤيدون الآليون منشقا على الحزب وقاطعوه ، ومنهم بعض اولئك الطلبة«النجباء» الذين كانوا يتطوعون للكتابة في صحيفة الحزب الثانية !

الا اننا – نحن هيئة التحرير – المؤلفة من صاحب الصحيفة ومني ، كنا نعمل في التحرير والترجمة والتصحيح وتهذيب الرسائل والاخبار .. وكان الاستاذ وجدي قليلا ما يبرح داره ، فكنت انوب عنه في اعمال الصحيفة الخارجية ، ومنها الحصول على الاخبار وعلى الاحاديث ، وبينها اول حديث للوزراء المصريين..

والاخبار لم يكن خطبها في ذلك العهد بالامر العسير ..

كان لها مكتب بديوان الداخلية ترسل اليه النشرات من جميع الدواوين ، ومعظمها عن التعيينات والتنقلات وصرف الاموال في المشروعات العامة .. ولم تكن هناك حاجة بالمخبرين الى استطلاع النيات والتقاط الاسرار ، فان السياسة الكبرى كانت في علم المندوب البريطاني ومستشاريه ومفتشيه ، وليس لاحد من الصحفيين صلة بهؤلاء غير أصحاب « المقطم » وبعضهم وكلاء الصحف الاوربية ، وصلاتهم جميعا لا تفيدهم شيئا من اسرار السياسة العليا ، ولا تطلعهم على خبر من اخبار الميزانية قبل اوانه .

فالمخبر البارع ، والمخبر العاجز ، في النهاية على حد سواء .. الا أن طائفة من المخبرين كانت تساوم « الادارة » عـــلى تكاليف المهنة وتوهم وكلاء الحسابات فيها انها تحصل على اخبار النقل والتعيين والاعتمادات المالية من قصاصات « المسودات » في سلال المكاتب المهملة،وظلت هذه الحيلة تروح عند بعض الصحف الى ما بعد ايام الثورة في اعقاب الحرب العالمية ، ورأيت بعيني واحدا من هؤلاء المخبرين يبسط هذه القصاصات ويجمـــع متفرقاتها ويلصقها ليزعم بعد ذلك انه قد جاء بالخبر المضنون به على غير المجتهد الاريب .

***

كنت اذهب الى مكتب الاخبـــار الصحفية بديوان الـــوزارة فأرى هناك على التناوب عشرين أو ثلاثين صحفيا من مندوبي الصحف العربية ..

وليس من هؤلاء جميعا واحد فرد يذكر اليوم أو يعرفـــه السامعون اذا ذكر ، ولكن القارىء قد يعجب لاختلاف مقاييس النظر والتقديـــر اذا علـــم انني كنت في نظرهم جميعـــا فضوليا متطفلا على الصناعة ، وسمعت احدهم يتكلم عن «عمر منصور» مندوب المؤيد، و «عبد المؤمن الحكيم» مندوب الاهرام، و «سامي قصيري » مندوب المقطم ، و «جورج طنوس » مندوب الوطن .. فاذا هو يشيعني بالاشارة الساخرة ، وهو يسب الزمن لانـــه قضى عليه بالعمل في الصحافة مع أمثالي :

« يحرق دين ها « البريس » Press .. مـــا عاد غير ها الزعران يسود ورقاتها .. »

الصّحافة قبل خمسين سنة

بعد شهرين من العمل في داخل الصحافة المصرية ، أمكنني أن ألخص حياتها عند أوائل القرن العشرين في كلمة واحدة :

تلفيق ! ..

فلولا ضرورة قضت بوجود الصحافة يومئذ عـــلى صورة من الصور لكان من أعجب العجائب حقا ان توجد صحيفةواحدة، وان تعيش ــ اذا وجدت ــ أكثر من بضعة شهور .

كانت موارد الصحف كلها من الاشتراكات ، وثمن النسخ الموزعة ، وأجور الاعلانات .. وكانت هذه الموارد لا تكفي كل الكفاية للانفاق على الصحيفة الى أمد طويل ، ولكنها مع ذلك لم تكن خالية من عقباتها وموانعها ولا من جرائر الخلل الدائم في وسائلها ومواعيدها .

فلم يكن للصحيفة ، المنتظمة ، بـد من موارد آخر غيــر الاشتراكات وغير البيع وغير الاعلانات ، وهو كذلك مـــورد مضطرب معرض بطبيعته للفوضى وتبدل الاحوال ، ونعني به مورد « الاعانات » السرية من أصحاب الدعايات ، ومعظمهـــا دعايات تصدر من قصور الملوك والامراء أو من دواوين وزارات الخارجية والسفارات .

فالاشتراكات الصحفية قبل خمسين سنة ـ كانت من الموارد الثابتة المنتظمة ، بالقياس الى موارد الصحف في العصر الحاضر لان الصحف في العصر الحاضر تعتمد على البيع في الاقاليم ولا تعول كثيرا على الاشتراكات، ولم تكن وسائل البيع في الاقاليم ميسورة للصحف اليومية ، فضلا عن الاسبوعية او الشهرية الى زمن قريب ..

وكانت الاشتراكات خليقة أن تمد الصحف بمورد نافع لو خلت من موانعها وعثراتها ، ولكنها كانت في الواقع مولوده بموانعها وعثراتها ، آن صح هذا التعبير ..

كان أعيان الريف يحبون أن يشتركوا في الصحف اليومية لانها مظهر من مظاهر الوجاهة و « الاهمية » في القرية أو البلده الصغيرة .. ولم يكن بالقليل بين مظاهر الوجاهة اليومية ان يحضر ساعي البريد الى الدار يوميا ليدق الباب على مسمع من الجيران وينادي بصوت يشبه صوت المنادي باسم « المحكمة » في ساحة القضاء :

« بوسطة » ! ..

فاذا بالحي كله يترقب « سماعا » جديدا بعد هذا النداء ، يحيط بأنباء الارض والسماء ، ويتحدث عن المسكوف و « الانجلاطيرا » وملك « الفرنسا » أو الجمهور كما كانوا يسمعون عنه منذ أيام حملة نابليون ، ويتخللها بالاسطورة الطريفة التي تسمى بالترنسفال .. وبينها وبين السودان في الجنوب الوف الاميال ، ويا له من « واقع » وراء الخيال !

ولم يكن الوجيه الريفي يبخل بثمن هذا المظهر ، أو يماطل الصحيفة بقيمة الاشتراك حبا للمطال .. ولكنه يجود به عن طيب خاطر لو وجد أمامه من يقبضه منه لحساب الصحيفة ،

وأين هـــذا الذي يقبضه لحساب الصحيفة ويؤديه بالامـــانة والوفاء ؟ ..

لقد كانت الصحف تنشر ، بين آونة وأخرى ، خبرا مكررا عن الوكيل « فلان » الذي ألغي توكيلـه واصبح غير معتمد في تحصيل الاشتراكات . .وكانت هذه الصحف تنشر قبل ذلـك أعلانا موجها الى وكيلها في هذا الاقليم أو ذاك تنبهه الى موعـد السداد وتلوح له بالتهديد والانذار . وقد ينفع التهديد مرة ولا ينفع مرات ، ولكنه يعاد ثم يعاد ، ويتجدد مع الوكيل الجديد تارة ومع الوكيل القديم تارات ، ولا تستغني الصحيفة عـن مراجعة الوكيل القديم لقلة الوكلاء المتخصصين لهذه الصناعة او المدربين عليها في معاملة الصحف والمشتركين والموظفين وأفراد « الجمهور الصحفي » على التعميم ..

« حق » الصحيفة

وكانت للوكيل فنون في معاملة الموظفين واغرائهم بالثناء أوتهديدهم بالتشهير والانتقاد .. ولا غنى له عن هذه الفنـــوز لانه كان يستعين على الدوام بالموظف الكبير والموظف الصغير في تحصيل « حق » الصحيفة و « حقه » هو في موقه السوداء .. من وراء الستار ..

ولا مناص من الوكيل لتحصيل الاشتراكات ..

ولا حيلة في قبول الوكيل على علاته ، لان معاملات الصحف لم تكن في ذلك العهد قد ثبتت ذلك الثبات الذي يسمح « بتكوين » طائفة من الاعوان المدربين ينقطعون لها ويثابرون عليها ، فاذا نجح من الوكلاء واحـد من عشرات فانما ينجح بعد ابتـــلاء الصحيفة بخسائر هؤلاء العشرات ، على دفعات !

ولنذكر أن الوكيل ــ على عيبه هذا ــ لا يستطيع أن يعمل في بلاد يجهلها ولا يقيم بين ظهرانيها .. فلا بد له من موطن في اقليم يعرفه ، ولا يتسع هذا الاقليم المحدود لأكثر من مئتي مشترك على أكبر تقدير ..

وكم يصل من هذا المحصول الى خزانة الصحيفة بعد المطال والعمولة والسوق السوداء ؟

قليل .. جد قليل !

وكل صحيفة احتاجت الى هذا القليل ، فقد كان عليها ان تقبل وسائله وتتجرع غصصه ، وتغضي عما تعلمه من عيوبه ومحظوراته ..

عدة الشغل

ومنها ــ بل في مقدمتها ــ ان تنشر الصحيفة كل ما يصل اليها من رسائل الوكيل أو من مدائحه وأهاجيه في الواقع ، لانها « عدة الشغل » التي يعمل بها ، ولا عمل له بغيرها ، بين الاعيان والموظفين .. فمن تصدى لتحصيل الاشتراكات ــ وتحصيل غيرها في السوق السوداء ــ فلا أمل له في محصول ينفعه وينفع الصحيفة بغير تخويف واغراء ، ولا ضير بالتخويف والاغراء في سبيل الخدمة العامة والمصلحة القومية .. ولكنه الضير كل الضير على الوكيل « الاريب » الذي يستطيع ان يجمع المئات من لذعة هنا وأكذوبة هناك ثم يتركها ليقنع بالعشرات وما دون العشرات

وأحسب ــ بعد هذا كله ــ ان التفاؤل فريضة على الناس يضطرهم اليها الصدق الواقع ان لم يضطرهم اليها شعورهم بالحاجة الى الامل والعزاء ..

ان الامور لا تقـــاس بأسوأ الظروف في جميع الاوقات ، فكثيرا ما تتمخض الظـــروف السيئة عن حسنات لم تــكن في الحسبان، ولقد رأينا فيذلك العهد أناسا عملوا فيوكالة الصحف يدينون انفسهم بنزاهة القاضي وأمانة الطبيب ، ويشتغلون بهذه الصناعة لانها « هواية » تملأ الفراغ بالرحلات والمقابـلات في غير عنت ولا اضطرار ، ولكنهم شذوذ القاعدة الذي يبعث فينا التفاؤل كما أطبقت علينا ظلمات الشؤم والقنوط ..

أما القاعدة المطردة يومئذ ، فقد كانت صفحة من صفحات الصحافة الحالكة في تطورها الاخير .. وكانت «تصنيفة» الوكلاء الصحفيين في القرن العشرين تدل على المورد الذي تتسرب منه اشتراكات الاقاليم ، فهي « تصنيفة » يتلاقى فيها الكـــاتب العمومي المتجول ، وقارىء الاعراس والمآتم ، ومأذون الشرع المفصول : وصاحب الصناعات التي لا تحصى .. لانه « متشرد » عام يشتغل بجميع الصناعات !

التوزيع

أما التوزيع بأيدي الباعة فقد كان موردا للصحف اليومية أهم من مورد الاشتراكات وأيسر منه في متاعب التحصيل، ولكنه لو اجتمع برمته من جميع الصحف الكبرى التي كانت تصدر في القاهرة قبل خمسين سنة، لما كان فيه الكفاية لاصدار صحيفة يومية واحدة في هذه الايام .

وكان اربعة أخماس النسخ المعدة للبيع توزع في القاهرة وضواحيها .. ولولا ان الاسكندرية كانت مستعدة بموزعيهـــا المشتغلين ببيع الصحف الاجنبيـــة لما تأتى تدبير مسألة التوزيع فيها ..

ومن المناظر المألوفة اليوم في عـــواصم القطر أن يرى المارة للصحيفة اليومية اربع سيارات أو خمسا تتسع الواحدة منها لحمل عشرات الالوف من النسخ وتتولى نقلها يوميا على خطوط الاسكندرية أو بور سعيد أو الاقاليم الوسطى في الوجه البحري أو أقاليم الصعيد ...

فقبل خمسين سنة لم تكن في القطر المصري سيارة واحدة من هذا القبيل ، ولو وجدت فيه سيارة واحدة لفرغت من عملها في حمل صحف القاهرة جميعا بعد نصف ساعة ..

المعلم عكريشة

وكان المعلم عكريشـــة يجلس الى ناحيـة المكتب وفي يـــده الجـوزة التي لا تفارقــه ، وأذنــاه الى الكاتــب الذي يسأل ، « أولا فأول » ، عن عدد الوارد من كـــل صحيفة ، الى ان يتــم الوارد من جميع الصحف اليومية .. ثم تبدأعملية التفريق على المســـاعدين من المتعهدين ، فأنصــاف المتعهدين ، فالباعـــة المتفرقين ..

ولا يكلفك الامر اكثر من جولة سريعة بالنظر في هـــذه الزاوية الضيقة لتحصر كل ما صدر من صحف مصر الكبرى في ذلك النهـــار : المؤيد ، واللـــواء ، والاهـــرام ، والمقطم ، والوطن ، ومصر ، والظاهـــر ، والـــراي ، الجوائب المصرية ، والمحروسة ، في بعض الاحايين ..

وكانت هذه الصحف تصدر معا في وقت واحد بين الساعة الثانية والساعة الثالثة في المساء ، ويحملها عمال عكريشة أو عمال الصحف من مطابعها الى الزاويـــة المعروفة ، فـلا تلبث

« عملية » النقل والصف والتفريق أكثر من ساعة واحدة بنصف حمولتها ..

وما كانت صحف القاهرة الكبرى تحتاج الى مكان للتوزيع أوسع من « زاوية عكريشة » على جانب من رصيف المحكمة المختلطة بجوار العتبة الخضراء ..

ولم تكن « زاوية عكريشة » هذه مكتبا ولا شبه مكتب ، ولكنها كانت منضدة من مناضد الكتبة العموميين على ذلك الرصيف .. وكان المعلم «عكريشة» متعهد بيع الصحف جميعها يستعيرها في مبدأ الامر من كاتبها الذي كان يستغني عنها بعد الظهر - اي بعد الفراغ من كتابة العرائض للمحكمة وكتابة الرسائل لصندوق البريد - ثم بدا له أن يشتريها وكاتبها جملة واحدة ، لاتساع دائرة العمل وزيادة الاقبال على الصحف اليومية بعد قيام الاحزاب السياسية ، على اثر قضية دنشواي ..

ثم يخلو الرصيف الا من المعلم عكريشة وكاتبه ومنضدته وقلمه الذي يحمله وراء أذنه ، الى أن يودعه مكانه في الدواة النحاسية الصفراء .. ومتى خلا الرصيف هناك لم يبق مكان في القاهرة خلوا من صبي من صبيان المعلم الكبير ، تكاد تحسبهم أسرع من الترام لانهم يصلون حيث لا يصل الترام ، وتكاد تختلط اصواتهم بأصوات بائعي الخضر والفاكهة ، ومنها النداء على « الوطن ومصر العال ! » ..

وليس امامي احصاء دقيق لتوزيع الصحف في تلك الايام ، ولكنه على الحد الاقصى لا يزيد على خمسة الاف للصحيفة الواحدة ، لانه الحد الاقصى الذي تبلغه طاقة المكنات الطباعية ، قبل وصول مكنات البخار والكهرباء ! ..

الاعلانات

ولا نعرف اليوم صحيفة تستطيع ان تسقط الاعلانات من حسابها ثم تطمع في البقاء واستيفاء ابواب الاخبار والتعليقات ، ولكن صحافة الامس كانت تستطيع بلا تردد ان تسقط اعلاناتها من عددها الاول ثم لا تفقد شيئا يعوقها اسبوعا عن الصدور ..

وكانت التقاليد الموروثة ــ والامية معا ــ عائقين طبيعيين لظهور « الاعلان » الصحفي الى سنوات قليلة مضت .. لعلها هي السنوات التي ظهرت فيها أول شركة للاعلان الصحفي في هذه البلاد ..

كان من التقاليد الموروثة أن يشتري الانسان لوازمه « المهمة » من حيث اشتراها أبوه وجده .

وكان الريفي ينزل القاهرة لشراء لوازم الفرح ، او لوازم البناء والاثاث ، فيذهب الى أمكنة معروفة بأسمائها لا تتغير من جيل الى جيل ، وكلهم يعرف عناوين مدكور والماوردي والجمال الحمصاني ومخازن الحدائد والاخشاب في ناحية القلعة وسوق السلاح ، ولا نظن أن متجرا من متاجر القاهرة المشهورة نشر اعلانا واحدا ليكسب به « زبونا » لم يكن يعرفه قبل ذلك الاعلان ..

اما المتاجر الصغيرة التي تباع فيها لوازم البيوت اليومية ، فقد كانت معروفة في احيائها وقراها بغير حاجة الى اعلان مكتوب ...

ولهذا بقيت اعلانات الصحف سنوات عدة وهي مقصورة على اعلانات البيوع القضائية واعلانات الوفيات او اعلانات

« ختمي فقد مني وليست علي ديون ولم أوقع على مستندات أو كمبيالات .. »

واعلانات « الاختام » وحدها عنوان صادق لنصيب الصحف من قراء الاعلانات .. لانها عنوان للامية التي تعجز عن كتابة الاسماء . ومع هذه الامية ، لا اعلان ، ولا قراء للاعلان ! ..

الاعلانات السرية

ونحن الان نكتب ونقدر ونتذكر ولا نرجع الى الصحف التي عاشت في مصر وانطوت بعد حين .. ولكننا لا نجازف اذا قلنا أن مصاريفها كانت على التحقيق اكبر من مواردها التي يدل عليها حساب البيع والاشتراك والاعلان .. ولولا أنها اعتمدت في وقت من الاوقات على مورد الاعانات « السرية » لما طال بها الاجل شهورا ، فضلا عن سنوات ..

وقد تعلم مبلغ الحاجة إلى هذه الاعانة اذا علمت ان شركات البرق ـ كشركة روتر ، وهافاس ـ كانت تتلقى اعانة رسمية من الحكومة المصرية ، وان مطبوعات الدواوين والسفارات كانت تحال ـ علانية ـ الى بعض الصحف لطبعها ، مع وجود المطبعة الاميرية .

ولم تكن مصادر الاعانة مجهولة بين العاملين في الصحافة والسياسة ، وان لم تبلغ من الصراحة في زمن من الازمان مبلغ الاعتراف المكتوب

وربما انقسمت هذه المصادر في جملتها الى مصدرين اثنين على شيء من الدوام والانتظام .. وهما القصور الملكية ودواوين السفارات ووزارات الخارجية ، وقصر « يلدز » في الاستانة

كان مصدر القسط الاوفر من اعانات الصحافة والصحفيين المتطوعين ..

وقصر « عابدين » بمصر كان المصدر الآخر الذي ينافسه يوما ويعمل معه يدا بيد في عامة الايام ..

وكان بخل عباس المشهور يغل يده عن التبرع بالمال من خزانته الخاصة ، فكان يحيل أعوانه من الصحفيين تارة الى ديوان الاوقاف وتارة الى ديوان الرتب والنياشين ..

أسعار الرتب

وكانت للرتب أسعار مقررة من الباشوية الى البيكوية من الدرجة الثالثة .

فكانت رتبة الميرامون الرفيعة تباع بألف جنيه ، ورتبة البيكوية من الدرجة الاولى تباع بثمن يتراوح بين خمسمائة جنيه وسبعمائة جنيه او ثلثمائة جنيه ، وتقدر أسعار النياشين والاوسمة بمقدار قيمتها من المعدن والجواهر وقيمتها من الاولية في ترتيب التشريعات .

ولقد بيعت رتب كثيرة في القهوات ، وبيعت رتب مثلها في مكاتب التحرير والتوكيل .. ولكنها لم تهبط في السوق ــ على ما نعلم ــ الى ما دون مكاتب التوكيل في القاهرة والاسكندرية .. ولو ان سمسارا من سماسرتها خانه الحظ أو غلبه الطمع فباع رتبة من هذه الرتب لرجل محكوم عليه في جريمة شائنة ، لبقيت هذه التجارة موردا للصحافة الى ختام عهد الخديويين ..

والوكالة البريطانية وسفارة فرنسا كانتا في هذا المجال ندين كفأين ــ أو أكثر من كفأين ــ لقصور الملوك والامراء ، ولكن الوكالة البريطانية كانت تكافىء خدامها بالمنافع الجزيلة

من الوساطات والشفاعات في دواوين الحكومة ، وقد تجود بالمال من مصروفات « الميزانية » ومن مصروفاتها هي اذا اقتضى الحال .. ولا تقصر السفارة الفرنسية عن زميلتها في بذل هذه الاعانات على اختلافها ، ولكنها كانت تعوض الخدمات الحكومية بالصفقات التجارية ومساعدات المصارف والشركات ، وقل فيها ما لم تكن للفرنسيين مساهمة فيه . .

ومن الوظائف التي كانت تبدو للنظر ـ بريئة ـ من هذه الشبهات وظيفة المدير العام لدار الكتب المصرية التي كانت موقوفة ـ باتفاق العرف ـ على علماء الالمان . ولكن هذه الوظيفة عملت في الدعاية الخفية أحيانا ما لم تعمله وظيفة في السفارات السياسية ، وكان اتصال المدير العام لدار الكتب بزمرة الصحفيين وحملة الاقلام أمرا لا غبار عليه ، لانهم كانوا يقصدون الى دار الكتب للمطالعة والمراجعة والنسخ في جميع الاوقات . وماذا يحول دون الاتفاق على حملة منظمة في الصحف خلال مقابلة او مقابلتين لنسخ هذه الورقة أو استعارة ذلك الكتاب ؟ ..

ونعود الى الدستور

ونعود الى صحيفتنا التي بدأنا فيها عملنا نسأل : كيف عاشت من مواردها الصحفية ؟ وكيف كانت ترجو ان تعيش كما عاشت الصحف في أيامها ؟

نقول اليوم ان ظهورها بوسائلها التي عهدناها، ولا يخامرنا الشك فيها ، كان عجبا من العجب . وخلاصة ما يقال عنها ان قلة مصروفاتها كانت هي السند الاكبر لبقائها المزعزع في عمرها القصير .

ضاع الامل في الاشتراكات بعد شهر او شهرين ، ولم يكن صاحب الصحيفة ــ على شهرته بالنظريات ، مجردا من الدراية الحسنة في تنظيم الاعمال ، فاخترع طريقة الاشتراك الشهري بالاذونات مع خصم رسوم البريد من بعض هذه الاذونات ، وأفادت هذه الطريقة قليلا ولكنها كانت ، على أحسنها ، فائدة تأجيل للقضاء المحتوم .

وكسدت سوق البيع بعد الخلاف بين الدستور واللواء ، فقصرت الادارة عدد المطبوع من النسخ على الطلب اليومي ، ولم يزل هذا الطلب اليومي يتناقص من أسبوع الى أسبوع ..

ومن لطائف الاستاذ فريد وجدي ــ وكان يمزح أحيانا ولا يقول الا صدقا ــ ان موظف الادارة فاتحه في نقص اجور الاعلان فقال له متململا : ألا تحمد الله لاننا لا نغرم حتى الان اعلانات في الصحف عن ظهور الدستور ؟!

أما الاعلانات السرية فقد كان الدستور خليقا أن يجمع منها الكثير لولا أن الاستاذ فريد وجدي رحمه الله كان يحسب انه يسخر أصحاب الدعايات لرسالته الدينية ولا يفهم أنهم يسخرونه لدعايتهم السياسية .. وقد يصل الامر الى تبرعات الافراد ، فلا يقبل منها الرجل ما يزيد على قيمة الاشتراك المكتوبة على الصحيفة..وحدث منذلك ان السيد «توفيق البكري» أراد ان يعرب للصحيفة عن شكره لموقفها منه أمام الخديو في مسألة « زفة المحمل » وحضور الطرق الصوفية فيها ، فأرسل الى الاستاذ وجدي مبلغا لا أذكره على التحقيق ، ولكنه يزيد على قيمة الاشتراك بكثير .. فأمر صاحبنا كاتب الحسابات أن يكتب للسيد ايصالا بقيمة الاشتراك ، ويعيد اليه بقية مبلغه مع الايصال ..

وماذا تكون النتيجة ؟

تكون على هذا نتيجة مكتوبـــة قبل المقدمة ، ولولا قلـــة المصروفات ـ كما أسلفنا ـ لاتصلت النتيجة بالمقدمة في أيام ، أو على الاكثر في أسابيع !

ستة جنيهات

كانت المصروفات القليلة سببا من اسباب بقاء الصحف المصرية في سنواتها الاولى ..

وتظهر قلة المصروفات من تكاليف التحرير في الصحف اليومية الكبرى ، فقد كان قلم التحرير في أكبر الصحف لا يزيد على خمسة من المحررين والمترجمين والمخبرين وملخصي الاخبار من الاقاليم ، يبدأ مرتبهم من خمسة جنيهات في الشهر ويندر جدا ان يجاوز العشرين ..

وكان قلم التحرير في صحيفة الدستور يشتمل على محـــرر واحد غير صاحب الصحيفة ..

وهذا المحرر الواحد هو كاتب هذه السطور ، يشترك فـــي التحرير والترجمة وتلخيص الاخبار ، ويتناول في الشهر مرتبا لا يقنع به الآن احد يعمل في الصحف من البوابة الى السعايـــة ونقل الاوراق بين المكاتب ، ودع عنك التحرير والترجمة وجلب الاخبار ..

ذلك المرتب « مبلغ وقدره » ستة جنيهات ، ولم يكن يزيد على مرتبي من وظيفة الحكومة بأكثر من جنيه واحد .. فلم تكن زيادة المرتب احدى المغريات لي على ترك الوظائف الحكوميـة للاشتغال بالصحافة، لان المرتبين متقاربان مع الفارق في الضمان والترقية ومستقبل المعاش ..

الا أن القيمة في هذه المرتبات لا تحسب بحساب الارقام ،فان

الستة ربما ساوت ثلاثين في الوقت الحاضر أو أربت على الثلاثين ..

كانت خمسة مليمات في ذلك الحين تعطيك مائدة افطار حسنة في الصباح ، وقد ترضيك هذه المائدة عند الضرورة في طعام الغداء أو العشاء ..

مليم ثمن نصف رغيف (شقة من الخبز) يساوي وزن الرغيف في منتصف القرن العشرين ..

ومليمان ثمن الفول والزيت .

ومليم ثمن صفحة من السلطة .

ومليم ثمن برتقالة أو يوسفية أو اصبع موز أو أربع بلحات ..

فان اردت التنويع امكنك ان تغير هذه الاصناف بالحلاوة الطحينية او العسل والطحينة او الجبن او البيض ، ومن هذه الاصناف ما يغنيك عن الفاكهة والحلويات ! ..

ولك ان تتوسع في طعام الغداء ، فلا تقنع بالاصناف التي تقدم على مائدة الافطار .. ولكنك لا تحتاج الى اكثر من عشرة مليمات للصفحة من الخضر المطبوخة وعشرة مليمات للصفحة من الارز ، وعشرين مليما للصفحة من الخضر وفيها قطعة من لحم البقر أو الضأن .

وقس على ذلك سائر المأكولات ..

دروس التلغراف

وكانت مشكلة السكن يومئذ أيسر من مشكلة الطعام ..

فكنت انا من سكان الضواحي الخلوية ، لا يكلفني السكن في الشهر اكثر من ثلاثين قرشا لحجرة ذات نوافذ مطلة على

الطريق ومروج الخلاء ، ولم يقع اختياري على الضاحية التي سكنتها ـ بجوار حدائق القبة ـ لانني كنت من طلاب الترف وسكان المنازل الخلوية ، ولكنني كنت اتعلم دروس التلغراف بمدرسته في ضاحية الدمرداش ، فاخترت السكن الى جوارها وضمنت اجور المواصلات باشتراكات « مجانية » على حساب مصلحة السكك الحديدية . فلما اشتغلت بالصحافة خسرت اجور المواصلات ، ولم اعوضها بتذاكر الاشتراك في الترام أو قطار كبري الليمون .. اذ كان طلب هذه التذاكر مخالفا لمبدا صحيفتنا « الحنبلية » .. فعوضتها بخمسة مليمات في الترام ، أو بمشوار على الاقدام ، وقد كنت من الفلاسفة المشائين قبل ان اسمع باسمهم بين الفلاسفة الاقدمين ، وكنت لا أعجز عن مشوار بين أسوان والخزان أو بين أسوان وأبي الريش، فلماذا أعجز عن مشوار بين القاهرة وحدائق القبة أو الدمرداش ؟ ..

لا موجب لهذا العجز على التحقيق ، وبخاصة بعد العلم بمدرسة الفلاسفة المشائين ، وبعد ترشيحي بهذه الصفة للتلمذة على استاذ الاساتذة ومعلم المعلمين : ميدنا ارسطو كما كان يقول استاذ الجيل « احمد لطفي السيد » .

ديوان زهير .. بقرش

هذه ضرورات المعيشة المادية ، فما القول في ضروراتها النفسية او الادبية ؟

لقد كانت أيسر من ذلك فيما أعرفه من شؤوني الخاصة..

ولعلها أيسر من ذلك في شؤون الكثيرين ..

ففيما عدا شهود التمثيل مرة او مرتين عند عرض الروايات

الجديدة لم يكن لي مطلب عزيز غير شراء الكتب العربية والافرنجية .

فهل تراني اعجز عن « قرش صاغ » ثمنا لديوان البهاء زهير ؟ أو عشرة قروش ثمنا لديوان المتنبي؟ او قرشين ثمنا لكتاب المستطرف في كل فن مستظرف ، وعلى هامشه ، أو في ذيله ، كتابان آخران ؟ ..

واذا زادت الحسبة الى الجنيهات ، فهل تراني اعجز عن رحلة الى دار الكتب المصرية لمراجعة المجلدات أو للنقل منها « عند اللزوم » ؟ ..

أما الكتب الافرنجية فقد كانت لها طبعات يباع فيها الكتاب بشلن واحد ، وكانت هذه الطبقات تحيط بالنخبة المختاره من كتب المنظوم والمنثور ، وما يصعب الحصول عليه في طبعة منها لانها مخصصة لصنف من الكتب تنتقيه ولا تعنى بغيره ، فليس من الصعب ان تحصل عليه في طبعة مثلها في الثمن وفي جودة الورق والتغليف .. وعلى هذا امكنني في خلال ستة اشهر ان اجمع مائتي كتاب من عيون كتب الادب الغربي في جميع اللغات، مترجمة الى اللغة الانجليزية ..

بارك الله في مصطلحات السياسة وفوارق الاشكال والعناوين في العلاقات الدولية .

فما زلت من ذلك الحين أومن بأنها شيء صحيح ملموس الاثر ، وليست حروفا على الورق ، ولا الفاظا تطير مع الهواء..

فالبلاد المصرية كانت ــ في الواقع ــ تابعة للدولة البريطانية في سياستها الخارجية وحكومتها الداخلية ..

ولكنها لم تكن كذلك في مصطلحات السياسة ، ولا في اشكال العناوين ..

ولهذا استطعت ان اشتري كتابا يباع في انجلترا بثلاثة

جنيهات ولا ابذل فيه اكثر من اربعين قرشا في مكتبات القاهرة، لانه صادر من مطبعة المانية حصلت على حقوق طبع الكتب وبيعها في كل مكان غير « الاملاك البريطانية » .

ولم تكن مصر قط من الاملاك البريطانية بحكم القانون ، فليس في العرف الدولي ما يمنع المطبعة الالمانية ان ترسل الى مصر جميع مطبوعاتها لتبيع الكتاب منها بمارك واحد ، أو بشلن واحد على وجه التقريب .. فاستغنينا بهذه الطبعة زمنا عـــن الكتب الانجليزية في طبعاتها الغالية ، وهانت مشكلة الكتاب بعد مشكلة الغذاء .

ولم تبق الا مشكلة الكساء ! ..

وقد كانت حقا مشكلة المشاكل لا مراء ! ..

لانها تحتاج الى مبلغ متجمع لا يوجد في اليد ساعة الطلب ، ولا تحلها عندي حيلة التقسيط لانه ــ على ندرته في ذلك الحين ــ لم يكن مريحا لمن يبيع الكساء ولا لمن يلبس الكساء ..

ومرة واحدة حللت هذه المشكلة بشراء بذلتين قديمتـــين ، ولكن الجوار الصالح هداني الى حيلة اصلح من هذه الحيلـــه لتدبير هذه المشكلة ، وهي درس خصوصي لتاجر أقمشة يتولى تفصيل القماش وتسليمه كسوة كاملـــة ، ويوفيني الاجر ــ بذلك ــ كسوة كل ثلاثة أشهر .. ولم تزد مدة التعليم كله على كسوتين ، لنشاط التلميذ أو لبراعة الاستاذ ! .. أو لرغبـــه الفريقين معا في « فسخ » العقد بسلام !

خصلة مشتركة

واخال ، بعد هذه القصة عن الكفاية ، انني قد نسيت ان اقول ان قلة المصروفات كانت خصلة مشتركة بيني وبين الصحافة

التي عملت فيها ، فقد كنت في سن الحاجة الى المصروفات قليل الحاجة الى المصروفات ، وأصبح من ذلك ان اقــول ان مطالبي في حياتي ليست بالقليلة ولكنها ليست كذلك من النوع الذي يتوقف على المال ..

وكفاية المرتب ، على أية حال ، مهمة جدا في كل عمل نعمله لنعيش من رزقه .

هي شيء مهم جدا ولا كلام ..

ولكن هل ترانا نفهم انها هي الشيء المهم الوحيد ، او ان شيئا آخر لا يهمنا مثلها على تفاوت المرتبات والاجور ؟ .

من يفهم ذلك ففي تجاربه نقص يتعبه في عمله ويتعبه في معيشته .. فالرغبة في العمل الذي نتوفر عليه مهمة جدا كالمرتب الذي نتقاضاه منه ، ونحن نستريح بستة جنيهات نتناولها من عمل نرغب فيه ولا نستريح باثني عشر نتناولها من عمل نبغضه ونساق اليه ولا نود ان ننجزه محسنين أو غير محسنين !

وقد بدأت عملي في الصحافة راغبا فيه مقبلا عليه ..

ووجدت من اللحظة الاولى انني اريد ان افرغ فيه جعبــة المعرفة التي حصلتها من مطالعاتي الصحفية ، ومن مطالعاتي في الكتب ، وفي الحياة ..

وبعض هذه المعرفة صبيانيات مضحكة لا تقدم ولا تؤخر في الموضوع ، ولكنها تدل عــلى حكم العادة وتواتر النظــر والسماع ..

« عم » العقاد !

كيف اوقع مقالتي الاولى ؟ وكيف يكون توقيعي الملتزم في جميع المقالات ؟

وقعتها كما توقع المقالات التي كنت اقرأها في المجلات الاجنبية ، فكان توقيعي باللقب وبالحرفين الاولين من الاسمين « ع.م العقاد » .

ومثل هذ التوقيع لا ينجو من السنة الزملاء الهازلين في بلد « القفش » والقافية .. فسرعان ما ظهر لي مقالان او ثلاثة حتى دغموا الحرفين في اسم واحد ، وراحوا يتحدثون عن مقالات « عم العقاد ..! »

وماذا قال عمك ؟.. وماذا تقول يا عم ؟ .. واكتب لنا يا عمنا بما تراه .. وقس على ذلك بقية القافية في مختلف الاوضاع والنداءات ..

ويأبى العناد ان ارجع عن « عم العقاد » ..

أو لعله لم يكن عنادا محضا ولا صبرا على السخرية بغير مبالاة ، فليس من الكسب الرخيص للكاتب الناشيء ان يذكر وان يكون في توقيعه اغراء بذكره .. واما السخرية فهي شهرة نابية في جميع الاسماع ، ولكنها تهون اذا اصابت الفطاحل النابهين كما تصيب الناشئين المبتدئين ..

وهكذا مضى « عم العقاد » يكتب بهذا التوقيع من العدد الاول الى آخر الاعداد !

اما الموضوع فقد كان « المقالة الادبية » في المرتبة الاولى ثم تليه المقالة على الاجمال في مختلف الشؤون ..

وكان أدب المقالة في تلك الاونة يستوعب مطالعاتي الحديثة أو يكاد ..

كنت أدمن القراءة في كارليل، وماكولي، وهازلت، ولي هنت، وارنولد ، وغيرهم من ائمة فن المقالة في القرن التاسع عشر .. وكان بعض هذه المقالات مما ينشر في الصحف اليومية ، لانها تمتد حتى تبلغ في المجلة ثلاثين أو اربعين صفحة ، وبعضها

مما يصلح للنشر في الصحافة الاسبوعية كما يصلح للنشر في الصحافة اليومية ، ومن هذه المقالات كنت اترجم ما يصلح للنشر في الصحيفة السيارة ، وعلى غرارها كنت اكتب ما اكتب عن ادباء العرب والفرس ومسائل النقد والتعليق ..

فن المقالة !

ولم يخطر لي ان اخترع جديدا في فن المقالة الادبية ، اذ كانت الصحافة المصرية كلها قد قامت على فن المقالة منذ انشائها قبل الثورة العرابية، وكانت «الجريدة» قد سبقت « الدستور » في تاريخ الصدور ، وكان من كتابها المتقدمين « محمد السباعي » تلميذ « لي هنت » في فن المقالة على أسلوب المدرسة الانجليزية، فكان رائد هذا الفن في تحرير الصحف غير مدافع ، وكان له فيه ابداع يعرفه قراء كتابه الذي سماه « بالصور » واراد ان يعارض به مقالات الترسيم والتخطيط المعروفة باسم « الاسكتش » Sketch في ادب الغرب الحديث ، فلم احاول في كتابة مقالاتي جديدا غير تقريب الموضوعات من الدراسة النقدية ، ولم اطرق غير القليل من موضوعات النقد الاجتماعي أو موضوعات المقالة الوصفية والمقالة العاطفية ، لانني كنت مع اشتغالي بالكتابة مشغولا بنظم الشعر في موضوعاته ، وهو أولى بالوصف العاطفي من المقالات ..

على انني أحمد الله ، لان المتقدمين علي في الصحافة لم يغلقوا علي جميع الابواب ، فبقي لي في الصحافة المصرية باب واحد استطيع ان اقول اني كنت أول السابقين اليه ..

وذلك هو باب الاحاديث مع الوزراء والساسة .. فلا اعلم ان احدا من الصحفيين المصريين سبقني الى اجراء حديث عام مع

وزير مصري أو رئيس شرقي يسمع له قول في السياسة ، واخالهم معذورين بعض العذر في هذا التأخير ، واخالني محظوظا بعض الحظ في هذا السبق المقدور ، لان الاحاديث امر مرهون بأوانه لا يدركه أحد قبل موعده ولا بعده ، ولا هو بالمعقول في صحافة مصر على عهد الاحتلال قبل حادث دنشواي وقيام الاحزاب ..

من كان يحادث الوزراء المصريين في شؤون السياسة العامة، وماذا يقول الوزير للرأي العام اذا اراد المقال ؟ وأي برنامج له يعرضه على الناس ؟ وأي رأي كان له بعد رأي المستشار ورأي قيصر قصر الدوبارة من وراء المستشار ؟

احاديث الوزراء

ان حديثا يجري مع وزير لا يملك من أعمال وزارته غير التوقيع والسكوت لهو اللغو بعينه ، فلا حرج على الصحفيين المصريين اذا تجنبوه .. وقد تجنبوه معذورين حتى خطر لي ان اقتحم هذا الباب لاول مرة ، فكان اقتحامي اياه في الحق عنوانا لصفحة جديدة في تاريخ الوطنية المصرية ، ولم يكن مجرد سبق في الصحافة يتكرر كل يوم ..

وجرى الحديث الاول مع سعد زغلول في وزارة المعارف ، وجرى غيره من الاحاديث مع الغازي أحمد مختار « قوميسير » الدولة العثمانية كما كانوا يسمونه في زمانه .. وكان على ضآلة نفوذه في مركزه شخصية من اقوى الشخصيات العسكرية والسياسية التي عاشت في ذلك الزمان ..

وكنت أعلم ان حديثا يتطرق الى نظام الجيش في عهد الاحتلال ، ويفوه به اكبر القادة العثمانيين في مركزه الرسمي

بالديار المصرية ـ لن يخلو من ضربة تقض مضاجع المحتلين ..

ولقد كان ما قدرت ، فان الرجل خبطها خبطة عنيفة ، وقال لي لما سألته عن العدوان على المحمل المصري في جزيرة العرب : ان الذنب ذنب النظام لا الامن في الجزيرة العربية ، وانه كان يستطيع ان يفتح الجزيرة كلها بفرقة كالفرقة التي تحرس المحمل في كل عام !

يا خير ! ..

ان كلمة دون هذه الكلمة في المساس بنظام الاحتلال العسكري قد اوشكت ان تطيح بعرش عباس الثاني ، وقد حركت الدولة البريطانية بحذافيرها لتهديده وارغامه على الاعتذار ..

فكيف تراهم يصبرون على تلك الضربة من قائد عسكري يمثل الدولة العثمانية ؟ ..

الا انهم مكروا ولم يجهروا ، وبدأت بينهم وبين القائد الكبير ازمة متواترة .. نصرهم فيها عليه سماسرة الخذلان في الاستانة ، فكان الغازي مختار خاتم « القوميسيريين » في هذه الديار ..

ثورة على الخديو

اذا كنت قد خرجت من صحيفة الدستور بأولية من أوليات الصحافة المصرية ، فهذه هي « أوليتي » التي خرجت بها من اول عملي في صحيفة يومية : أول صحفي مصري حصل على حديث من وزير عامل في الوزارة ، او من رئيس شرقي كبير يسمع له رأي في السياسة ..

وقد كدت ان اضيف اليها « أولية » اخرى ذهبت غير

محسوس بها ، قبل ان تحبو من مهدها ..

كدت اكون اول كاتب يحاكم على حملة صحفية موجهة الى سياسة الامير في شؤون مصر وفي شؤون الاصلاح الازهري على التخصيص ..

كانت سياسة الوفاق يومئذ في عنفوانها ، وكان مدار هذه السياسة على التعاون بين السلطة الفعلية، سلطة الاحتلال ، وبين السلطة الشرعية سلطة الامير .. وقامت السياسة فعلا ـ بعد عزل اللورد كرومر ـ على اطلاق يد الخديو في مسائل الحكم التي تعنيه ، ومنها مسألة الازهر والاوقاف ومسألة الرتب والنياشين ..

وفي هذه الفترة تنمر الخديو للحركة الوطنية ، وادار ظهره لطلاب الدستور ، وعمل جهده على استئصال نهضة الاصلاح في الازهر بعد وفاة الاستاذ الامام ، واعلن عداءه لمدرسة القضاء الشرعي وكاد يقضي عليها ..

وثارت الثائرة على الخديو من داخل الازهر وخارجه ، فتكلم مرة عن نهضة الاصلاح الازهري واقسم انه يغار على الاصلاح غيرة اصدق من دعوى المدعين للغيرة عليه ..

وكتبت يومئذ مقالا مطولا استغرق الصفحة الاولى من صحيفة « الاخبار » التي كان يصدرها الشيخ يوسف الخازن ويحررها الاستاذ توفيق حبيب . قلت فيه ما فحواه : ان الملوك لا يحتاجون الى القسم لانهم يثبتون نياتهم بالاعمال لا بالاقوال !

براءة المشايخ !

وكان في وسعي ان اكتب هذا المقال في صحيفة الدستور لان صاحبها ـ الاستاذ فريد وجدي ـ كان كما أسلفت من ارحب

خلق الله صدرا لحرية الرآي وحرية المناقشة ، ولكنني قدرت له حريته هذه فلم أشأ أن أحرجه في مسألـــة ترتبط بالازهـــر والاصلاح الديني . وقد كانت له في العالم الاسلامي مكانة تشبه مكانة الاقطاب الدينيين ..

فلما ظهر المقال في صحيفة الاخبار بتوقيع (ع الامسواني) قلقت له الحاشية الخديوية ، وظنوا إنه من ايحاء بعض المشايخ الازهريين .. فأكبروا هذا « التمرد » من معقل الخديو الامين في أيامه ، فاستدعت النيابة صاحب الاخبار ومسألته عن اســـم صاحب المقال ، فأذنت له ان يطلعهم عليه ، ولعلهم اطمأنوا الى هذه النتيجة بعد ان علموا ببراءة المشايخ من الشبهة ، فانطوت المسألة ووقفت عند هذا الحـــد ، اشفاقا من اثارة القضيـــة الازهرية في أطوار التحقيق والمحاكمة والدفاع وتعليقات الصحف واحاديث المتحدثين .

ولولا ذلك لسبقت نفسي بثلاث وعشرين سنة ، فكنت أول من حوكم على تلك العيوب الملكية التي يحملها أصحاب العروش ويحاسب عليها اصحاب الاقلام .

يومية وغير يومية

كانت الصحف المصرية عند أوائل هذا القرن تنقسم الـــى يومية وغير يومية ، ولم تكن هناك صحف اسبوعية بالمعنى الذي نفهمه من الصحافة التي تصدر مرة كل اسبوع .. فان لم تكن الصحيفة يومية ، فالصحف التي يقال عنها انها اسبوعية قـــد تصدر مرة كل شهر أو مرة كل شهرين ، أو تنتظم على الصدور يوما في كل اسبوع الى امد محدود ، ثم تنقطع دفعة واحدة ، أو تعود الى الانقطاع على دفعات ..

وكانت مواعيد الانقطاع على الجملة أصدق من مواعيد الصدور .. لانه كان يتكرر على التحقيق حيث يتعذر التحقق من موعد للصدور ..

وربما انتظمت الصحيفة « الاسبوعية » خمسة أسابيع أو ستة اسابيع متوالية ، ولكنك تنتظرها عبثاًاذا انتظرتها في يوم معلوم من أيام الاسبوع ، فاذا ظهر هذا العدد منها يوم الاحد فلا مانع أن يظهر العدد التالي يوم الخميس أو يوم الجمعة ، أو بعد يومين اثنين فقط من ظهور العدد الذي سبقه ، ولا معول في ميعاد من هذه المواعيد على شيء غير « توافر المادة اللازمة للتحصيل .. »

شيء لزوم الشيء

وما هي المادة اللازمة للتحصيل ؟ ..

حملة على مشهور أو فضيحة في اسرة تخاف التشهير ، أو تهديد مقدور على حسب المناسبات ومصالح الضحايا المعرضين للتهديد ، أو ضجة سياسية ، أو اجتماعية تشتبك فيها المطامع والدعايات وتتعدد فيها الفرص للمنتهزين من هنا ومن هناك ..

وكان أفضل هذه الصحف « الاسبوعية » الذي يسرع الى الاحتجاب وتمتنع عليه وسائل الثبات والاستمرار .

وقد ظهر من هذه الصحف الفضلى كثير لم يبق منها بعد حين كثير ولا قليل ، ولم يقل أحد من الصحفيين الافاضل او غير الافاضل ، انه يصدر صحيفته لمصلحة خاصة او يصدرها لمحض التشهير والتهديد ، ولكنك تراجع الاسماء فلا ترى بها من خفاء .. وماذا يبقى من الخفايا وراء اسم كاسم « الكرباج »

أو « البعبع » أو « الجاسوس » أو « اللجام » أو « الصاعقة » او « المرصاد » او « العفريت » أو « عفريت المقاولين » على التخصيص ؟ ..

هذا الى أسماء اخرى كالخلاعة والصبوة والفندرة والمرستان والفوضى ، وما أشبهها من أسماء يختارها أصحابها وهم في سعة من الاختيار ، وفي سعة من الادعاء كما يشاءون بما اختاروه من كلمات ! ..

ولم يمض غير يسير حتى افترقت الكفايات اللازمة لاصدار الصحيفة الاسبوعية على هذا المنوال ..

فقد يكون الرجل من أجهل الجهلاء ، ولكنه من أقدر الناس على التشهير والتهديد واستغلال الفضائح والاشاعات .

وقد يكون الرجل عاجزا عن كسب مليم من هذه الصناعة ولكنه قادر على تسويد الصفحات وتلفيق الاقاويل والاباطيل..

ولا بد من الكفايتين لاصدار الصحيفة في موعدها الملائم .. فان لم توجد الكفايتان في رجل واحد فقد توجدان في رجلين، وقد يهتدي أحدهما الى الاخر بحكم المصادفة ان لم يهتد اليه بحكم الضرورة ..

وهكذا كان ..

بين العتبة والفجالة

فقد جدت في القاهرة ثلاثة مكاتب أو أربعة لتحرير المقالات حسب الطلب والاقتراح ، مقرها حانات وقهوات موزعة بين باب الخلق والعتبة الخضراء والفجالة وحي الحسين ، وهي الاماكن التي كثرت فيها المطابع الصالحة لطبع الصحف الصغيرة ، لانها تكلف القليل من الاجور وتتقبل المقلقات ..

ورأينا من هذه « المكاتب » قهوة في العتبة الخضراء يجلس اليها محرر مشهور يكاد يرتجل المقالة في دقائق معدودات ، وقد يكتب المقالات قبل اقتراحها على وجهين متناقضين ، أحدهما للمدح والتأييد والاخر للقدح والتهديد .. ويجلس بهذه المقالات على ثقة من الطلب في حينه ، وقد يأتيه الطلب على النقيضين من طالب واحد في ساعة واحدة ، ولا يعجزه في اللحظة الاخيرة أن يدخل التعديل المطلوب في القياس والتفصيل ، ان كان لا بد من تعديل ! ..

كان المكتب العام من « مكاتب التحرير تحت الطلب » ، في قهوة على مفترق شارع محمد علي وميدان العتبة الخضراء ، وكان المطعم الذي تعودت أن أتناول فيه الغداء الى جوار تلك القهوة .. فكنت أجلس فيها هنيهة قبل الغداء أو بعده ، وكنت ألقى فيها بعض الصحفيين والادباء ، وأحضر مجالسهم ومحاوراتهم ، وأستمع الى أحاديث غزواتهم وأحابيلهم في تحصيل أتاواتهم ، فرأيت صاحب صحيفة من أشهر الصحف الاسبوعية في أيامها يجلس الى مائدة « الشيخ المحرر » ويبادره بطلب من « البار » على حسابه ، ويفاتحه قبل حضور الطلب في موضوع مقالين مستعجلين ، يثني في احدهما على سري معروف من أصحاب القصور الباذخة على مقربة من حي عابدين ، لانه يثابر على عمل البر واسداء المعونة الى الجماعات الخيرية واصلاح المساجد التي تجاور قصره واطعام الفقراء الذين يترددون على تلك المساجد لوجه الله الكريم ، وينحي في المقال الثاني على ذلك السري بعينه لانه مبتذل العرض والكرامة يغرر بالابرياء فيسوقونه الى ساحة القضاء ، ويطالبونه بالتعويض عما أصابهم به من الادواء .. !

ثمن الفخر والثناء

وخرجت من القهوة الى المطعم والمقالان يكتبان ، ولعلهما عرضا في ساعة واحدة على السري المصلح المفسد ، النافع الضار ، المحمود المذموم .. ولعله قد بذل الثمن ضعفين : ثمن الفخر والثناء وثمن السلامة من الخزي والبذاء .

ومجمل ما يقال في هذه الصحافة انها كانت في مجموعها على هذه الوتيرة .. بين صحافة صالحة تسرع الى الاحتجاب ، أو صحافة فاسدة تعيش متقطعة متسكعة ، وينقطع لها الحثالة من نفايات البلد ، وقل أن تعتمد على بضاعة غير بضاعة الجهل والاحتيال ..

ولنا أن نقول في كلمتين أنها صناعة مرذولة ولا حرج ، وعلينا أن نذكر اننا نتكلم عن الصحافة ، وأن الصحافة يومئذ كانت ظاهرة اجتماعية تبحث عن مكانها .. ومن أعجل الاحكام أن تدان الظواهر الاجتماعية بحكم واحد في فترات النشوء والانتقال على نحو خاص ، فلا بد من استثناء في هذه الفترات ، بل لا بد من حكم متئد يقابل الحكم العاجل ويلغيه أو يكاد ..

صناعة مرذولة محتقرة ..

هذا هو الرأي المجمل في صحافة مصر غير اليومية منذ خمسين سنة .. ولكنك لا تستطيع أن تبخل بوصف الاحترام على صناعة الصحافة يومئذ في مصر اذا التفت من ناحية الصحافة « غير اليومية » الى ناحية الصحافة اليومية ، لما كان في مصر يومئذ من صناعة تضم بين أبنائها أناسا أحق بالاحترام من علي يوسف مدير المؤيد ، ومصطفى كامل مدير اللواء ، وأحمد لطفي السيد مدير الجريدة ، كائنا ما كان المقياس الاجتماعي الذي تقاس به الصناعات .

ولا استثناء في ذلك لمقياس الدولة والحكومة ، فان الرتب والالقاب التي حصل عليها أقطاب الصحافة المصرية من الدولة لم تكن تقل في قيمتها الرسمية عن ألقاب الوزراء ... ومن حصل منهم على « البيكوية » فانما كان يحصل عليها من الصنف الذي ينادى صاحبه بلقب الباشوية ، ولولا أن الاستاذ « أحمد لطفي السيد » كان من المعارضين للسيادة العثمانية لجاءته الرتبة التي أنعمت بها الدولة على صاحبي المؤيد واللواء ..

***

ومن الملاحظات التي لا تهمل في هذا الصدد مسائل الزوجية التي تعرض لها كبار الصحفيين في تلك الاونة ، فانها تدل على احساس عميق داخل أصحاب هذه الصناعة أودع في نفوسهم الثقة بمكانتهم الاجتماعية في شئون يتغلب فيها العرف التليدعلى كل اعتبار جديد ، فلولا « الاحترام الاجتماعي » الذي كان يحسه الزعيم النابه في الصحافة اليومية لما خطر لمصطفى كامل أن يخطب « الاميرة شويكار » ولا خطر لعلي يوسف أن يتزوج بسليلة بيت السادات ، وهو طموح أبعد من الطموح الىمصاهرة بيت الامارة ، لان اعتداد بيت السادات بشرقه الديني كان في ذلك العهد أقوى من اعتداد الامراء بمراتبهم الدنيوية .

ولا يرجع شيء من هذا الاحترام الاجتماعي الى مزية من مزايا الطبقة أو مزايا الثروة .. فان مصطفى كامل كان من طبقة الموظفين الصغار ، وعلي يوسف كان من طبقة الفلاحين الفقراء « المجاورين » للجامع الازهر ، ولم يكن لهما من الثروة قسط يذكر بعد ان بلغا في الصحافة قمة النجاح ..

***

من الكلمات التي قرأتها ولم أنسها منذ قرأتها كلمة الروائي العبقري « شارلز ديكنز » في مقدمة قصة المدينتين حيث يقول عن عصر الثورة الفرنسية :

« انه كان أحسن الازمان وكان أسوأ الازمان .. كان عهد اليقين والايمان وكان عهد الحيرة والشكوك . كان أوان النور وكان أوان الظلام .. كان ربيع الرجاء وكان زمهرير القنوط . بين أيدينا كل شيء وليس في أيدينا أي شيء . وسبيلنا جميعا الى سماء عليين ، وسبيلنا جميعا الى قرار الجحيم .. تلك أيام كأيامنا هذه التي يوصينا الصاخبون من ثقاتها أن نأخذها على علاتها ، وألا نذكرها الا بصيغة المبالغة فيما اشتملت عليه من طيبات ومن آفات » ..

فقد قرأت هذه الكلمة فخطر لي يوم قرأتها أنها لعبة من ألعاب المجانسات اللفظية لا تصدق على زمن من الازمان ولا على حالة من الحالات ، فما برحت منذ قرأتها أعيدها أو تعيدني الى ذكراها كلما صادفتني مرحلة من مراحل التاريخ الكبرى ، لانها وصف يصدق على كل مرحلة من هذه المراحل ويصدق على كل جديد .. ومنها فترة اليقظة المصرية في أوائل هذا القرن العشرين .

حائر بين الاثنين

وطالما حيرتني وحيرت غيري هذه المناقضة بين الصحافة اليومية المحترمة ، والصحافة « غير اليومية » التي لم يكن لها حظ من الاحترام ..

وليس مما يدفع الحيرة أن نعلم أن « الفترات الخالقة »

بطبيعتها متناقضة مشتملة على المحاولة من طرفيها ، الى النجاح أو الى الاخفاق ..

ولكنني أحسب أن الصحافة في أوائل هذا القرن قدأصبحت « هامة » ولم تصبح « عامة » الا بعد حين ..

وهذا فيما أحسب هو علة التناقض بين صحافة يومية محترمة ـ بمقاييس المجتمع ـ وصحافة أخرى غير محترمة بكل مقياس من هذه المقاييس ..

فالصحافة اذا كانت وظيفة هامة ، أثبتتها القوة الاجتماعية التي تعرف لها أهميتها وتحذر من اهمالها ، وهذه القوة الاجتماعية تأتي من قمة المجتمع ومركز القيادة فيه ..

وأما « الوظيفة العامة » فلا غنى لها عن « رأي عام » يسندها ويراقبها ويتعهدها ويتكفل لها كما تتكفل له بالحماية والرعاية ..

ولم يكن لهذا « الرأي العام » وجود في أوائل القرن العشرين ، ولم تكن الصحيفة الاسبوعية قد بلغت من القوة أن تؤدي الوظيفة الهامة التي تؤديها الصحيفة اليومية وتهتم بها قيادة اجتماعية تعرف لها عملها وتتقي عواقب الاهمال فيه ..

كانت الصحيفة اليومية توجد لانها لازمة مهمة في اعتبار طائفة تتولى القيادة الاجتماعية ..

أما الصحيفة الاسبوعية فانما كانت توجد لانها لازمة لصاحبها ومن يعمل فيها ، فان لم يتكلفوا بتدبير أمرها فما من أحد غيرهم يتكفل بتدبيره ..

***

وعلى كلتا الحالتين كانت الصحافة ـ يومية وغير يومية ـ عارضا غريبا على المجتمعات المصرية ، ولم تكن هناك بيئة

خاصة يقصدها الصحفيون لانهم صحفيون، بل لم تكن للصحافة نفسها كلمة متفق عليها .. فربما سمي الكاتب في الصحيفة بالتحريرجي ، أو الجورنالجي ، أو الغازيتجي ، أو المحرر من صناعة التحرير في المطابع والدواوين التي تكتب فيها الرسائل.. فأما كلمة « الصحافة » فهي بدعة مستحدثة خلقها اللغويون على وزن « فعالة » كالنجارة والحدادة والملاحة والتجارة وكل ما يأتي على هذا الوزن للدلالة على الصناعات .

ولو سئل الصحافي يومئذ : ما عملك ؟ لما وجد كلمة مفردة يجيب بها من يسأله ويفهمها السائل والمسؤول .٠

صناعة بغير عنوان ، أو عنوان بغير جهة ، ولا فرق في هذا بين جهة المكان وبين « الجهة المعنوية » اذا استعرنا هذه العبارة من لغة القانون ..

في « سبلندد بار »

فقد ترى في « سبلندد بار » أناسا من الصحفيين ، ولكنهم لا يقصدونه لانهم صحفيون مشتغلون بهذه الصناعة .. وانما يقصدونه لانه ملتقى المهاجرين من سورية ولبنان والعراق وغيرها من الاقطار العثمانية ..

وقد ترى أناسا اخرين في قهوة الشيشة ، أو القهوة الوطنية ، أو قهوة يلدز ، أو قهوة متاتيا ، أو قهوات الحي الحسيني ، وباب الخلق ، والفجالة .. ولكنك لا تراهم هناك لانهم يعملون في هذه الصحيفة أو تلك ، وانما تراهم حيث كانوا لانهم يدخنون الشيشة أو يشجعون القهوات المصرية في أول عهدها بمنافسة القهوات الاجنبية ، أو لانهم يلعبون الشطرنج والدومينة ، أو لانهم تناقلوا سنة الجلوس في هذا الحي أو ذاك

من أيام الطليعة الاولى بين الادباء رواد الاندية العامة ..

وعلى هذا الاختلاط بين البيئات الصحفية ، أو البيئات القلمية ، تتحقق من أمر واحد لا اختلاط فيه ، وهو اتصال تلك البيئة بالحركات العامة في الشرق كله .. فلم تعرف حركة عامة في قطر من أقطار الشرق لم تكن لها صلة ببعض الجالسين ..

هنالك ترى الباحث في فلسفة النشوء والارتقاء أو مذاهب الاشتراكية أو تحرير المرأة، ومعهم ترى رئيس جماعة « تركيا الفتاة » أو صاحب الصحيفة الايرانية الحرة ، أو مؤلف كتاب طبائع الاستبداد ، أو عصبة الحملة على فتوى الترنسفال . وهناك رأينا ابراهيم ناصف الورداني بهياجه الدائم ولهفته الدائمة على أطباق الارز واللبن ، ورأينا مصطفى الصغير الداعية الاسلامي الهندي الذي جازت حيلته في مصر واعتقله الكماليون في الاستانة فحكموا عليه بالاعدام ونفذوا الحكم على الرغم من احتجاج الدولة البريطانية ..

وهنالك كنا نلقى من نلقاهم من الادباء الذين لا يشتغلون بالصحافة الا اذا كتبوا اليها ، ومنهم كانت صفوة الصحب والزملاء على قلة ترددهم وترددنا على القهوة لغير موعد أو مصادفة .

وكانت الصناعة كلها عارضا غريبا في بيئات غريبة ..

صناعة بغير عنوان

صناعة بغير عنوان أو عنوان بغير جهة .. ومن هذا التيه بين البيئات تعرف ما يحيط به من القلق أو من « التوزع » والبعثرة بين مختلف الشواغل والهموم ..

الا أننا نبرىء الذمة قبل ختام هذه الفاصلة من المذكرات

فنسأل : أكانت الصحافة حقا عارضا غريبا كل الغربة في المجتمعات المصرية والشرقية ؟ أيمكن أن توجد صناعة في مجتمع من المجتمعات دون ان تسبقها صناعة متشابهة لها قائمة على أساسها ؟ ..

أكاد أقول أن وجود هذه الصناعة مستحيل ، فلا بد من صحافة قبل الصحافة على صورة من الصور ، ولا بد من صحفيين قبل الصحفيين ..

وللصحفي في المجتمع المصري أب أو جد من لحمه ودمه ومن طبيعته وصناعته ، فمن يكون هذا الاب أو هذا الجد الذي ننتمي اليه أجمعين ، نحن معاشر الصحفيين ؟ .

هو « اللبيب » على أحسنه واعلاه ، وعلى أسوئه وأدناه .. واللبيب الذي يعلو حتى يتبوأ مكان الواعظ المسموع والمستشار المعول عليه والمعلم الذي يصغي اليه المتعلم المستفيد كما يصغي اليه « الفهيم » المعجب بسحر الكلام وفتنة البلاغة.. واللبيب الذي يهبط حتى يصدق عليه وصف « الثرثارة » أو « الادباتي » الذي يفهم بالاشارة ولا يتورع عن الحيلة في طلب الرزق المباح والمحظور ، ولا يبالي ما يصيبه في سبيله من الزراية والابتذال ..

اللبيب هو « جد » الصحفي في المجتمع المصري ، على أسوئه وأدناه وعلى أحسنه وأعلاه .

أزمة قلم

تعطيل « الدستور »

بقيت في تحرير صحيفة « الدستور » حتى فرغنا من كتابة الكلمة الاخيرة في عدده الاخير ..

وقد مضت علينا قبل احتجابه أشهر ونحن نعلم اننا نكتب أعداده الاخيرة ، وان كنا لا نعلم أيها يكون الاخير الذي ليس بعده أخير ..

وأبت المروءة على صاحب الصحيفة أن يمطل أحدا من أصحاب الديون عليها أو أصحاب الاجور فيها بدرهم واحد .. فاتفق مع تاجر من تجار الورق المشهورين على أن يشتري مؤلفاته جملة واحدة سدادا لثمن الورق وما اليه ، واتفق معه في الوقت نفسه على أن يشتري النسخ من الموظفين والعمال بأثمانها المتفق عليها ، وأذكر أن ثمن النسخة من معجم « كنز العلوم واللغة » لم يزد في هذا الاتفاق على ثلاثة عشر قرشا ، وكانت قبل ذلك بمائة قرش ثم بيعت بعد أشهر قليلة بخمسين قرشا ، ثم بسبعين ..

ولقيت الرجل مودعا فقال لي انه يرجو ان نتعاون معا في عمل صحفي نحن أقدر عليه وأصلح له من الصحافة السياسية ، وانه يدرس الفكرة ويلخصها لي عسى أن افكر

فيها ، ويرجو أن يبلغني نتيجة درسه لها بعد اسبوعين أو شهر على الاكثر ، اذا صح العزم على الشروع في تنفيذها ..

مقالاتي مرتين ! ..

كان الاستاذ فريد وجدي يصدر مجلة شهرية تسمى « الحياة » ويكتب فيها أحيانا مقامات خيالية تسمى بالوجديات، ثم تفرغ لاصدار الدستور وترك المجلة الا في فترات متباعدة يعاودها كلما اجتمع لها من مادة الفصول الادبية ما يملأ عددا من أعدادها ، وربما اختار بعض هذه الفصول من مقالاتي التي كنت أنشرها في الصحيفة اليومية ..

أما « الوجديات » فقد كان يكتبها على أسلوب المقامات ويديرها على المواعظ الاجتماعية ، وتقريب المثل العليا التي تصطبغ على الدوام بصبغة الدين أو بصبغة الاخلاق المثالية ، وكان لها قراء كثيرون يطلبونها كلما طالت غيبتها وقد تصدر منها طبعتان وثلاث طبعات .

قال الاستاذ : « ان الحياة » أولى بمقالاتك من الصحيفة اليومية ، وانك تستطيع أن تجرب قلمك في المقامات فتظهر «الحياة» وفيها مقاماتك ومقالاتك الىجانب «الوجديات»، ولولا أنني أنتظر حتى أعلم أن هذا العمل يعوض تكاليفه ويغنيك عن عمل آخر لشرعنا فيه منذ الساعة ، ولكننا قد نشرع فيه بعد أسابيع ..

.. بلا عمل

ومضت الاسابيع ولم أسمع من الاستاذ خبرا عن هذه

الفكرة ، ولم أصل من دراستها بيني وبين نفسي الى نتيجة تدعو الى الثقة بنجاحها ، فوجب البحث عن عمل لي في الصحافة أو ما يناسب الصحافة ، ولكن ما العمل الذي يتيسر لي عند طلبه على عجل ، ولا بد من العجل ، ولا طاقة بالانتظار ..

أفق الصحافة في تلك الاونة مظلم يطبق عليه الظلام من قراره ، ولا تلوح منه شعاعة برانية ولا جوانية ، لان البلاء الذي كانت تصاب به الصحافة من داخلها قد كان أشد عليها من البلاء المسلط عليها من أعدائها ..

كان « اللواء » في حياة مصطفى كامل يعول على موارد يلدز وعابدين ومعونة بعض الغيورين من سراة الترك والمصريين ، وانقطعت موارد يلدز وعابدين من قبل وفاته .. وانقطع الامل في موارد يلدز بعد زوال عهد عبد الحميد ، وفي موارد عابدين بعد اعراض الخديو عباس عن الحزب الوطني في عهد سياسة الوفاق واستحكام العداء بين الحاشية الخديوية وخليفة مصطفى كامل « محمد فريد » .. وقد كاد فريد رحمه الله ينهض وحده بأعباء اللواء المالية والسياسة ، لولا ما أصابه من المصادرة بعد المصادرة ومن المحاكمة بعد المحاكمة ، حتى أجمع عزيمته آخر الامر على هجرة الديار ..

وكان « المؤيد » يزدهر في ابان نشاط صاحبه « علي يوسف » .. ثم نكب هذا الرجل العصامي نكبة قاسية عصفت بنشاطه قبل أوانه ، اذ فجعته المنية في وحيده في مقتبل صباه ، واضطربت حياته بعد ذلك بمشكلات الاسرة أو مشكلات « مشيخة السادات » التي ساقته قضية الزوجية اليها ، وما زال دبيب الملل يسري اليه ويزهده في صحيفته العزيزة عليه حتى تركها بعد حين للمقادير وهو لا يبالي ما سوف تلقاه ، أو ما سيلقاه ! ..

وكانت « الجريدة » أسلم الصحف من هذه الزعازع واشباهها ، ولكنها على هذا لم تسلم من ضربات خصومها السياسيين وفي مقدمتهم الحاشية الخديوية ، وحزب الاصلاح على المبادىء الدستورية .. فان حاشية الخديو افتتحت عهد الوقاق بين السلطتين الشرعية والفعلية بمحاربة « حزب الامة » قبل غيره من الاحزاب ، لان أعضاء الاحزاب الاخرى كانوا يلوذون بالقصر ولا يقاطعونه ، خلافا لاعضاء حزب الامة الذين كانوا يقفون من القصر موقف الاستقلال أو يتعرضون لغضبه في كثير من الاحوال . فسعى رجال الحاشية سعيهم لتحويل الاعضاء من حزب الامة الى حزب الاصلاح ، ونجح مسعاهم بعد اختيار وكيل حزب الاصلاح للوزارة وتتابع الانعام بالرتب والالقاب على أعضائه البارزين .. ولم تبق للحزب بقية قادرة على الصمود والمقاومة الا بجهد جهيد ، ولكنه بقاء لم يعصم الجريدة من أزمات المال والخلافات الداخلية ، وعرفت من محرريها يومئذ من تركها لانها اضطرت الى القصد في وظائف التحرير بعد التوسعة فيها عند نشأتها ، حتى كانت تقنع من المحرر بنهر في اليوم ، ولا تسأله اذا ونى عن كتابة هذا النهر عدة أيام ..

حياة الظلام

وتلك هي الصحف التي أنظر اليها اذا نظرت الى عمل في الصحافة اليومية ، فأما الصحف الاسبوعية فلم يكن فيها مجال لغير أصحابها أو لغير كتاب المقالات ــ بالقطعة ــ على حسب الطلب ، وعلى كل لون ، وفي عرض الطريق ! ..

وربما تأتي للصحافة في مجموعها أن تغالب هذه المحنة ،

وأن تتغلب عليها في النهاية لو لم تطبق عليها طامتها الكبرى من قانون المطبوعات الرهيب: قانون الحجر والرقابة وتقييدالرخص ومحاسبة الكاتب على السطور وما بين السطور ، وعلى الاقوال والنيات ! ..

وقد انطوى هذا القانون بعد نشره في أيام الثورة العرابية ، ثم بطَل العمل به زمنا طويلا حتى نسينا نحن الصحفيين الناشئين أن في البلد قانونا للصحافة كان يسمى قانون المطبوعات ، وأن الكاتب يسأل عن شيء قاله في حدود النقد المباح كائنا ما كان مقام المنقود في الحكومة أو في البلاد ..

ومما يؤسف له أن نصيب الصحافة من هذه الطامة التي جرتها على نفسها لم يكن أهون من نصيب الحكومة ، وانها جنت على حريتها ولا ريب بما زودت به « السلطة » من معاذير ، يقبلها كل من يؤمن بحق القانون ..

فلا نذكر أن أحدا من أعلام الصحافة كتب في صحيفته كلمة تتعلل بها الحكومة لتقييد حرية الكتابة أو قال في خطبة من خطبه كلمة تتعلل بها لتقييد حرية الخطابة والاجتماع ، ولا نستثني من ذلك « مصطفى كامل » على تطرفه واندفاعه في الخطب ، وفي المقالات ..

ولكن الصحافة اليومية لم تلبث أن صارت الى الاقلام التي لا تحسن شيئا كما تحسن ان تسقط معاذيرها وان تمهد العذر لمن يتمحلون العلل عليها ، ولا نخال أن حاكما حرا أو مستبدا كان يعييه ان يتمحل العلل للحجر على الدعوة الصريحة الى القتل واهدار الدماء . ومن أمثلتها ما نشر في ديوان « وطنيتي » من أبيات يقول فيها ناظمها :

هل سال في مصر الدم

أم هل افاق النوم

ومضــوا الــى أهــل الضــلا
ل فأعدمــوا مــن أعدمــوا

فانه لمن سخافة القائل أن يتهم بالاستبداد حكومة تسمح بنشر هذا التحريض . فان لم تكن مستبدة فمن السخف أن يحاسبها على منع هذا التحريض وتحريمه .. فما كانت حكومة حرة أو مستبدة لتحاسب على هذا المنع وهذا التحريم .

حفرت قبرها بيدها !

وكأنما كانت الصحافة الاسبوعية والصحافة اليومية في سباق بينها على تدبير المعاذير للسلطة التي تعمل على تقييدها والحجر عليها .. فقد كان جمهرة الصحفيين الاسبوعيين في ذلك الحين يستبيحون كل محظورة في التشهير واستغلال الفضائح وافتراء الاكاذيب لاغتصاب الاتاوات التي لا موعد لها ولا حدود لتكرارها باسم « الاشتراكات » أو التبرعات الوطنية . ويشاء لها سوء حظها وحظ الامة أن يكون ممثلو البلاد أكبر أهدافها وأول من يصاب بسهامها ، فكان التشهير بأعضاء مجلس الشورى بابا ثابتا من أبواب كل صحيفة اسبوعية تبحث عن الفريسة بين ذوي الاسماء المعروفة ، ولم يكن لاعضاء مجلس الشورى سلطان في الحكم يحاسبون عليه أو يناقشون فيه ، وانما كانوا من أعيان البلاد وكان أكثرهم بعاصمة البلاد على مقربة من جمهرة الصحفيين الاسبوعيين فكادوا أن ينوبوا عن البلاد جميعا في مصابها بالصحافة الاسبوعية وتصدي بعضهم للمطالبة بتقييد الاقلام قبل أن يتصدى لها الوزراء والحكام .

قال أحدهم للامير حسين كامل مستثيرا لنخوته : هل

يرضيك يا صاحب السمو أن يقـال عنك انـك رئيس مجلس الشورية ؟ ..

وعلى هذا النحو تبتلى البلاد بالنكسة وقلب الحال ، وينادي بالحجر على حرية الصحف من كانوا أحق الناس بالغيرة عـلى حريتها لو لم يكن قوامها العدوان على حرية الناس ..

في القائمة السوداء !

وطالت محنة الصحافة هذه بمن يجنون عليها من أبنائهـا العاملين فيها ومن أعدائها الساخطين عليها ..

وطالت حيرتي بين العمل فيها والعمل في غيرها ، وايـن يكون العمل في غيرها ؟

انه التدريس ولا شيء غيره .. فان لم يتيسر في المدارس الاهلية فقد يتيسر باعطاء الدروس الخصوصية ، وأما وظيفة الحكومة فهيهات الان « هيهاتين » لا هيهات واحدة .. لانني كنت قبل اشتغالي بالصحافة اتنحى عن وظيفة الحكومة لنفوري منها .. فالان أطلبها ـ ان طلبتها ـ ولا أظفر برضاها ، بعد ان ثبت اسمي في سجلات الحكومة بين أسماء القائمة السوداء وبعد ان صار الغضب على الصحافة والصحفيين غنيا عن الاسباب ..

ولا بد من عمل عاجل على أية حال ، لان تكاليف المعيشة على الشاب الذي لا يكسب رزقه من وظيفة، ولا منمورد يملكه، ضرورة ملحة لا تحتمل الارجاء من يوم الى يوم .. ولا نقول من اسبوع الى اسبوع .

وكرهت نفسي ان ألجأ الى أحد من الميسورين من أهلي ، وهم غير قليلين بحمد الله ..

كرهت نفسي ان ألجأ اليهم ،لانني تحديتهم جميعا وخيبت

رجاءهم قاطبة بالخروج من الخدمة الاميرية بعدان وصلت اليها بين مزدحم الطلاب المتهافتين عليها ، وشق علي أن أرفض نصيحتهم ثم أسعى اليهم لالتمس معونتهم ، وخيل الي أنهم قائلون بلسان الحال ان لم يقولوا بلسان المقال : انك أعرضت عنا وذهبت الى الصحافة .. فأمامك اليوم صحافتك العزيزة ، فخذ منها ما تعطيك .. !

والى أن يوجد العمل ، ما العمل ؟ ..

تبين لي بعد قليل أن المصرف الاكبر بالامس صالح أن يكون اليوم موردي الاكبر ، ان لم يكن موردي الوحيد ..

هذه الكتب الكثيرة لم لا تباع الى أن تتجدد القدرة على شرائها ، ان تجددت الحاجة اليها ؟ ..

انها الان تعد بالمئات بعد الاقبال على شرائها نحو ثلاث سنوات .. وليس من المنظور أن تباع بثمن الشراء مع الحاجة الملحة الى البيع السريع ، ولكنها تباع بما يكفي لقوت اليوم واليومين والاسبوع .. وقد تكفي خمسة قروش لقوت اليوم في تلك الفترة ، ولا علينا من أجرة البيت وأمثالها من النفقة المتجمعة التي تقبل التأجيل زمنا طويلا أو غير طويل ..

ولقد كان موردا نافعا قد يمتد فيسعفنا — مع الدروس الخصوصية — بضعة شهور ..

لولا حواء ، وبنات حواء ، جزاهن الله بما هن أهل له من جزاء ..

من سكن الريف عرف خير ما في بنات حواء من مروءة وصفات ، ولم يخف عليه شر ما فيهن من كيد والتواء ..

هن الامهات المتطوعات للشاب الناشيء المنفرد بمعيشته في عقر داره ..

من ترى يهيىء له طعامه ؟ من ترى يهتم بتنظيف ثيابه وترتيب أثاثه ؟ ولم لا يتزوج ؟ ومن تراها تنفعه وتلائمه من بنات الجيران ؟ ..

وقد كنت أسكن في حدائق القبة في ضاحية كالقرية الريفية في كل شيء ، ومنه ـ بل أهمه ـ الامهات المتطوعات والخطيبات « المزعومات » ..

وكانت لي خطيبة منهن لم أخطبها ، ولم أتحدث اليها ولا الى أحد من أهلها في حديث زواج .. وكانت لها صاحبة لعوب في مثل سنها متزوجة من بعض ذوي قرباها ، فقالت لي ذات يوم : ان فلانة لا تأتي الى ناحيتك في هذه الايام لان صويحباتها يعاكسنها ويسمينها خطيبة « أبو طويلة » .. ولا تغضب هي من هذه التسمية ، بل تقول لهن مزهوة مستخفة : وما له أبو طويلة أليس خيرا من المساخيط ؟ ..

ولم اشأ أن أجيب الفتاة اللعوب جوابا يكسر خاطر الخطيبة التي لم أخطبها ، ولم أشأ كذلك أن أجيبها جوابا يربط الخطبة المزعومة ويؤكدها ! .. ولم أزد على أن قلت : شكرا للفتيات العابثات ، فقد احسن والله الاختيار والانتقاء .. ولو كان في نيتي أن أتزوج أو أخطب لما وجدت في الحي زوجة أجمل من صديقتك الحسناء ..

قالت : كأنك في غير هذا الحي تجد من تخطبه ؟ ..

قلت : ولا في غير هذا الحي .. ولكنني الان في شاغل عن الزواج . أفلا ينبغي أن أعول نفسي قبل أن أفكر في زوجة أعولها ؟ ..

وكأنها خطبة قد انعقدت بهذا الحوار ، وكأنه حق مكتسب للسؤال عن الحركات والسكنات ، وعن المبيت في المسكن وغيابي عنه بعض ليال .. ..

ولم أفارق المنزل بحملي من الكتب على دفعتين أو ثلاث حتى اعتقدت الخطيبة انني أنوي الرحيل ، وأهم بفسخ الخطبة التي لم تنعقد قط بكلمة تصريح أو تلميح .. وعزز اعتقادها عندها انني كنت احمل كتابي للمطالعة الى حقل من حقول الليمـــون بجوار جدول في طريق كنيسة ، فقيل لها انه يهيم بفتاة قبطية هناك ، وانه يؤجل مسألة الزواج بها لانها مشكلة ، لا تنحل الا أذا انحلت بينهما مشكلة الاختلاف في الدين ..

وأين أنتم يا أصحاب المنزل الغافلين عن مكانه وعن زواره وجيرانه ؟ ان ساكنكم الاعزب ليستعد للهرب بالاجرة المتأخرة عليه .. فان لم تصدقوا فتربصوا له في الطريق وانظروا اليـــه وهو يحمل كتبه دفعة بعد دفعة ليترك لكم حجرتكم خواء خلاء ، لا يعوضكم عن اجرتكم الضائعة ان حجزتم عليه !

وصدق أصحاب المنزل الغافلون ، أو المزعوم عنهم بالباطل أنهم غافلون ..

وحيل بيني وبين أول « رصة » من الكتب خرجت بها بعد هذه الوشاية ، وكادت أن تكون مشاجرة ريفية من طرازالشجار بالنبوت على الحقوق الضائعة ،ولكن الله سلم والهمني أن أسلم الكتب وأمضي بسلام ..

وفي يومها اقترضت اجرة السفر للعودة الى أسوان ..

وفي اليوم التالي لوصولي الى أسوان ، أرسلت منها حوالة بريدية الى صديق لي من أبناء الاقليم يدير محلا مشهورا لبيع الطرابيش وتركيبها ..

وانتهى كيد حواء ليلحق به كيد المقادير التي لا تقـــع في حسبان ..

فقد كان صاحبنا الطرابيشي ممن اشتركوا في ترويـــج الطربوش الابيض احتجاجا على دولة النمسا التي كانت تصدر

الينا الطرابيش الحمراء ، لانها أعلنت ضم بلاد البشناق اليها من أملاك الدولة العثمانية ، فقاطعها المصريون وامتغنوا برهة عن الطرابيش الحمراء بالطرابيش البيضاء ..

واضطغنها وكلاء المعامل النمسوية في القاهرة ، فنصبوا فخاخهم وحبائلهم لجماعة التجار الذين اشتركوا في حركة المقاطعة ، ومنهم صديقنا الطرابيشي من اقليم أسوان ..

فلما وصلت الحوالة البريدية الى القاهرة ضاعت في تيه الحراسة والحجز والتصفية واجراءات « السنديك » وأمناء الحسابات ..

ومضت سنوات وأنا لا أعلم مصير كتبي في معتقلها المهجور ، الى أن لقيت الاستاذ عبد العزيز الصدر عرضا فأنبأني أن جيرانه في حدائق القبة عرضوا عليه تلك الكتب فاشتراها ، وانه على استعداد لردها الي بثمنها اذا أردتها . فشكرته وقلت له انني لا أحتاج اليها ، ولكنني قد استردها بثمنها اذا اتسع لها مكان عندي ، ولم يتسع لها ــ بعد ــ مكان ..

بين الأمل واليأس

وصلت الى أسوان كالساهر الذي طوى الليالي وصالا بغير راحة ، ثم ركن بجنبه لحظة واحدة الى طرف الفراش .

انه في سهرتـه يواصل الحركـة ولا يبالـي متى يرقـد ليستريح ، ولكنه يرقد لحظة واحدة فلا يدري متى هو قادر على النهوض .

كنت أجور على جسدي ولا أعرف لهذا الجور حدودا يرجع عنها ، لان تلك الحدود لم تصدمني قط بصخرة من صخورها ولا بحاجز من حواجزها ..

وكنت أحضر ندوة الزملاء عند ميدان المديرية بالزقازيق ، ثم أعبر المدينة في ليالي الشتاء الى مسكني عـلى حافـة كفـر الصيادين .. فلا أكترث للمطر ولا للبرد ، ولا ألبس المعطف ولا أحمله تخففا من مؤنة حمله على الذراع ، وهو معلق في حجرة الدار يعلوه الغبار ..

وكنت أقضي اليوم في حدائق القبة على وجبة واحدة مـن الخبز والجبن أو من الخبز والفول ، ولا يخطر لي أن اهمـال الغذاء ضرر أذكره لحظة بعد ذهاب الجوع .

وكنت أفتح الكتاب الجديد فيروقني ما قرأته فيه فلا القيه

من يدي حتى أفرغ منه آخر الليل ، ولا ضياء في البيت غير شمعة أو مصباح ذي فتيل ..

وكنت أحسب أن سفرتي الى اسوان ضرورة الجأتني اليها قلة « المصروف » في القاهرة ، فلما وصلت الى اسوان علمت انها ضرورة ما في ذلك جدال .. ولكنها ضرورة الافلاس فيذخيرة البنية واعصابها وليست بضرورة الافلاس في ذخيرة الجيب ! ..

وقد وقع في خلدي انني ازداد نشاطا في بلدتي لانها مصحة للجسم ومصحة للنفس بين الاقرباء والاعزاء ، فعجبت بعد ايام حين رأيتني أفقد النشاط لايسر الاعمال ، وكنت أحسبه تيارا متجددا لا يقبل النفاذ ..

تجمعت المتاعب دفعة واحدة وبدا لي كأنني مريض بكل داء ، معروف وغير معروف .. ولا مرض هناك غير الركود والاعياء باجماع الاطباء، ومنهم الفطاحل العالميون الذين يفدون الى المدينة مشتغلين أو يفدون اليها في حواشي الامراء ..

وتملكتني فكرة الموت العاجل ، فأدهشني انني لم أجد في قرارة وجداني فزعا من هذه الفكرة ، وكدت أقول لنفسي انني أطلبها ولا أنفر منها .. !

واخال ان صدمة اليأس كانت أشد على عزيمتي من صدمة المرض ، أو على الاصح ، من صدمة الاعياء ..

وأشد ما أصابني من هذا اليأس انه كان يأسا من جميع الآمال ، ولم يكن يأسا من امل واحد ..

خلاصة الامل !

كان يأسا من معنى الحياة ، ومن كل غاية في الحياة ، لانني قبل ذلك بشهر عكفت على القراءة في كتب « الفلسفة المادية »

وأكثرت من النظر في مذهب النشوء والارتقاء ، فلاح لي أنــه أصدق من أقوال خصومه المتعصبين الذين تصدوا للرد عليه بين الاوربيين باسم الدين ، ولاح لي من النظرة الاولى على غير روية فيه انه يهبط بالانسان الى حضيض الحيوان ، ولا يبقي بينــه وبين السماء معراجا واحدا يرتفع عليه ..

وكذلك كتبت في مقدمة كتابي « خلاصة اليوميــة » .. ان « الانسان حيوان راق ولكنه حيوان » ..

وقصة « الخلاصة » هذه هي قصة الامل الذي بقي عندي يومئذ في شهرة الادب ، وفي عدد الايام التي أقضيها قبل ظهور هذا الكتاب ، وكنــــت اظنني مبالغا اذا حسبتها بأكثـــر من الايام !

هو الموت اذن كمامستقر فيخلدي بلا أثر ولا خبر.. وهو الموت اذن أمضي اليه صفر اليدين من مجد الادب ومن مجد الدنيا ، ومن كل مجد يبقى بعد ذويه ..

وهل هذا يليق ؟ يا ضيعة لرجاء المجد المتطلع الى عشاقــه وعباده ؟ .. فهل أقل من هدية في اليد تجبر خاطر العرف عـــلى ابواب الابدية؟ وهل يقال انه يجلس على الابواب في انتظار زيارة فارغة اليدين ؟

ويجوز انني كنت اطيق في تلك الغاشية ان اوفي القربان المطلوب بتصنيف كتاب من وحي الساعة والمناسبة ، ولكننـــي عدلت عنه لضيق الوقت والشك في اتساع الاجل. ويجوز انني أحاوله واستنفد به الفضلة الباقية من مطالب العمر المحدود .. فاذا كان ما تيسر كافيا فذاك ، وان كان للمجد ضريبة أغلى مما تيسر فله ان يتقاضاها حيث يلقاها .. فلا خير في جود بغــير الموجود ..

وما تيسر يومئذ هو « خلاصة اليومية » .

يوميات اليأس !

و « اليومية » هذه هي دفتر صغير كنت أقيد فيه الخواطر والتعليقات ، وأبادر الى ايداعه أبيات الشعر التي نظمتها ولم أتممها قبل أن أنساها ، أو رؤوس الموضوعات التي نظرت فيها ولم أفرغ من دراستها ، أو ملاحظات الطريق ونوادر الاحاديث العابرة التي أعاودها في مناسباتها . وقد اجتمع عندي من هذه اليوميات دفاتر ثلاث سنوات .. فلما وقع في وهمي أنني سأذهب – بغير اثر ولا خبر – تصفحت هذه الدفاتر ، ونقلت منها صفحات متفرقة تشتمل على جميع نماذجها ، وبعثت بها الى صديق في القاهرة أقول له ان هذه الصفحات هي كل ما أتركه اذا تركت الحياة ، فان وجدني أهلا للذكر ووجدها أهلا للنشر فتلك كرامة الصديق الراحل على الصديق الباقي ، والا فلا حرج عليه ان يهمل نشرها ويسلمها للنسيان يطويها حيث طواها في زاوية من زواياه ..

ولبثت هذه « الخلاصة » المخطوطة سلاحا من اسلحة الفكاهة والنكاية يشحذه اخواننا الذين عرفوا القصة ولم يتورعوا عن استغلالها .. فمنهم من يقول متململا : متى تظهر خلاصة اليومية ؟ لقد طال الامد على انتظارها .. ومنهم من يقول مستمهلا كلما شكوت أو التمست العلاج : على رسلك بالله ..! ان المطابع مشغولة في هذه الايام .. فاصبر هنيهة حتى تفرغ لطبع خلاصتك وأمثالها .. !

وما برحوا يستعجلونني ويستمهلونني حتى أرحتهم وأرحت نفسي بطبع خلاصة اليومية ، بعد أن أضفت اليها وحذفت منها،

وكان من التوفيقات التي لم اترقبها أنها نفدت في أقل من ستة شهور ، فلم يبق من الفي نسخة طبعتها منها غير مائة أو نيف ومائة ، وهو نجاح غريب لكتـــاب ولدته فكرة بائســـة من الحياة ..

الاكاذيب المتفق عليها !

ولقد عاش معي وهم الموت حقبة في أسوان ، وعاش معي حقبة اخرى في القاهرة .. بعد ان رجعت اليها في وقدة الصيف ، ولكنني التفت فلم أجده معي في شاطىء الاسكندرية يوم ذهبت اليها لاول مرة ، بل وجدتني مع عرائس البحر وعرائس الشعر في لجة منلجج الامل والمغامرة .وبرحت الاسكندرية بعدشهرين لابحث عن عمل بالقاهرة .. أين ؟ افي الصحافة ؟ كلا .. فمـــا زالت الصحافة في مثل محنتها التي عهدتها يوم انتهيت من عملي فيها .. أفي التدريس ؟ .. كلا أيضا .. فان المدارس قد بـــدأت عملها ، ولا معرفة لي بأحد من أصحابها .

ولم يطل بحثي هذه المرة ، فانني وجدت « المأوى » الذي لا بد منه في عمل بين الصحافة والوظيفة ، او بين خدمة الميـــري والخدمة الحرة ، فعملت في قلم السكرتارية بديوان الاوقاف ..

كان الاستاذ « عبد الرحمن البرقوقي » رحمه الله قــــد أصدر مجلته «البيان» وكتبت فيها بعض الفصول،ومنهاتلخيص لكتاب « ماكس نوردو » المشهور عن أكاذيب المدنية الحاضرة..

وكان من دأب الشيخ البرقوقي أن يسأل شيوخ الادب رأيهم في مقالات المجلة وابوابها .. فسأل حافظ عوض ، وسأل مصطفى صادق الرافعي ، وسأل محمد المويلحي صاحب عيسى بـــن هشام . فانتقد حافظ عوض عنوان الكتاب كما ترجمته المجلة ،

وزاد انتقاده في ثقة الشيخ بكاتب هذه السطور ، لانني ترجمت عنوان الكتاب «بالاكاذيب المتفق عليها» واقترح الشيخ البرقوقي ان « نسجعه » ليوافق أسماء الكتب فجعلناه « الاكاذيب المقررة في المدنية الحاضرة » .. فلما جاءه النقد من بعيد ــ وهوعلىعادته مريع التصديق ــ قال لي انه لن يرفض رأيي مطاوعة لــرأي السجعة بعد الان ..

ومسأل مصطفى صادق الرافعي فزاده انتقاده ثقة بي كذلك، لانه قال لي انه يسمع حكمه في البيان العربي ويرفضه فيما عداه ولا سيما كتابه«الفكر ومباحث العصر الحديث» ،وقدأنحى الرافعي على « نوردو » وعلى كاتب هذه السطور ، فحسنتهذه الشهادة المعكوسة عند الشيخ ..

ولقي صاحبنا المويلحي فسأله عني قائلا :

ــ بماذا يشتغل هذا الشاب ؟

قال الشيخ : بلا شيء !

قال : اتراه يعيش على شيء من ميراث جده العقاد ؟

فأفهمه الشيخ انني لا انتمي الى « السيد حسن موسى العقاد » المشهور ، وانه لا قرابة بيني وبين ذلك البيت ، وانني اعيش بالقليل مما يردني من أهلي ، وبالقليل من اجور المقالات او فصول الكتب المترجمة .. فقال المويلحي مبتسما : « انه أولى بالوظيفة من اكثر « التنابلة » الذين عندنا في هذا الديوان . » فطلبتها ، فأجيب طلبي لساعته بغير امتحان ..

وقدكان ديــوان الاوقاف في تلك الحقبة مجمع الادبــاء والشعراء من شيوخ وشبان .. كان فيه محمد المويلحي ، واحمد الازهري صاحب مجلة الازهر ، واحمد الكاشف ، وعبد الحليم المصري ، وعبد العزيز البشري ، وحسين الجمل : وحسن الدرمس ، وعلي شوقي ، ومحمود عماد ، ومصطفى الماحــي ،

وغيرهم من « المحررين » المغمورين .. وكان عملي الاول فيه مساعدا لكاتب المجلس الاعلى بقلم السكرتارية ، وهي وظيفة من أخطر وظائف الديوان في ذلك الحين .

سمسرة الخديو

وكأنما هي قسمة واحدة تلقاني على صور متعددة في جهات مختلفة .. فكلما اشتغلت بعمل من الاعمال وجدته في ابان ازمة من ازماته أو مرحلة من مراحل الاضطراب في تاريخه ، وأول هذه الاعمال عملي في وظائف الحكومة باقليمـــي قنا والشرقية ..

ففي هذين الاقليمين بدأت أول حركة من حركات الشكاية الاجماعية بين الموظفين بعد الاحتلال ، ولم تزل قائمة حتى انتهت بزيادة الحد الادنى لمرتبات الوظائف الى خمسة جنيهات والشروع في تعديل نظام العلاوات وقانون المعاشات .

واشتغلت بالتحرير الصحفي يوم كانت الصحافة المصرية في أحرج أوقاتهـــا بعد قيام الاحزاب وقبـــل اعادة قانـــون المطبوعات ..

ثم هأنذا اشتغل بديوان الاوقاف ، وهو ميدان المعركـــة الحامية بين السلطة الشرعية والسلطة الفعلية وطلاب الاصلاح . ولست بآسف عـلى هذه القسمة التي تسوقني الى الاعمال في ابان أزماتها ومراحل اضطرابها ، فقد كانـــت أنفع لتربيتـــي النفسية من فترات الهدوء والاستقرار .. وكان عملي في ديوان الاوقاف بين سنتي ١٩١٢ و ١٩١٤ أكثر من عملي في وظيفـــة من وظائف الارتزاق ، فقد كنت أجهل الكثير من حقائق بلدي ومن أسرار شؤونه العامة لو لم أقض تينك السنتين في ذلـــك الديوان ..

كانت يد الخديو مطلقة في وظائفه وامواله .. وكان مع الاسف الشديد يحتكرها لاشباع نهمه من المال والدسيسة ، ولا يأبى ان يسف الى الاختلاس من اموال الصدقات واستباحة السمسرة على صفقات الاستبدال .. وشاعت في تلك الايام قصة أرض المطاعنة التي أخذ فيها الخديو لنفسه ستين ألف جنيه باسم «العمولة أو الوساطة» وعاد بعدها فتعقب كل من عارضوه ووقفوا له في طريقه من الموظفين النزهاء ، فعاقبهم على الامانة واليقظة بالفصل والاهمال ..

وكان المحتلون يحاربون الخديو على تقليد النزاع بين السلطتين ، ويأبون عليه أن يستأثر بهذه الحكومة الصغيرة في داخل الحكومة الكبيرة ، ويعلمون انهم لا يستطيعون المساس بالمعاهد الدينية فيرجعون سرا الى الاستانة لجس النبض في دار الخلافة والتماس الفتوى من شيخ الاسلام بجواز الرقابة الرسمية على نظار الاوقاف ، وعلى ناظرهم الكبير وهو أمير البلاد ..

وكان طلاب الاصلاح يهتمون بأمر واحد ، وهو القضاء على المفاسد في ديوان يرتبط به نظام المعاهد الدينية اشد الارتباط .. فلا أمل في اصلاح هذه المعاهد ، ولا في اصلاح القضاء الشرعي معها ، ولا في اصلاح الازهر بفروعه ما لم تكن ادارة الاوقاف خاضعة للرقابة العلنية خارجة من تلك العزلة التي جعلتها أشبه شيء بضيعة من ضياع الخاصة الخديوية ، مع الفارق بين ضيعة يغار عليها مالكها وضيعة يبددها من يملك الامر فيها ..

مقالات بلا توقيع !

وبين هذا المضطرب عملت في الديوان ..والقلم الذيعملت فيه هو حومة المعركة في ميدانها ، لانه القلم الذي تمر بـــه مذكرات مجلس الادارة ومذكرات المجلس الاعلى ، وهذه هـي المذكرات التي تعرض فيها مسائل الموظفين وقضايا الصفقات ..

والسنة التي عملت فيها بالديوان هي السنة التي انتهت بتحويلـه مـن ديوان الى نظارة ، وصدور الامـر بعـرض ميزانيته على مجلس النظارة والجمعية التشريعية ..

ولقد كانت فضائح الاوقاف سرا مباحا لكل من يميل اليه بأذنيه .. فليس فيها من باب أولى سر يخفى على موظف في قلم السكرتارية يتصل كل يوم بموظفي الديوان ممن يشتغلـون بمسائل المذكرات التي تعرض على مجلس الادارة أو المجلـس الاعلى ..

وقد هالني ما علمت من فضائح الديوان بعد فترة وجيزة ، وان كنت لا أجهل قبل ذلك انها شيء يهول ..

وكنت اتكلم ولا اتحفظ ..

وربما كتبت الى الصحف بعض المقترحات لاصلاح الديوان بغير توقيع ، وربما تحدثت بها في المجالس التي أختلف اليها ، وكلها في بيئات الادباء المدرسين بمدارس العباسية الاهليـة حيث كنت اقيم ..

وكان الاستاذ حسين روحي الايراني صاحب احدى المدارس الكبيرة في العباسية البحرية ، وكان يعمل في ساعات مـن اليوم بالترجمة في دار الوكالة البريطانية ، فجاءني عصاري ذات يوم يقول معتذرا :

ـ ارجو ان تغتفر لي غلطة وقعت فيها بغير اذنك ! ..

قلت : خيرا .. فما أظن انني عرضة منك لغلطة تضير ..

قال : انهم سألوني اليوم عن مقترحاتك في الصحف وانا اترجمها لهم فقلت انني اعرف كاتبها ، وذكرت لهم انني اراك في كثير من الايام .. فهل يغضبك ما فعلت ؟

قلت : انني كما تعلم كنت مستعدا ان اكتب في الصحف بتوقيعي لو كنت أستطيع ذلك مرتين دون أن يبادروني بالفصل من الوظيفة ، فلا لوم عليك ولا حرج علي ..

قال : ليس هذا كل ما في المسألة .. فان السكرتير الشرقي يريد ان يلقاك .. فهل لديك مانع ؟

قلت : لا مانع لديه فما المانع لدي ..

قالوا : لا يزال صغيرا

وبعد يومين لقيت مستر ستورز مع الاستاذ حسين روحي ، فاستهل الحديث بالكلام على الادب وعلى برنارد شو .. ثم استطرد الى الكلام على الصحافة ، واكثر من الكلام على صحيفة « المؤيد » وقرائها ومحرريها ، ثم مضى مستطردا الى الكلام على الاوقاف فسألني عن صفقة منوية على ارض يملكها عين مشهور من اعيان القليوبية ، وعجبت لعلمه بخبرها وهي لا تزال في دور التحضير الاول ولما تصل مذكرة من مذكراتها الى قلم السكرتارية ..

ثم بدرت منه كلمة جافية لا ادري كيف جرى بها لسانه ، الا ان يكون قد تعود الجهر بأمثالها ولم يتعود من أحد ان ينكرها عليه ، فقال : الا ترى ان حرمان الاوقاف من الرقابة الاجنبية هي علة هذه المفاسد التي شاعت فيها .. ؟!

فصدمتني هذه الكلمة النابية ، ولم البث ان اجبتها بحدة

ظاهرة ، فقلت : ان المجلس البلدي الاسكندري يتمتع برقابة اجنبية من كل جنس وملة ، ولا اظنكم تحسبونه مثلا من امثلة النزاهة والنظام ..

فتنبه وسكت ، ثم استأنف الحديث ليختمه بعبارة صالحة للختام ، واستأذن هنيهة ثم عاد قائلا : ان اللورد ـ يعني كتشنر ـ كان يسره ان يراك لولا انه يخرج الساعة الى موعد سريع ..

فنهضت وودعت ، وصادفني اللورد على باب المكتب فأومأ بالتحية ومضى في طريقه ، وجاءني الاستاذ حسين روحي في المساء يقول ويضحك : ماذا صنعت يا أخانا .. ان الرجل اجفل من جوابك الصارم ولكنه قال : ان حديثك كان شائقا جدا ..

***

وأراد الاستاذ روحي ان يصرف الموضوع ، فقال ان مسألة « المؤيد » كانت عندهم أهم من مسألة الاوقاف ويلوح لي انهم كانوا يودون لو توليت تحريره ، وكانوا يظنونك اكبر منا من عشرة العشرين ولكنهم حسبوا عليك جريرة الشباب وقالوا : انه لا يزال صغيرا .

وهكذا عدنا الى حديث الصحافة من طريق ديوان الاوقاف ، وهكذا سنعود اليه بعد قليل ..

* * *

بين الوظيفة والصحافة

معركة الأوقاف

عملت في ديوان الاوقاف .. وكان عملي في مكاتب السكرتارية اقرب المكاتب الى دخائل الديوان ، ولكنني أعترف اليوم بأن ما علمته في أيام خدمتي بالديوان منخفايا المعركة التي دارت حوله لم يكن غير الفقاقيع التي تطفو على وجه الماء ..

كانت معركة حامية تدور وقائعها بين القاهرة ولندن والاستانة ، وتشترك فيها حاشية الخديوي ودار الوكالة البريطانيةوحزب الامير حليم واعوانه من رجال تركيا الفتاة ، وأناس متفرقون في القاهرة من طلاب الاصلاح .

وكان الخديوي يستميت في التشبث بموارد الديوان ولا يقبل بحال من الاحوال ان تسحب ميزانيته من ميزانية الدولة ، وحجته في ذلك انه صاحب الولاية على الاوقاف بحكم الشرع وبنصوص الواقفين في كثير من الاحوال ..

وكان المحتلون يحاربون السيطرة الخديوية على الاوقاف كما يحاربونها في كل جهة أخرى .. ويريدون في حربهم لهذه السيطرة في ديوان الاوقاف — بصفة خاصة — أن يحولوا بين الخديوي وبين استخدام أموال الاوقاف في حماية سلطانه ونشر دعوته ، سواء كانت مما يخصه ويخص العرش ، أو كانت

مما يعم الحركة الوطنية لمقاومة الاحتلال ..

وكان طلاب الاصلاح في حرج شديـــد لانهم يريدون ان يقطعوا دابر الفساد في الديوان وما يتصل بهمن المعاهد الدينية، ولكنهم يكرهون ان يتوسلوا الى ذلك بمعونة المحتلين ..

ثم حدثت في السنة الاخيرة التي عملت فيها بالديـــوان حوادث مختلفة بين القاهرة والاستانة غيرت وجوه المسألـــة ، ويسرت ما لم يكن ميسورا قبل ذلك بسنة واحدة . .

الخديو بين نارين

نشأت الجمعية التشريعية بمصر فوجد طلاب الاصلاح منبرا « قوميا » ينادون من فوقه بوجوب الاشراف على ميزانية الدولة كلها ، ومنها ميزانية الاوقاف ..

وتولى الحكم في الاستانة اناس يكرهون الخديوي لانهـم أصدقاء أسرة حليم المنافسة لاسرة اسماعيل ، ولانهم يذكرون للخديوي مصادرته لجماعة تركيا الفتاة تمهيدا للمطالبة بجزيرة « طشيوز » التي كانت في حوزة محمد علي الكبير ، ثم استولى عليها السلطان عبد الحميد الثاني مدعيا انها كانت هبة شخصية لرأس الاسرة ، ولم تكن من أملاكه التي تنتقل بالميراث ..

واستطاع المحتلون في ذلك العهـد أن يكسبوا لهـم عضدا قويا بدار الخلافة ، وان يحصلوا على وعد من أقطاب الحكومـــة التركية بمساعدتهم على تقييد سيطرة الخديوي في الديوان ولو اقتضى الامر خلعه واسناد الامارة الى أمير في بيت حليم ..

وتم اخيرا تحويل الاوقاف من ديوان الى نظارة او وزارة ، وكان اسم الوزارات يومئذ ــ وهو النظارات ــ مما يسوغ ادماج

الاوقاف في عدادها ، لاشتهـار الاشراف على الوقف باسم النظارة ..

أول وزير

واختير للنظارة رجل من انصار الخديو ترضية له وتغطية لخذلانه ، فكان ناظرها الاول في عهدها الجديد « أحمد حشمت باشا » رحمه الله .. وقد كان قبل دخوله الوزارة وكيلا لحزب القصر بين الاحزاب الثلاثة ، وهو حزب الاصلاح على المبادىء الدستورية ..

وبعد ايام قليلة من قيام الوزير بعمله في الوزارة ، جاءتني بطاقة صغيرة من بطاقات الدعوة الى مكتبة، محدود فيهاللمقابلة ساعة قبيل الظهر من ذلك النهار .

وكدت أجزم بالباعث الى دعوتي لمقابلة الوزير، وأنا موظف في أصغر درجات الوظائف في سلك الخدمة في الديوان .

وماذا يكون الباعث الا انني من المشهورين بادارة الديوان، وانني ممن تتجه المظنة اليهم في الكتابة عنه بالصحف والعلم بأسراره من المذكرات وكتابة المذكرات ؟

ليس فيها قولان كما هو ظاهر ..

ولكنه في الواقع كان تخمينا نادرا يدل على وجوب التردد في قبول التخمينات مهما تبلغ من الرجاحة والقوة ، فان الوزير لم يتعرض لمسلكي في قضية الديوان بغير التلميح من بعيد .. وانما خاطبني في أمر مقالة من مقالاتي نشرتها في الصحف وذيلتها بتوقيعي الصريح ، وهي مقالة كتبتها تأبينا للشيخ علي يوسف صاحب المؤيد رحمه الله ، ونشرتها صحيفة «عكاظ» الاسبوعية

التي كنا نخصها برسائلنا النقدية أنا ، والمازني ، وشكري وبعض الزملاء ..

ومن أضاحيك المصادفة ان الوزير كان صديقا للشيخ علي يوسف ، وكان وكيلا لحزبه وخصما لكثير من خصومه .. وكان من أشياعه القليلين الذين مشوا فيجنازته وأشرت اليهم في بعض ما ذكرته عن وفاء المشيعين له بعد الوفاة .

من فصول الشيطنة !

وكان الشيخ علي يوسف قد ترك « المؤيد » وهجر الحياة العامة ، واصطلحت عليه العلل والنكبات .. وقضى نحبه غير مذكور من أقرب المقربين اليه ، فلم يسر في جنازته منهم غير آحاد معدودين ، بينهم وزير الاوقاف ..

وقلت في تأبينه ان الرجل كان « نفاعا ضرارا » ولكنه كان ينفع ويضر لتمكين نفوذه واستصلاح الاعوان في مشكلاته وقضاياه .. فمن وصلت اليه يد من اياديه لم يكافئه عليها بالمحبة وخلوص النية ، ولكنه يحس انه مدين مطالب بدين يوفيه في يوم من الايام .. فلا جرم يشيعونه غير محزونين ويمضون في جنازته متحدثين متشاغلين ، لانهم في حالة نفسية أشبه بحالة المدين الذي أعفاه موت الدائن من الوفاء له بما عليه ..

خاطبني الوزير بلهجة هادئة كانها لهجة الاستاذ الذي يلوم تلميذه على فصل من فصول الشيطنة لا يبلغ عنده مبلغ السخط الشديد ولا يخلو من بعض الرضى . فقال بعد الاشارة الى مقال التأبين : « كان أحرى بقلمك الناشيء أن يتخذ له في تأبين الموتى منهجا أطيب من هذا المنهج .

وكان عليك الا تنسى : في هـذا المقام قولـه عليه الصلاة والسلام :

« اذكروا محاسن موتاكم .. »

فاجتهدت ان يكون جوابي في لهجة توائم لهجة الوزيـر ، وقلت ما معناه : «انني لو علمت للشيخ حسنات غير التي ذكرتها لما فاتني ان اذكرها .. »

فاقتضب الحديث ، مصطنعا الجد ، وقال :

«على كل حال ، اجعل لقلمك مستقبلا كمستقبل الشيـخ ان استطعت ، واستخدمه في عملك ، ودع عنك فضول الاقاويل والاحاديث » .

شبح المؤيد !

المؤيد .. المؤيد .. المؤيد ..

المؤيد .. المؤيد .. المؤيد ..

ما هذا المؤيد الذي يلوح لي انني القى شبحا منه أينمـا ذهبت هذه الايام ، حيث اريد وحيث لا أريد ..

قبل اسابيع – على ما أذكر – جاءتني تذكرة مطبوعـة كتذاكر الدعوة الى المحافل والمجتمعات يقول كاتبها «سيد كامل» انه يتصدى لتحرير المؤيد ويود لو يستعين بالاقلام الفتية في تجديد حياة « شيخ الصحافة » .. او كلاما من هذا القبيل ..

فمن يكون « سيد كامل » هذا ؟ ..

انني لم اكن اعلم عنه شيئا ، وأشفقت ان يكون مرشحا للقيام على تحرير المؤيد من قبل الانجليز .. لانني تبينت مـن حديثي مع مستر «ستورز» انهم يهتمون بهذه الصحيفة ويودون لو يبعثونها باشرافهم وتحت رعايتهم ، وقال لي الاستاذ حسين

روحي انهم كانوا يظنون انني « أصلح » لهذه المهمة ولكنني خيبت رجاءهم ..

مولاه !

فهل « سيد كامل » هذا ممن حققوا عندهم هذا الرجاء ، فاختاروه لتوجيه هذه الصحيفة ، ولو من بعيد ؟

خطر لي هذا الخاطر لاول وهلة .. ولم يفارقني حتى علمت المزيد من تاريخ « الدكتور سيد كامل » فعلمت انه افضل واصدق في الوطنية وفي الولاء لمولاه من أن يصلح لتلك المهمة من بعيد او قريب .. وقد كان مولاه الذي تولى تعليمه في فرنسا على حسابه بتوصية منصاحب المؤيد هو الخديو عباس الثاني ،وهو الذي رشحه للقيام على تحرير المؤيد بعد اعتزال الشيخ علي يوسف لعمله في الصحافة .. عسى ان يحتفظ بأمانة التراث الموكول اليه من ولي نعمته ومن استاذه الموصي عليه ..

وها هو ذا وزير جديد يفتتح خطابه الاول لي بحديث عن المؤيد وصاحبه وأصحابه ، فما هو شأن المؤيد معنا أو ما هو شأننا مع المؤيد ؟ أهو « لحظ الغيب » يرانا على مقربة من تلك الصحيفة من حيث لا نراه ؟ ..

يحق لي — لو أردت — أن أصدق هذه الهواتف الغيبية ، فانها لم تنته عند هذه النهاية ، ولم تزل تلاحقني بخبر من هنا واشارة من هناك حتى عادت بي الى العمل الصحفي محررا بالمؤيد .. وكان السبب المباشر لعودتي اليه قصيدة نشرها المؤيد .. ونظمها شاعر من شعراء السكرتيرية بنظارة الاوقاف ، وهو المرحوم عبد الحليم المصري الذي كان يتطلع الى مكان « شوقي » في القصر الخديوي ، ووصل اليه ولكن بعد زوال الخديوية ..

فضيحة الادب

نظم عبد الحليم قصيدة من أحسن قصائده عن« الخصيب » أمير مصر في أيام الدولة العباسية ، وقال فيها عن شاعر النيل:

وشاعر النيل دون الخلق يشربه
بينا يشق الصدى منا الحشاشات

وما كان يعني في الحقيقة غير الخديو عباس وشاعره أحمد شوقي ، وما كان بالقارىء من حاجة الى البراعة لفهم هذه المواربة المكشوفة .. فقد فهمها كل قراء المؤيد من الادباء ، ولم يخف مقصدها على أحد غير محرر المؤيد الاول في تلك الاونة : احمد حافظ عوض الذي ترك منصبه في قصر عابدين ليشرف على تحرير هذه الصحيفة في أدق مرحلة من مراحلها ، وخاتمتها ..

أولا تنشر تلك القصيدة عن الخديو وشاعره الا في المؤيد دون غيره من الصحف اليومية والاسبوعية ؟..

فضيحة من فضائح الادب والصحافة لم ينم لها حافظ عوض ، ولم ينم لها شوقي ، ولم تنم لها نظارة الاوقاف .. وأولهم ناظرها في ذلك الحين ــ محمد محب باشا ــ وقد كان متهما في الحاشية الخديوية بمحاباة الانجليز ..

وحضر « حافظ عوض » ذات يوم الى ديوان الوزارة ، ولقيته في مكتب الوزير ولا أدري على التحقيق هل دعاني أحدالى المكتب للقائه ، أو ذهبت الى المكتب بغير دعوة من أحد لسبب من أسباب العمل في مذكرات المجلسين : مجلس الادارة ، والمجلس الاعلى ..

ولكنني لقيت حافظا يبتدرني بالسؤال والسلام ، ويقول

لي مازحا : ماذا تصنع هنا ؟ ان مكتبك مستعد بدار المؤيد ،وان عملك الذي خلقت له ان تكتب المقالات لا أن تلخص المحاضر والمذكرات .

ثم قال : ان صفحة الادب في المؤيد تحتاج الى أديب يتفرغ لها ، ولا ينظر في عمل من اعمال الصحيفة غير كتابتها او الاشراف على ما يكتب فيها ..

قال : ولو ان وقتي كان يتسع للتفرغ لهذه الصفحة لما استغفلني هذا « الولد » ودس علينا تلك القصيدة المسمومة التي جعلتنا مسخرية المجالس الادبية .

ولم أتردد في قبول الدعوة الى تحرير الصفحة الادبية في شيخ الصحافة العربية ، فانني لم اكن أطمح في الرابعة والعشرين الى عمل أهم من هذا العمل في الصحافة .. فان كانت لدي بقية من الرغبة في صناعة القلم من طريق الصحف فلا انتظار اذن لما هو اولى بالقبول من هذه الدعوة بعد ان جاءتني بغير عناء وبغير طلب .. ولا محل للتردد الا أن يكون عملي في نظارة الاوقاف أحب الي وأجدى علي من العمل في الصحافة ، ولم يكن عملي في النظارة مرضياً لي في حياتي الادبية ولا في حياتي المعيشية ، فعلام التردد ؟ وفيم البقاء ؟ ..

العودة الى الصحافة

وامتلأ مكتبي « الخالي » بدار المؤيد قبل ان ينقضي الاسبوع .. ولم يمض أيام حتى عاودني الطالع القديم : ذلك الطالع الذي تحدثت عنه في مذكرة سابقة من هذه المذكرات .. لا أدخل عملا الا وجدته في مرحلة من أدق مراحل تاريخه ، منذ عملت في الوظائف الحكومية ، الى أن عملت في الصحافة ، الى أن

عملت في ديوان الاوقاف ، الى ان عاودت العمل في الصحافة كرة أخرى !

ولا أطيل في شرح تلك المرحلة من حياة المؤيد ، فقد يغني القارىء عن شرحها انها وافقت الشهور الاخيرة من تاريخ الخديوية المصرية قبل الحرب العالمية الاولى ، وانني لم أمسلخ في المؤيد شهرا او شهرين حتى ماجت الدار بالحركة التي شغلت رئيس التحرير عن الدار وعن صفحتها الادبيةوصفحاتها الاخرى ، وتركتني فيها بين دمائس القصور ودمائس الصحيفة التي لزمتها من مخلفاتها التقليدية !

كان الخديو يعلم ان لورد كتشنر يصر على خلعه ويرشح للخديوية أميرا من أمراء بيت حليم ، وكان يعلم ان كتشنر لن يغلبه بقوة غير قوة الخلافة في الاستانة او قوة الرأي العام في مصر ، وفي طليعتها قوة المعارضة من قبل الجمعية التشريعية .

فأما قوة الخلافة في الاستانة فقد احتاط لها الخديو بسفره في تلك السنة الى الاستانة ، وعدل عن زيارة المصائف الاوربية كعادته في السنوات الخالية ، ليبقى الى جوار الخليفة متأهبا لاحباط المؤامرة عليه .

الخديو يزور سعد زغلول !

واما قوة الرأي فقد احتاط لها برحلة شعبية في الوجه البحري تعمد فيها زيارة الاعيان في قصورهم وزيارة الفلاحين بين أكواخهم واستقبال الشعب حول سرادقات الاحتفال حيثما نزل بقرية من قراهم ، غير ممنوع منها أحد من الكبار او الصغار ولا من الرجال أو النساء . ولج به الحرص على ابراز صداقته للمعارضين في الجمعية التشريعية ، فجعل اسماءهم في

الصف الاول بين اسماء الاعيان الذين تقع قراهم على خط الرحلة ، ودعاهم الى مصاحبته في غير قراهم ، وأولهم سعد زغلول .

ولم يشأ الخديو أن يؤتمن على مراسلة « المؤيد » باخبار الرحلة احد أقل من رئيس تحريره فأخذ حافظ عوض في ركابه ، وجاءني حافظ الى مكتبي قبل سفره يمهد للطلب الذي يريده مني : وهو تنقيح أخبار المراسلين بالصبغة الادبية وانتظار الرسائل منه لمراجعتها قبل اثباتها في الصحيفة بالصيغة الاخيرة ،وهي الصيغة التي ستظهر بها فيالكتاب الذهبي.وكرر كلامه عن الرحلة وعن الصيغة التي ستظهر بها بعد ذلك في سجل شبيه بالسجلات الرسمية ، وانصرف وهو يقول :

ـ انه عمل أدبي خالد على أية حال ، وانه يستحق أن أؤجل من أجله صفحة الادب الى حين .

الكتاب الذهبي !

وانهالت الرسائل كالمطر المنهمر من المراسلين واعيان الاقاليم وكلمن قال له الخديو كلمة أو قال كلمة للخديو ،وضاق الوقت عن ملاحقتها بالقراءة والترتيب فضلا عن التنقيح والتصحيح ، ثم انطوى الكتاب قبل أن تنفتح صفحة من صفحاته ، ولا يزال منطويا الى الان .

مشترك من مشتركيه الموعودين ضل طريقه الى حجرتي بدلا من حجرة المحرر الذي كان منوطا بتسلم الرسائل وتسليمها الي بقائمة مكتوبة لايداعها في ملفاتها الى حين الفراغ من تدوينها . فعلمت من خلال كلام المشترك الموعود انه اعطى المحرر المنوط بتسلم الرسائل عشرة جنيهات باسمي ، وانه حضر في ذلك اليوم ومعه شيء زهيد على سبيل الهدية : ساعة

وسلسلة ذهبية .. ولي بعدها هدية على « قد المقام » بعد ظهور الكتاب .

وتركت « الملفات » في أماكنها ريثما يعود رئيس التحرير من الرحلة ، وعاد رئيس التحرير فاستعفيته من العمل في الكتاب وابلغته ما سمعت ، وقلت له ان محرري «المؤيد» احرار فيما يأخذونه ويدعونه ، ولكنهم لا يملكون ان يزجوا باسمي في معاملاتهم ومبايعاتهم ، ويحق لي اذا فعلوا ذلك ان أصحح ظنون الناس ، وسأترك له ـ أي لرئيس التحرير ـ أن يختار طريقته لتصحيح هذه الظنون ..

فتجهم رئيس التحرير وتوعد المحرر المسؤول بالويل والثبور . ووعدني أن يكتب غدا في المؤيد كلمة تزيل اللبس وتبعد الشبهة عني في أمر الكتاب ورسائله واشتراكاته ، ورجاني ان أغض النظر عن المسألة ولا أنقطع عن العمل في الكتاب .

ويعلم أصحاب الاستاذ حافظ رحمه الله انه كانت له مواطن ضعف في تحياته ومقابلاته ، ومنها انه يتشبه بالامير في مناورات الرضى والغضب والتقريب والاقصاء ، وانه يجعل من زمرة عمله بلاطا صغيرا تكثر فيه مناوبات التشجيع والاعراض ولمحات الابتسام والعبوس ، وقد شهدنا في مساء ذلك اليوم تمثيلية وجيزة من هذه التمثيليات ، كانت هي فصلها الاخير !

اخر عهدي بالصحافة !

في مساء ذلك اليوم زارني الاستاذ المازني والاستاذ محمود سعيد الذي أصبح بعد لك مستشارا في المحاكم الاهلية . ونزلنا الى باب الدار ننتظر مركبة خالية تمر بنا لنستقلها الى

ندوتنا المعهودة عند دار القضاء «في الوقت الحاضر» .. ولم نكد نادي المركبة العابرة حتى مر بنا الاستاذ حافظ عوض يحيينا بيمناه ويضع يسراه في ابط المحرر « المتهم » وهو مقبل عليه بالضحك والحديث ، ثم صدر المؤيد في اليوم التالي وليس فيه كلمة عن الاشتراكات ولا عن تصحيح الظنون .

وكان هذا اخر عهدي بالمؤيد واخر عهدي بالصحافة قبل الحرب العالمية الاولى ، لانها نشبت قبل نهاية الصيف !

يجوز ..

أغلب الظن عندي ان قصة خروجي من نظارة الاوقاف ثم من صحيفة المؤيد كانت « قضاء وقدرا » كما يقولون في لغة التحقيقات القانونية .

أما العارفون بتحقيقات الحواشي الملكية فقد كان لهم رأي اخر في القصة بحذافيرها ، وكان من رأيهم ان الخطة وضعت يومئذ في القصر لفصل كل موظف بالاوقاف عرفت عنه المعارضة في نظام الديوان ، لا فرق بين أكبر الموظفين وأصغر الموظفين !

وكان أكبر المعارضين من الموظفين لصفقات السمسرة والاستبدال عبد الرحمن فهمي « بك » وكيل النظارة ، فخرج محالا الى المعاش .

وكنت انا أصغر المعارضين من الموظفين ولا حيلة لهم في فصلي بالاحالة الى المعاش ، فليكن فصلي « بصنارة » الصحافة، ثم بمائة سبب ميسور بعد الوصول الى البر .. غير الامين !

و « يجوز » هي كل ما اقوله في التعقيب على هذه الفكرة القريبة البعيدة ، ولولا انني استقلت من النظارة ورفضت استقالتي قبل ذلك ، لرجحت التدبير بفعل فاعل على القناعة « بالقضاء والقدر » في تعبير العارفين بالحواشي الملكية !

في الحرب العالمية الأولى

ساعات بين الكتب

أقمت في القاهرة أياما بعد استقالتي من تحرير « المؤيد » على نية السفر الى الصعيد الاعلى ، وقد منيت نفسي موسما كاملا من المواسم الجميلة في مدينة الشتاء ، ورسمت برنامجي لذلك الموسم الموعود بين المطالعة والتأليف والرياضة والبحث عن التاريخ الطبيعي ومضامين الاثار في أسوان، وهي غنية بالمضامين المعلومة والمجهولة ، من ايام الفراعنة الى أيام المماليك الى ايام الدولة العثمانية ..

وأعددت العدة للكتاب الذي نويت تأليفه باسم « ساعات بين الكتب » وجعلت عنوانه دليلا على موضوعه أو موضوعاته ، فهو كتاب أسطر فيه خلاصة ما قرأت وزبدة التعليقات التي وقعت في خاطري وأطلعت عليها أثناء القراءة ، أو هو كتاب عن الكتب اردت به ان أصل بين عالم الكتب وعالم الحياة وبين آراء المؤلفين وآراء القراء ، كما تبدو لي من النظر والمراجعة والاحاديث .

وكان الموسم خصبا حقا بثمرات التأليف ، لانني انتهيت من كتاب « ساعات بين الكتب » في نحو خمسمائة صفحة ، وأودعته ثمرة الاطلاع والتأمل في أهم مذاهب الفكر الحديث ،

وأولها مذهب داروين ومذهب نيتشة في السوبرمان .. وهذا الكتاب غير الكتاب الذي ظهر بعد ذلك باسمه واعيد طبعه مرات، لان « ساعات بين الكتب » التي كتبتها في أسوان ضاعت مرتين ولم يبق منها غير خمسين أو مئتين صفحة .

الانسان الثاني

وفرغت من كتاب غير الساعات ، عن المرأة ، سميته « الانسان الثاني » ولم يبق منه كذلك غير صفحات .

وأتممت رسالتي « مجمع الاحياء » تلخيصا للآراء في فلسفة النشوء وفلسفة القوة وفلسفة الفطرة التي تهذبها الرياضة النفسية والاجتماعية ، وهي الكتاب الوحيد الذي تم ونشرته تاما بعد تأليفه بفترة وجيزة ..

ونظمت في هذا الموسم الاسواني أكثر من نصف قصائد الجزء الاول من الديوان ، ومنها قصيدة دالية مطولة نبذتها بعد ذلك لانها تعبر عن دفعة من دفعات الفكر لم يبق لها في نفسي سند سليم ولا مسوغ مقبول ..

أما الكتابة الصحفية ، فقد ذهبت الى أسوان وانا أحسبني في اجازة منها الى موعد غير مسمى .. وخيل الي أنها ستكون أقل الشواغل شغلا لي حتى في الاطلاع عليها والعناية بأخبارها، فان عاودني الحنين اليها فلتكن عودتي اليها بقصيدة من الشعر ، أو مقالة في حكم القصيدة الشعرية ، توحي بها لمحة من لمحات الخاطر أو عارض من عوارض الشعور ..

وتقدرون فتضحك الاقدار ..

وقدرت ان الكتابة الصحفية لن تشغلني قارئا ولا كاتبا خلال مقامي في أسوان ، الا انها تسلية من قبيل تزجية الفراغ،

فاذا بمقالة واحدة كتبتها ـ من هذا القبيل ـ تشغلني أضعاف شغلي بمقالات الصحف سنوات في أحرج أيام القلاقل والقضايا والازمات ، مع انها قرئت مخطوطة قبل أن تقرأ مطبوعة ، ولم تزد نسخها المتداولة أولا على عدد أصابع اليدين ..

تلك هي مقالة « نادي العجول » ، كدت أذهب من جرائها الى جزيرة مالطة وأنا أحوج الى المقام بأسوان أو في جو القطر من المشتى الى المصيف .

« شهوة » و « شبهة » !

أدركتني الحرب العالمية الاولى وأنا في أسوان ، وأحس الناس بوطأة الاحكام العرفية في هذا البلد النائي على طرف الصعيد الاعلى قبل أن يحسوا بها في سائر البلاد المصرية ، لان أسوان على ملتقى الطريق بين مصر والسودان وملتقى الطريق بين النيل والبحر الاحمر من جانب الصحراء ، ومرجع الاحكام العرفية فيها الى رئيس اقليمي بعيد من الرقابة مطلق التصرف في الاوقات التي تشغل الحكومة المركزية عن تفصيلات الشؤون الادارية في الاقاليم .. وقد كانت شهوة الطغيان والحجر على الحريات قد ملكت نفوس الحاكمين واذنابهم من المسلطين على الرقاب تحت حمايتهم ، بعد اشتداد الحركة الوطنية وتتابع القوانين والاوامر المقيدة لحرية المحكومين ، فلما تقررت الاحكام العرفية بكل قسوتها وصرامتها بعد شيوع العمل بالقوانين المقيدة للحريات ، أوشكت الرغبة في الاستبداد أن تصبح هوسا في نفوس بعض « الحكام » .. ولا سيما الحكام الذين بدا لهم أن الفرصة سانحة لاستغلال هذا السلطان المطلق طمعا في الكسب وشفاء للضغائن والاهواء . وماذا يمنع الرشوة أن ترفع

رأسها وتصيح بين الزوايا وفوق الجدران اذا كان أداء الرشوة هو البديل الوحيد من النفي والاعتقال بغير تحقيق ؟ .. وماذا يفيد التحقيق اذا كانت « شبهة » الحركة الوطنية كافية لاعتبار « المتهم » من ذوي الخطر والسابقة المحذورة ؟ وكانت هـــذه الشبهة لاصقة بالاكثرين من المصريين ؟ ..

لقد بلغ الطغيان بحاكم من الحكام في أسوان انه أراد أن يقضي يوما مع أسرته في الجزيرة المغربية التي يقصدها بعض الناس للرياضة في أيام الاجازات ، فارسل المنادي « الرسمي » يطوف أرجاء المدينة ، وينذر مـــن تحدثـه نفسه بالنـــزول في الجزيرة ان يوطن نفسه على السيف والنار وخراب الديار ..

وشاعت سيئات الحرب العالمية على أسوئها في اقليم أسوان الامن الوديع ! تجنيد اجباري لفرقة العمال واعتقال متكـــرر لشبهة ولغير شبهة ، واتاوات تفرض لعلة من العلل المخترعة ، تبرعا للصليب الاحمـــر ، أو ترفيها عـــن المرضى والجرحى أو مساعدة على مشروع كائنا ما كـــان من مختلف المشروعـــات ، وأصبح كل طلب انذارا بالتهمة المحكوم فيها بغير استئناف ، أو انذارا بالسداد في غير تردد ولا مساومة .

نادي العجـــول !

حدث هذا في بلدي وبين أهلي وعشيرتي وأنا أنظر اليـــه بعيني وأستمع الى أخباره بأذني وأحس كل مظلمة من مظالمـــه باحساس قريب واحساس انسان ..

حدث هذا وأنا في الخامسة والعشرين .

وحدث هذا وأنا اقرأ الشعر فلا أزدري أبا نواس لقول من أقوال المجون كما كنت أزدريه لقوله في الحكمة :

خل جنبيك لرام وامض عنه بسلام

مت بداء الصمت خير لك من داء الكلام

لا يا أبا علي ، غفر الله حكمتك ومجونك ، فان كان موت يا صاح فما باله يكون بداء الصمت ؟ ولم لا يكون بداء الكلام ... ؟!

وتكلمت باللسان ، وتكلمت بالقلم كاتبا الى وزير الداخلية والى السلطان .

وتكلمت باللسان ، وتكلمت بالقلم كاتبا الى وزير الداخلية الاصح قصيدة منثورة سميتها « نادي العجول » ..

نادي العجول هذا كان « ناديا » للسادة الحاكمين ومسراة القوم في المدينة « فتحه » الرؤساء بكل معنى « الفتح » ... لانه كان أشبه شيء بالغزوة في طلب الاسلاب ، من طريق المساومات والالعاب .

وكانت له سمعة سيئة غير سمعة المقامرة ، وكان الحضور فيه مفروضا على بعض الناس في ساعات معلومة كي يخلو الجو لبعض الناس الاخرين في تلك الساعات ..

ولم يكن يسمى بطبيعة الحال بنادي العجول ، ولكنني سميته كذلك لان رؤساءه كلهم من أصحاب الوزن الثقيل ولانه « حظيرة » من حظائر « الدواب » الآدمية لا تخلو من القرون ..!

وأضعف الاعضاء نفوذا في ذلك النادي الموقر كان يملك الترخيص لي بالسفر على حساب الحكومة الى جزيرة مالطة ، غير مشكور مني ولا ملوم من احد على ذلك الاحسان بالاكراه ..

ولكنني كتبت المقال ، وتناسخه الادباء ، وارسلته الى الصحف ، وقرأه النادي كله في جلسة حافلة من جلساته ، وتقرر في تلك الجلسة مصير الفضولي الجسور الذي يجترىء

على ذوات القرون وعلى ذوات القناطير المقنطرة من الشحوم واللحوم ! ..

مقامة فكاهية

وأعود فأقول ان القافية هي التي قضت قضاءها في الموضوع ــ ولا قضاء لي فيه ولا مشيئة ــ فخرج الموضوع كما ينبغي أن يخرج مقامة فكاهية أو قصيدة منثورة ، يقرأه ، من خلا ذهنه من « الموضوع » فلا يشتم منها رائحة الحملة التي يجترىء بها القائل على الحكم العرفي المخيف ولا على الحكم القانوني اللطيف .. ويقرأها من امتلأ ذهنه « بالموضوع » فتغريه بحفظها وترديدها ، وهو يسأل الله السلامة من تلك العجول .

قال رئيس النادي في مقدمة المقامة : « ايها السادة .. ان العجل مدني بالطبع . ونحن معشر العجول قد ميزنا الله على بني آدم بضخامة الاجسام ، وصلابة القرون .. وقد غبر بهؤلاء الناس زمان كانوا يعرفون فيه بأسنا ويتمسحون باذيالنا ، حتى أيقنوا أن لن يقوى على حمل هذه الدنيا احد سوانا ، فعبدونا من فرط الاجلال .. وسبحوا لنا بالعشي والآصال ، وكانوا يحسدوننا على قروننا فدعوا أكبر أبطالهم وأشدهم بأسا وأرفعهم ذكرا ــ اعني الاسكندر المقدوني ــ بذي القرنين وما اسكندرهم هذا وما قرناه ؟ ان أصغر عجل فينا ليهشم رأسه اذا ناطحه ، ويجندله اذا واثبه او صارعه ، فالعجب لك أيتها العجول لم لا تذكرين ذلك المجد الخالد فتقام لك الصوامع والمعابد ، بدل النوادي والمعاهد .. »

وقضى حكم القافية قضاءه في قراءة « الموضوع » كما

قضاه في كتابته ، فأصبحت المقامة في مدى يومين كأنها بعض المحفوظات المقررة التي يؤدى فيها الامتحان بعد يومين آخرين ، وراح أولاد الحلال يتساءلون كلما عرض لهم من يعنونه بالسؤال : لم لا تذكرون ذلك المجد الخالد ، فتقام لكم الصوامع والمعابد ؟ ومنهم من كان يتخابث ويتجاهل ويخاطب العضو من الاعضاء التابعين غير المتحدثين ، نعني بهم زمرة الاعضاء المسوقين المسخرين، فيقول :أنت مدني بالطبع.. أنت أشجع من الاسكندر .. أنت يقام لك وزن .. أنت مخير على الآدميين ، الى أشباه هذه « التلقيحات » الرمزية التي كانت أصرح عند القائل والسامع من النداء الصريح .

وكانت المناوشات بيني وبين المدير سجالا قبل شيوع تلك الكلمة عن نادي العجول .. كنت أشكوه وأعزز الشكوى بالبينات ، ثم تستدعيه وزارة الداخلية فنقرأ في الصحف أنه قابل عظمة السلطان ثم يكشف هو بحماقته عن سر هذه المقابلة التي يستدعى لاجلها من أسوان ، فنعلم انه سمع فيها ما ليس يرضاه .

الرشوة والاتاوات !

وكانت هذه المناوشات تجري سجالا بين مرتجلة أو مدبرة حتى شاع في المدينة ، ثم في الاقليم ، ذلك المقال المنشور عن نادي العجول .. فاذا بالمناوشات التي كانت فصة مبعثرة الفصول تتركز وتنتهي الى مخرجها الذي تحكم به القافية مرة أخرى ، فلا مناص لواحد من اثنين ان يخرج من المدينة : المدير أو كاتب المقال عن نادي العجول ..

ويتبين من مجرى الحوادث أن المدير تعذر عليه نفيي لأنه

نفى قبلي ناظرا لمدرسة المواساة ، وكنت أنا ناظرها الثاني فأشفق القوم أن يقال انهم يضطهدون المدرسة الاسلامية الوحيدة في البلدة .. وكل ما استطاع المدير أن يقنعهم به هو ان يشدد علي الرقابة ويقيد اقامتي بالمدينة ، فلم أكترث لهذه الرقابة ولا لهذا التقييد ، لانني بطبيعتي كثير العكوف في المنزل قانع من الحركة بمشوار الرياضة في الخلاء او في النيل .

وفتقت الحيلة للمدير ان يصدمني بمفتش الداخلية الانجليزي ، فألقى إليه انني أتهمه بالرشوة وأذيع عنه أنه يقاسم الموظفين « أتاوات » السلطة على وظائف العمد والمشايخ و « تبرعات » الاعيان وصفقات التموين ، ولم يكذب المدير فيما ادعاه ، لانني كتبت في الواقع أقول وأعيد أن المفتش الانجليزي يقبل الرشوة ويفرضها على مرءوسيه ..

واستدعاني المفتش الى ديوان المديرية فقال فيما قال في حديث طويل باللغة الانجليزية : « لا يوجد انجليزي مرتش Corrupt في الحرب ولا في السلم » ... فبدرت مني كلمة لا أدري ماذا كنت أقول ــ سواها ــ لو قصدتها عن روية .. وقلت : ان الانجليز جديرون بالتهنئة لانهم قد تغيروا كثيرا بعد حرب الترنسفال ..

والمعروف أن حرب الترنسفال قد كشفت عن فضيحة من أشنع الفضائح في حالتي الحرب والسلم أثناء القتال وبعد القتال .. فلو أنني تعمدت الروية لما وجدت أمامي مثلا أقرب من ذلك المثل للرد على صاحبنا الفخور بالتعفف عن الرشوة في الحرب والسلم، ولكنني لو تعمدت الروية لكان السكوت عن تلك الكلمة أولى وأحجى .. فان الرجل بعدها وقف الى جانب المدير في طلب اعتقالي واقصائي من المدينة ، وقال عني انني أخطر من ناظر المدرسة الذي نفته السلطة قبلي الى جزيرة مالطة ،

وكنت قد تعمدت ان اشغل مكانه تحديا للامر الذي صدر بعد القبض عليه ، فعملت بعده ناظرا لمدرسة المواساة ..

وجزى الله مقامة « العجول » خيرا في هذه المرة ، فان قارئا من قرائها الذين حفظوها أطلعنا على خبر التقرير السري الذي كتبه المفتش ونقحه بعد مراجعة المدير .. فوجب الرحيل اذن من المدينة بكل وسيلة مستطاعة .. وقضت القافية ان يكون الراحل في هذا الفصل من الرواية كاتب المقامة .. لا سعادة المدير .

لكن كيف الرحيل من المدينة والرقيب ملازم لباب الـدار بالليل والنهار ؟

لقد كان الرقيب يلازمني اذا خرجت ، ويسلمني في المساء لحارس الدرك فلا يفارق الحارس مكانه في الصباح حتى يتسلمه منه الرقيب الاول أو رقيب جديد ..

أصبحت من أبطال المغامرات !

لست من القراء المغرمين بروايات الهرب والمطاردة ،ولكنني أصبحت بطلا من أبطالها على الرغم مني بحكم الضرورة التي لا حيلة فيها .. فوصلت الى القاهرة قبل أن يعود منهـــا جــواب « السلطة » على تقرير المفتش والمدير ، وكأنني كتبت بيدي قرار الفصل عقابا لهما واحدا بعد واحد ، وبينهمـــا فتــرة أسابيع .

ارسلت ملابسي من المنزل في مقطف عليه قمح يغطيــه ، وذهب به حامله الى بيت في شارع مجاور لنا نقلوا فيه الملابس الى حقيبة صغيرة ، وسافر بها بعض أقاربنا بتذكرة من أسوان الى القاهرة ، وتواعدنا أن القاه بالقطار في محطة « الخطارة »

ويعود هو الى أسوان على المطية التي وصلت بها من أسوان الى الخطارة ..

وأعددنا عند ظاهر البلدة مطيتين يقودهما من نثق به من الجيران ، وبقيت مهمة الخروج من المنزل في الصباح على الرغم من الحارس الرقيب .. وليس أيسر من ذلك اذا تزحزح الحارس من مكانه الى منعطف الطريق هنيهة قصيرة نخرج فيها ونتوارى على الاثر في منعطف الطريق المقابل ، من ناحية الفضاء ، حيث تنتظرنا المطيتان ..

ولم يعسر علينا أن نزحزح الحارس عن مكانه خلال تلك الهنيهة القصيرة ، فقد كان من ذوينا فتى نستعيذ بالله من ثورات غضبه ومن خفته الى الشجار والخناق ، فرجوناه في ذلك اليوم ان يغضب ، وان يبالغ في الغضب وان يفارق المنزل بعد الفجر كأنه ذاهب للصلاة، فيشتبك في خناقة حامية مع أول عابر من طلاب الصلاة مثله ، أو من المبكرين الى الاعمال .

وقام صاحبنا بالواجب على ما يرام ، وعاد الحارس الى باب البيت ونحن على المطايا متلفعين متنكرين لا يعرفنا من يرانا ولو كان من معارفنا .

أكبر مقلب للمدير !

وكنت بعد ذلك بيوم في ديوان الداخلية أزور صديقنا الوزير الاديب جعفر والي « باشا » وكيل الوزارة ، ثم تتابعت الايام والتقارير السرية تصل من أسوان بتفصيلات المؤامرات التي أدبرها ، والاحاديث التي أذيعها والاقاويل التي أثير بها الخواطر وأستحق من أجلها التعجيل بالاعتقال والنفي من الديار ..

أنا في القاهرة يصطحبني وكيل الداخلية كل يوم الى مكتب المستشار ، ويشهده على مقامي بعيدا من أسوان بأكثر من ستمائة ميل ، وأنا في الوقت نفسه بأسوان يراني المفتش والمدير أثير الخواطر وأدبر المؤامرات ..

والنتيجة معروفة ...

في هذه المرة يخرج المدير من البلدة ويتلوه المفتش ،ويصدر الامر باحالة المدير الى المعاش قبل موعد الحركة الادارية ، وأعرف اسم المدير الذي خلفه فأبادر الى ابلاغ الخبر لاصدقائنا في أسوان بهذه البرقية :

« شر مدبر وخير مقبل » .

وكان المدير الخلف « محمد مقبل باشا » الذي اشتهر بعد ذلك في مناصب الادارة .

* * *

بين الموت والحياة

كنت رقيبا على الصحافة

كان نصيب التدريس من عملي في سنوات الحرب العالمية الاولى أكبر من نصيب الصحافة ، وكانت علاقتي بالصحافة قليلة متقطعة ولكنها ـ على ذلك ـ كانت متعددة منوعة ، لانني اتصلت فيها بالوان من الكتابة الصحفية لم أعرفها قبل ذلك ، وما لم أعرفه منها عملا واختبارا فقد عرفته وصفا ونظرا واطلعت على طرف من اسراره واخباره عن كثب . فكتبت الى المجلات الشهرية والصحف الاسبوعية واشتغلت بالصحافة اليومية في غير القاهرة ، وقمت على رقابة الصحف أياما معدودة، وندبت «للمراسلة الحربية» في صحراء سيناء، وكدت أن أحيط بالدائرة الصحفية من مراكزها الى زواياها ونواحيها.

وتشاء الحوادث أن اشتغل بالرقابة على الصحف وهي من أبغض الاعمال الى نفسي والى فكري ، وتشاء هذه الحوادث ان اهنىء نفسي بالخيبة فيها بعد ايام ، فلم أحمد الله على نجاح كما حمدته على هذه الخيبة الموفقة .. !

كانت لي صداقة أدبية بالمغفور له « جعفر والي باشا » وكيل وزارة الداخلية في أيام الحرب العالمية الاولى ، وكان من الادباء « القانونيين الاداريين » الذين يجالسون احيانا « عثمان

فهمي » بك الذي كان مديرا لاسوان فمديرا لقنا فوكيلا للخاصة الملكية ، ثم خرج من الخاصة الملكية مغضوبا عليه في عهد الملك احمد فؤاد ، محالا على المعاش قبل اوانه ، لانه لم يحسن ان يشترك في ادارة الخاصة على الطريقة التي يرضاها صاحب الجلالة !

***

وكان حديث جعفر والي معي في الادب يكاد ان ينحصر في المفاضلة بين أبي تمام والمتنبي . فانه كان يفضل أبا تمام ويفرغ لنسخ ديوانه بخطه ويملأ حواشيه بالتعليقات والملاحظات التي توافق مشربه في تفضيله ، وكنت أنا تلميذا للمعري في هذه الخصلة كما كنت تلميذه في خصال خلقية او فكرية شتى ، واعني بها خصلة « التعصب » للمتنبي وقلة الصبر على القدح فيه والانتقاص من أدبه .. أما الاستاذ « عثمان فهمي بك » فقد كان كلامه في العلميات والفلسفيات اكثر من كلامه فيالموضوعات الادبية ، وكان يناصرني احيانا في تفضيل المتنبي من الوجهة الفكرية ولكنه يناصر وكيل الوزارة في حملته على « نفخة » الشاعر الكذابة . مع تعرضه للرفد والسؤال ، مما يخالف أصول البلاغة على قوله ، وهي مراعاة مقتضى الحال ، أو المقال حسب المقام !

وعلم « جعفر باشا » انني ابحث عن عمل في القاهرة لان حالة « الكبد » عندي لا تسمح بقضاء الصيف في أسوان ، وعلمت منه مرة ان الرؤساء الانجليز يفاتحونه بضيقهم الشديد من مشكلة الرقابة على الصحف العربية ، وانهم يكادون ان يحملوه تبعة هذه المشكلة ، لانه احق الناس ان يعرف كيف

يختار للرقابة اناسا من ادباء المصريين يصلحون لها ولا يسيئون فهمها .

وقال لي ذات مرة « ان يوسف خلاط بك » مدير المطبوعات على حد تعبيره « في ثياب ضيقة » .. ولكنه هو يخشى ان يلبسه القوم هذه الثياب .

وأزوره يوما على موعد ، فيقول لي ضاحكا : انني آمنت بعظمة المتنبي وفضله على أبي تمام .

ثم يلمح دهشتي فيبادر قائلا : ولكنه تفضيل معلق على شرط ، وهو ان تستخدم لنا حكمة صاحبك في عمل من اعمالنا هنا بوزارة الداخلية ، وهو مراجعة الصحف العربية ..

تكميم الافواه !

قال : والحيرة في أمر هذه الرقابة ان أكثر الرقباء بادارة المطبوعات لا يفهمونها ويحسبون انها تكميم للافواه والاقلام ومسابقة بينهم وبين الصحف في المكر والحيلة ، فكلما خطر لهم أن صحيفة من الصحف تلعب بالالفاظ لتفويت خبر من الاخبار داخلهم الغرور وظنوا أنهم يغلبون الصحيفة في المكر واللعب ، فيحذفون الخبر ويصرون على منعه ومنع الاشارة إليه . ومن ترخص منهم في السماح بنشر الاخبار التي يحرص عليها الصحفيون فانما يترخص في ذلك مجاملة لاولئك الصحفيين من أجل الصداقة او من أجل المنفعة المتبادلة .

قال : ولا ادري ماذا اصنع وانا الوكيل المصري المفروض فيه انه أقدر من غيره على حل المشكلة . فهل لك أن تؤدي هذه الامانة الشاقة وان تعيننا على تجربة الرقابة كما ينبغي ان تكون ، بين العطف على الصحافة ورعاية مقتضى الحال ..

وكانت « رعاية مقتضى الحال » قد أصبحت من القوالب المحفوظة في أحاديثنا حول بلاغة المتنبي وبلاغة ابي تمام وحظ الشاعرين من الحكمة على مقتضى الحال .

قلت : انني اقبل العمل في الرقابة ولا غضاضة ، ما دامت الرقابة من المصالح العامة في أيام الحروب .

عجزت والحمد لله !

وبعد ثلاثة أيام جاءني تنبيه وسؤال عن بعض الاخبار التي تركتها للنشر وتحقق لهم انني لم احذفها .

وبعد يومين او ثلاثة جاءتني دعوة الى مكتب مستر « هور نبلور » الرقيب العام يتقدمها حديث مقتضب من «يوسف خلاط بك » فلما دخلت المكتب سألني مستر « هور نبلور » مقطبا : هل راجعت هذه الاخبار ؟ وقدم الي رزمة من جزازات الصحف اليومية والاسبوعية .

فقلت بعد اجالة النظر فيها : نعم .

فعاد يسأل : وكيف تبيح نشر الاخبار المقلقة التي من هذا القبيــل ؟

قلت : انها تباح فيما أطلع عليه من الصحف الانجليزيــة ويباح لتلك الصحف ما هو اخطر منها بكثير .

فصاح متهكما : الصحف الانجليزية ؟ ثم أردف قائلا :

— هل أنت من الحزب الوطني ؟

قلت : انا مصري وطني بطبيعة الحال .

قال : اذا كنت لا تعطف معنا فلماذا تتولى هذا العمل ؟

فأجبته بكلام فحواه انني لا افهم المقصود بالعطف معهم ، ولكنني لا ابقى في هذا العمل اذا كـــان يتطلب مني شعورا لا

افهمه ، وله ان يتقبل استقالتي مشكورا على قبولها ..

وهكذا عجزت بحمد الله عن مهمة الرقابة بعد اسبوع واحد، وكدت أعجز عنها بعد يومين أو ثلاثة .

المراسلة الحربية

أما المراسلة الحربية فقد ندبت لها من طريق الكتابة في مجلة المقتطف عن المقارنة بين فلسفة المعري وفلسفة شوبنهور .

وكنت اعمل بالتدريس في مدرسة وادي النيل الثانوية بجوار محطة باب اللوق على مدى خطوات من مكتب المقتطف والمقطم . فزارني الاستاذ نجيب شاهين بالمدرسة موفدا من قبل الدكتور يعقوب صروف وقال لي ان الدكتور وبعض ذوي الشأن ينتظرونني بعد الفراغ من الحصة قبل فسحة الظهر . ولم يخبرني شيئا عن موضوع الدعوة .

قلما دخلت المكتب وجدت الدكتور وشابا من اصهاره ومعه الشيخ الغنيمي التفتازاني ورجلا انجليزيا لا اعرفه ولم يعرفني به الدكتور ، ولكنه قال :

ـ انك تعلم قلق الناس في هذه الايام من جانب الحدود الشرقية ، وكلهم يظنون ان الهجمة منها قريبة على قناة السويس ثم على جميع البلاد المصرية ، ومثلك خليق ان يعيد الطمأنينة الى نفوسهم بما تراه عيانا وما تطلع عليه من المعلومات المفصلة وهي حاضرة عند المختصين بالمسألة .. واشار الى ناحية الرجل الانجليزي ، وكل ما يطلب منك ان تطلع منها في القاهرة على ما يلزمك وان تهيء نفسك بعدها للرحلة الى الخطوط الامامية في صحراء سيناء ، ثم تصفها باسلوبك المعهود لان مجرد الوصف الصحفي الشائع لا يكفي للاقناع والتأثير ، ولولا ذلك لكان في

مخبر من مخبرينا او مخبري الصحف الاخرى من يغني هـــذا الغناء .

رأيي الذي لم أعلنه !

وأحب ان أعيد هنا رأيي الذي اعلنته في اثناء الحرب العالمية الثانية ولم أستطع أن أعلنه في أثناء الحرب العالمية الاولى ، فقد كان من رأيي في الحربين ان تتولى مصر واجب الدفاع عـــن حدودها موفورة السلاح والاستقلال وألا تتولاه ـ بداهة ـ في ظل الحماية او الاحتلال .

فلما سمعت اقتراح الدكتور صروف قلت له انني لا أكره أن أبث الطمأنينة في قلوب المصريين من ناحية الدفاع عن بلادهم أما وهو ـ كما يحدث الان ـ من عمل دولة الحماية فليس من المعقول ان ارفض الحماية واقبل دفاعها .

وكان الدكتور يعلم رأيي هذا في الحماية من احاديثي معه قبل ذلك خلال زياراتي له في صدد مقالاتي الادبية ، فكـــاد ان يعتذر من مواجهتي بالاقتراح لانه نسي اننا تحادثنا في مسألة الحماية منذ شهور ، وانصرفت وهو يكرر قوله : انه لو ذكر ان في الاقتراح شيئا لا اسيغه لما فاتحني به ، وجعل يقول مازحا : اذن تعود الى المعري وشوبنهور .. !

ولا أذكر أن أحدا من الحاضرين في تلك الجلسة فاه بكلام يخالف هذا المعنى غير الشيخ التفتازاني ... فانه طفق يقـــول ويعيد : يا سيدي فيها ايه ؟ وماذا في يا سيد عباس ؟ أليس المهم الآن أن تطمئن النفوس على الحدود ؟

فلم أجبه ولم يجبه أحد من الحاضرين .

أنا والمازني .. بين الموت والحياة !

وقبيل انتهاء الحرب العالمية الاولى عـــدت الى التحرير في الصحف على غير انتظار ، بل على يأس من العمل في الصحـافة والتدريس الى ما بعد الهدنة ، اذ كان للهدنة موعد قريب .

فالعمل في التدريس لا أمل فيه ، بعد أن مارسته سنتين مع صديقي المازني في مدرسة بعد مدرسة من كبريـات مدارسنا الثانوية ، وجرت العادة في كل مدرسة ان ينتهي عملنا فيهـــا بأزمة من أزمات الخلاف على تصحيح اوراق الامتحان ، لاننا كنا نصحح اسئلةوأجوبة وكانت خزائن المدارس تنظر الى أوراق الامتحان كأنها أوراق الرصيد المنتظر في حساب المصروفات .

فلما وصلنا الى الاوان المقدور للازمة السنوية خرجنا من المدرسة متفقين عـــلى سكنى الامام الشافعي حيث تقيم أسرة الاستاذ المازني من زمن بعيد ، وقدرنا أن اختزال النفقـات المعيشية بالسكنى بين عالم الحياة وعالم الموت قد يغنينا عـن التعجل في طلب العمل بضعة اشهر ، ويفرجها ربك بعد ذلك أو قبل ذلك كما شاء .

وقلت للمازني : ابحث يا صاح عن عمل في صناعتك ولا ترتبط بي في بحثك ، ودعني انتظر العمل في صناعتي حيثما اتفق ، فلا حيلة لنا في استعجاله ولا في البحث عنه ، لانه معلق بانتهاء الحرب العالمية فيما قدرناه .

ووجد صديقنا المازني عملـه ناظـرا للمدرسة المصريـة الثانوية ، ولبثت أنا بالقاهرة اترقب اوائل الشتاء لاعمل فيما يتهيأ من عمل ارتضيه أو أزمع الرحلة الى أسوان .

وكنت أحسبني مترقبا على غير جدوى لان ركود السياسة الوطنية في ابان الحرب قد ذهب بالصحف اليوميـة التي كانـت

تنطق بألسنـة الهيئات السياسيـة ثم هبطت أزمة الـورق بالصحيفتين الباقيتين ـ وهما المقطم والاهرام ـ الى ورقة واحدة من صفحتين لا متسع فيهما لغير البرقيات وانباء الدواوين وما هو من قبيل « المحتويات » التقليدية في الوقائع المصرية ، فاكتفت كل صحيفة بمن فيها من المحررين والمترجمين .

وكنا « نفد » عـلى المدينة من « حي » الامـام الشافعي مرة كل اسبوع ، وكان يوم السبت على الاغلب هو موعد هـذه الزيارة الاسبوعية ، لانه يوم متوسط بين بطالة الجمعة وبطالة الاحد ، فلم اكد اقبل على المكتبة التي كنت أتردد عليها في هذه الزيارات حتى تلقاني صاحبها قائلا بل صائحا : اين انت يا استاذ ؟ ان الاستاذ عبد القادر حمزة قد حفيت قدماه وهو يأتي الى المكتبة ويعود ليسأل عنـك وقد يئس من لقائـك فأوصى الاستاذ « عبد المؤمن كامل الحكيم » بالبحث عن مكانك والاتصال بك في شأن هام كما قال . وقد كان الاستاذ عبد المؤمـن هنـا الساعة ، وترك عنوانه لدينا وكتبت له عنوانك كما اعرفـه بالامام ، ولا ادري في أي مكان هو بانحاء الامام ..

وعلمت بعد لقاء الاستاذ عبد المؤمن انني مطلوب للتحرير في صحيفة « الاهالي » بالاسكندرية ، وأنني استطيع أن أعد نفسي للسفر خلال اسبوعين أو ثلاثـة ، وعنده تفـويض بتسليمي مرتب شهر وما أطلبه من تكاليف السفر ، وعنده كذلك تفويض بمراجعة الصحيفة في تقدير المرتب ، إن كنت لا أرضاه .

قلت له : لا حاجة الى المراجعة الان ولعلها في الاسكندرية أجدر وأيسر ، وانثنيت يومئذ الى الامام لاعداد حقيبة السفر واختيار ما أحمله معي من الكتب الى الاسكندرية ، والاستغناء عما هو معد للبيع في يومين أو ثلاثة ، ولم يكن طلابه بالقليلين

في تلك الآونة .. لانقطاع البريد الاوربي في الفترات بعد الفترات على غير انتظام .

كانت في الثغر الاسكندري ثلاث صحف يومية هي البصير، ووادي النيل ، والاهالي .

وكانت « البصير » صحيفة القطن والتجارة ، لا تعرض للبيع في خارج الاسكندرية ، ولا تعرض للبيع في الاسكندرية نفسها الا على مقربة من البورصة ومخازن الميناء ، وكانت الصحيفة تعيش باشتراكات التجار والسماسرة ورسوم الاعلانات القضائية من المحاكم المختلطة ، ولا تذكر فيها شؤون السياسة المصرية الا كما تذكر صحيفة « خارجية » .

وكانت « وادي النيل » صحيفة المجلس البلدي أو صحيفة المناورات والمنازعات بين اعضائه واحزابه ، ولها — من ثم — عناية بمسائل الاسواق والدكاكين والشوارع المرصوفة وغير المرصوفة ، وما اليها . فكان لها نصيب وافر من الرواج في الاسكندرية ، ونصيب « لا بأس به » من الرواج خارج الاسكندرية ، بعد انقطاع « الشعب » خليفة اللواء ، وانقطاع « المؤيد » و « الجريدة » .

أما « الاهالي » فقد كانت في نشأتها صحيفة « شبيهة بالرسمية » يشترك فيها مئات من الموظفين والعمد والاعيان لانها لسان حال رئيس الوزارة محمد سعيد باشا ، وكان « محمد سعيد باشا » أحد الساسة القلائل الذين فهموا في ذلك العهد ضرورة الاتصال بالرأي العام ووجوب الاعتماد على الصحافة في مناقشة الصحافة التي تعارض الوزارة . فأوعز الى طائفة من اصدقائه الاسكندريين بانشاء شركة « الطبع والنشر الاهلية »واستهلال عملها الصحفي باصدار صحيفة يومية تدافع عن الوزارة وترد هجمات الصحف المعارضة عليها . فاختاروا

اسم «الاهالي» لصحيفتهم عمدا ، لانه اسم قديم لصحيفة كان يصدرها اسماعيل اباظة باشا رحمه الله ، ولان اسم «الاهالي» يقابل اسم « الشعب » واسم « الامة » مصبوغا بالصبغة التي تدل على معنى « الرعية » ولا يفهم منها معنى المقاومة والثورة .

ولم تزل « الاهالي » صحيفة الحكومة «الشبيهة بالرسمية» الى ان سقطت وزارة سعيد باشا وقامت بعدها وزارة حسين رشدي باشا التي اعلنت الحماية على مصر في عهدها ، فلبست « الاهالي » بعد ذلك لباس المعارضة في حدود الظروف التي تسمح بها الحرب والرقابة . وكانت هذه المعارضة تقوم على أساسين : أحدهما الخصومة الوزارية بين سعيد ورشدي ، والآخر ايمان سعيد بفائدة السيادة العثمانية في امتنهاض الحجة « القانونية » أو الحجة الدولية على الاحتلال والحماية . فقد كان سعيد « عثمانيا » في تفكيره وشعوره الى اللحظة الاخيرة ، وكان هو صاحب الرأي القائل بالارتباط بين البحث في مسألة الحماية والنظر في معاهدة الصلح مع تركيا والدول المنتصرة في الحرب العالمية .

واوشكت « الاهالي » ان تحتجب بعد اعتزال الوزارة السعيدية وقيام الوزارة الرشدية ، لان مشتركيها من الموظفين والعمد قطعوا اشتراكها ، ثم جاء كساد الصحافة بعد فرض الرقابة عليها ونشوب الحرب العالمية فطواها فيما طواه من الصحف المهملة أو المعطلة ، ولكن ظروف الحرب انقذتها بعض الانقاذ من حيث لا تحتسب ، لانها حصرت الاعلانات في ايدي شركة تحتكر الاعلانات القضائية من المحاكم الوطنية وتتعهد للاجانب بنشر اعلاناتهم في صحيفة افرنجية وأخرى مصرية ، فكانت « الاهالي » هي الصحيفة التي تتسع لنشر تلك الاعلانات في ملحقاتها ، وعندها بقية من الورق المخزون غير الورق الذي

تدبره الشركة ، ولولا ذلك لما استطاعت ان تعيش سنة بعد ذهاب الوزارة السعيدية وانقطاع الاشتراكات عنها في ذلك المعترك العصيب (١) .

وبقيت في تحرير « الاهالي » الى نهاية الحرب وظهور الدعوة الوطنية على يد الوفد المصري بقيادة سعد زغلول ، وافترقت الخطة العامة بين الصحيفة والوفد فتركتها وعملت في الصحيفة التي كانت تجري يومئذ على تلك الخطة ، وكانت فاتحة عصر جديد في حياة مصر وحياة الصحافة وحياتي الصحفية ، يقترن بتاريخ النهضة الحديثة فيما علمت من ظواهرها وخوافيها .

* * *

---

(١) وقف الاستاذ العقاد ـ في الفصول السابقة ـ حتى عام ١٩١٩ حين قامت الثورة المصرية بزعامة سعد زغلول . وقد اشترك بقلمه في هذه الثورة مؤيدا للمبادىء الوطنية والسياسية التي كان يؤمن بها . حتى اعتزل السياسة في عام ١٣٩٥ حين افسدتها الحزبية ، وانحرف السياسيون في ذلك الحين عن المبادىء المثلى .. كما اشرنا الى ذلك في « تقديم هذا الكتاب » وتوفر على التأليف ، وكتابة الفصول العلمية والادبية في المجلات الكبرى . ولهذا نقدم هذه الذكريات وما يليها من الفصول التي لم تنشر من قبل في كتاب من كتبه .

ذكريات وشخصيات

صديقي المازني

صديقي المازني أحوج الادباء الى التعريف بحقيقة فضله ، لاني ما رأيت أحدا من المعجبين به الا وهو يجهل بعض مزاياه.. وليس ذلك لخمول في الذكر . فقد بلغ ـ رحمه الله ـ من الشهرة غاية ما يبلغه الاديب في البلاد العربية .

وليس ذلك لغموض في النفس يباعد ما بين ظواهرها وبواطنها . فما عرفه أحد من طول المعاشرة الا عرف انه من أصفى الناس سريرة وأشبههم ظاهرا بباطن ، وجهرا بخفاء .

ولكنه لم يعرف بحقيقة فضله ـ أو بكل حقيقة فضله ـ لسبب غير الخمول وغير الغموض ، وهو قلة الاكتراث والاكتفاء بأيسر ما ينال وبعضهم يسميها « ملكة السخرية » ويخيل اليه انها على مثال السخرية التي اشتهر بها بعض المفكرين الساخرين ... ولكنها فيما اعتقد تشبه السخرية وليست هي بها . لانها تخلو في جوهرها من نكاية السخرية التي تلازمها . فلا تنطوي على النكاية بأحد ، ولا تدل على حب للنكاية .

وانما هي على ما عرفتها واختبرتها ، شيء آخر غير السخرية وان كانت شبيهة بها :

هي حب « المعاكسة البريئة ، او هي الدعابة لا ضير فيها

على احـــد ، ولا فرق بين الدعابة على النفس والدعابة عــلى الآخرين .

لم يكن يبالي ان يبرز خير ما عنده ، ولم يكن يبالي ان يقدح في أدبه وفنه بقلمه ولسانه ، فيسبق المنكر والحاسد الى القدح والانكار ، ولم الجهد والعناء ؟ ..

لقد كان يرى ان حقائق الدنيا كالخيال ، لان غايتها الى أمل أو ذكرى ،وكلاهما خيال .. فليكن متاعه بها ونصيبه منها خيالا بغير عناء .. !

وكان يرى ان الناس يضنون بثنائهم كأنه شيء لا غنــى عنه . فكان يريهم انه في غنى عنه فعلا ، وكأنه يقول لهم : « ان استطعتم فقولوا في أدبي وفني ، وفي شخصي وسيرتي ، أكثر مما أقول » .

وليست هي بفلسفة وليست هي بمظهر .

هي طبيعة فيه عهدتها منه في غير عالم الكتابة ، ولم تفارقه منذ صباه ، كاتبا أو غير كاتب . وغايــة ما هنالك انه كـــان يطاوعها حينا فيسترسل فيها ، وانه كان يكفها حينا فلا تظهر كل الظهور ‥ كان ولعه « بالمعاكسة البريئة »تسليته الكبرى .

ولست أحصي ضروب هذه المعاكسات التي كــان يرتجلها ارتجالا في أكثر الحالات ، ولكنني أذكر حادثا منها له اتصـــال بجانب نفسي في تاريخ حياته ، وهو من قبيل الوقائع التي‌تفسر الاقوال ، أو تفسر مذاهب الكتابة التي يسميها بعضهم فلسفة حياة .

قل من يذكر أن المازني شغل بالموسيقى في عنفوان شبابه ، وانه تعلم العزف على « الكمان » وتلقى دروسا كثيرة فيــه ، واستطاع ان يوقع بعض البشارف وأوشك أن يحسب فيه من مهرة العازفين .

وكنا نقضي السهرة ذات ليلة في ناد كبير من اندية الموسيقى والغناء وطابت السهرة الى ما بعد منتصف الليل ، وكان يبيت يومئذ بمنزله على مقربة من الامام، ولم يكن خط الترام قد وصل بعد الى الامام ، وقد كان الترام الذي يذهب الى تلك الجهة ينقطع قبل ذلك الموعد على كل حال .

وودعته وهو يتفق مع حوذي ليوصله في مركبته ، مركبة خيل ، لان السيارة لم تكن شائعة في تلك الايام .

وكان الجو ليلتها رائقا والقمراء في أوانها ، وسكون الهزيع الثاني من الليل يغري بالغناء .

ويظهر أن الحوذي ــ حين رآنا نخرج من النادي الغنائي ــ قد بدا له اننا من هواة السمع ، فلا حرج عليه اذا طرب وأطرب ، وراح يتغنى بما شاء من « الطقاطيق » التي يهواها ، ولم ينس ان يعتذر الى « زبونه » بعد أن رفع عقيرته بالغناء :

ــ لا مؤاخذة يا سيدنا البيه ، ان محسوبك من هواة السمع ، واني .. وقبل ان يمعن في الاعتذار ، بادره « الزبون » قائلا :

ــ خذ راحتك .. « أنا والله أحب أسايرك » . !

فلم يملك الحوذي نفسه من الطرب والارتياح . لان الجواب الذي سمعه جزء من « الطقطوقة » التي كان يغنيها . وراح يغني تارة ويردد قصته التي بدأ فيها تارة أخرى ، وخلاصتها انه كان ــ لهوايته السماع ــ يختار موقفه الى جانب « تخوت « الآلاتية » ويسترق السمع بين لحظة وأخرى كلما استطاع الافلات من رقابة البوليس .

وانجلى الحوذي ، وخلا له الجو بعد باب السيدة عائشة ، ونسي البوليس والزبون ، ومضى كأنه في ليلته يود الا تنقضي به الطريق .

وتدرك أخانا ، المازني ، تلك الشنشنة التي لا تفارقه ، ويوحي اليه الموقف بالخاتمة الصالحة لهذا « الفصل الغنائي » الذي أقحمه الحوذي عليه فأفسد عليه في آخر الليل ما سمعه في أوله : ان المطرب المقتحم قضى ساعة وهو يقول في الطقطوقة التي يغنيها « لما أشوف آخرتها معاك .. »

فماذا لو كلفت آخرتها أن يلتفت عند خاتمة المطاف فلا يجد الزبون ؟ .

خطر الخاطر فلحق به التنفيذ ، وخلت المركبة والمطرب المشغول بغنائه لا يدري لان خلو المركبة واخلاءها بذلك الحمل الذي كان فيها يستويان .. !

والتفت الحوذي بعد ان طالت الرحلة ولم يستمع من الزبون صوتا ولا امرا بالوقوف .. فطار ما في دماغه من الغناء ، وامتلأ بكل ما وعاه في حياته من البذاء .

ولا حاجة بالقارىء الى ترديد ما ألقاه من لسانه في ذلك الخلاء ، وليس من حوله أحد يجيبه اذا استدل به وغريمه الباحث عنه هو دليله الوحيد .

ويزورني الصديق في اليوم التالي فيسألني : « أتذكر شكل الحوذي الذي ركبت معه بالامس ؟ »

قلت : « لا أظن انني احقق شبهه فلماذا تسأل عنه ؟ هل فقدت شيئا عنده ؟ »

قال ضاحكا : « كلا . ولكنه هو الذي فقد ! .. »

فلم أفهم ما يقوله وسألته : « وماذا فقد ؟ .. »

قال : « فقدني أنا » .. وقص علي تفصيل تلك القصة التي أجملتها هنا بعض الاجمال . !

***

انقضى أربه من المعاكسة ، وجاء دور الرحمة بـــذلك المسكين ، فاذا هو مهموم بالبحث عنه لاعطائه اجره الذي خيل اليه انه قد ضاع بغير امل ، فقلت له أن حوذيا بهذه الصفة لا بد أن يكون معروفا بين زملائه في موقفه وغير موقفه ، فهلم الى الموقف نبحث عنه **هناك !**

ولم يخطىء ظننا في جدوى البحث هناك ، لان القصة كانت حديث زملائه جميعا ، وان لم يكن هو في الموقف تلك اللحظة . فأخبرناهم اين يجدنا اذا عاد ، ولم نلبث طويلا حتى أقبـــل الرجل يهرول وهو لا يصدق ان زملاءه قد صدقوه الخبر . فلما رأى صاحبه بالامس أقبل عليه متهللا وتناول منه ضعف أجره الذي كان يطمع فيه .. !

وانصرف وهو يدعو له ويقسم نادما : « لا عدت الى الغناء أبدا وانا مركب » .. والا « فعلى روحي أنا الجاني » . !

قال الصديق العزيز : « بل تغني ما شئت ، ولكن تعطي وجهك للسميع ! » . هذه هي « المعاكسة البريئة » التي لزمت صديقنا على صور شتى من صباه الى أخريات أيامه . وتزداد بها الفجيعة ان تذكرها فتذكر اي نفس طفلة ــ اي طفولة مــن طفولة العبقرية الخالدة ــ قد عاجلها الحمام .

بهذه الدعابة البريئة ــ التي لا ضرر فيها على أحد ــ كان المازني يستقبل الدنيا ، ويحتمل نقائضها ومفارقاتها ويعفي نفسه من الجهد الذي يبرز للدنيا خير ملكاته ، بل يحاول أن يستر هذه الملكات بيديه غير آسف على شيء . !

قادر على نفسه ..

على أن المازني يصحح في هذا الباب خطأ يقع فيه اولئــك

الذين يحكمون على الاطوار النفسية بظواهرها وعناوينها ، فيحسبون ان طبيعة الاستخفاف تقترن دائما بالعجز عن الجد وصرامة الاخلاق .

والواقع ان الذين عاشروا المازني وخبروه يعلمون انه من اقدر الناس على نفسه وأصبرهم على رياضة طبعه ، وأشدهم جلدا على مواقف الشدة والصرامة . وقد عانى من شدائد الايام ما يقصم الظهر ويغشي آفاق الحياة بالظلام ، فلم يكن يتغير لمن يلقاهم ويلقونه في هذه الاحوال الا بالاكثار من المرح والتبسيط .. فلا يعرف جليسه أنه في شدة الا اذا تحول مزاجه الى التكلف المحسوس .

وأنا أعلم من عاداته أنه كان مفرط الحس بالشم في مطلع شبابه على الخصوص ، وكنا نمشي مسافات طويلة لنتجنب المرور ببعض الاماكن التي تنبعث منها روائح الحانات والنفايات. ولكنه راض نفسه نحو ساعة على احتمال رائحة من ابغض الروائح الى الانوف ، لانه أراد ان يلقي درسا حاسما على محبي « الشيطنة » من التلاميذ .

وكان أولئك التلاميذ يجهلونه ويجهلون انهم يحاربونه في ميدانه حين يعمدون الى ضروب المعاكسات المدرسية التي يغيظون بها طائفة من المعلمين ، فانتظروا حصته ووضعوا في المحابر حمضا كريه الرائحة لا يطاق في مكان محصور ، وسبق الى وهمهم ان الحصة ستضيع في السؤال والجواب عن هذه الرائحة وعن مصدرها وعن واضعها وعن المكان الذي جاء به منها ـ وهو بطبيعة الحال معمل الكيمياء في المدرسة .. ولكنهم لم يلبثوا هنيهة بعد دخوله الى الفصل حتى أدركوا أنهم في وهم بعيد ، لانه لم يسأل ولم يغضب ولم يبد عليه انه فطن لشيء غريب ، ولم يزد على انه مضى بنفسه الى النوافذ فأغلقها والى الباب فأغلقه ،

وأخذ في الدرس وهو على أتم راحة ونشاط ، وكلما اشتد الضيق بالشياطين الذين انقلبت عليهم فعلتهم تصايحوا يسألونه فتح النوافذ والابواب ، وهو يزعم لهم ، في جد وسكون ، ان الحجرة المغلقة أصح من تيار الهواء .

وكان ذلك هو الامتحان الاول والاخير !

ملكة نادرة ... !

وليس أعلم من المؤلفين بالمشقة التي يعانيها الكاتب اذا حاول ان يعيد الكتابة في موضوع من جديد . فانها مشقة جهد ومشقة ملل في وقت واحد ، ولكنني رأيت المازني يعيد كتابة المقرر في التاريخ لبعض الفرق الثانوية تأديبا لرجل من الناشرين خدعه في طبع الكتاب المقرر لتلك الفرق . فأعلن أنه غير راض عن النسخة المطبوعة وانه سيطبع المذكرات على التوالي بعد اعادة تحضيرها . وصبر على هذا الجهد الممل ليملي على اخوان الامانة درسا في عاقبة الخيانة والخداع .

الا أنني أظلم ملكات المازني كلها اذا رجعت باحتماله لهذه المشقة المملة الى الارادة دون غيرها .

فان الذكاء المفرط في الحقيقة هو صاحب الفضل الاول في صبره على جهد الاعادة ومللها . لانه كان يستطيع ان يفتح المرجع التاريخي الضخم في اللغة الانجليزية وان يلخصه وهو يقرأه ، وان يترجمه وهو يلخصه ، وان يكتبه على ورق الآلة الناسخة في وقت واحد . وهي اربعة جهود يجمعها ذكاء المعلم النابغة في لحظة واحدة : جهد القراءة وجهد التلخيص وجهد الترجمة وجهد التحضير .

الا أن السرعة في الفهم والترجمة الصحيحة اهون ما في هذه الملكة النادرة .

وأقول النادرة وينبغي ان أقول الوحيدة في تاريخ الآداب العالمية . فانني لا اعرف في آداب المشرق أو المغرب نظيرا للمازني في هذه الملكة التي أسميها بعبقرية الترجمة .

انه يترجم النثر في أسلوب كأسلوب الجاحظ وخالد بن صفوان. ويترجم الشعر في أسلوب كأسلوب البحتري والشريف، ثم لا يخرم في ترجمته حرفا من اللفظ ولا لمحة من المعنى .. بل يأتي بالمقالة المترجمة أو القصيدة المترجمة في طبقة التأليف او أعلى وابلغ ، ويعرض لك قصيدة الشاعر الاوربي ـ العالمي ـ بلغة عربية لا يزيد عليها صاحب القصيدة شيئا لو أنه نظمه في لغة الضاد .

ولا يقل شعره المطبوع عن شعره المترجم في مزايا البلاغة والصقل والسلامة ، ومن دواعي الاسف الشديد انه هجر الشعر وانكر على نفسه الشاعرية ، ومن دواعي الاسف الشديد ان عبقرية الترجمة التي انفرد بها لم تجد من ينفع بها العالم العربي ويغني الفقيد بعمل من أعمالها الخالدة عن كتابة الضرورة أو كتابة الظروف ..

ولا تقل عن ملكة الترجمة فيه ملكة اخرى من انفس الملكات التي يرزقها الاديب والفنان ، وهي ملكة الملاحظة الدقيقة والتعبير السهل القريب عما يلاحظه من المشاهدات والمناظر عن عرض أو روية .

كنز زاخر ..

ونعود فنقول إننا نأسف أشد الاسف لان الفرص لم تهيء

له أسباب النفع بهذه الملكة في غير الاعمال الصحفية العاجلة ، ولو تيسرت له موارد العيش واستطاع ان يتفرغ للتأليف الذي يريده لامتع الناس بالعجب العجاب في هذا الباب ، ولظفر العالم العربي بثروة المازني كلها ، وما أنفسها وما اجلها اذا كان هذا الذي اتسع له وقته وتهيأت له اسبابه جد نفيس جليل .

كنز زاخر ضيعنا منه ما ضيعنا وهو فيما بيننا . فـــان تعلمنا شيئا من العبر فلنتعلم كيف نصون ما أبقاه فانه لخليق ان يبقى بقاء العربية في حرز أمين ، وحسب العربية من فضله على أدبها أنه أثبت لها القدرة على مجاراة احدث الآداب بأسلوبها الصحيح السليم .

***

ذكريات مع الذكريات

وأي ذكريات ؟ وكم من ذكريات ؟ وما اكرمها ذكريات ...

انها ذكريات الصبا في بواكيره ..

انها ذكريات الاخوة في حماسة الدعوة الاولى الى الرأي والمذهب .

انها ذكريات المشاركة في الجهاد الوطني على خلاف أو على لقاء .

انها ذكريات العطف المتبادل والفكرة المتجاوبة في جميع تلك الحالات (١) .

ومهما يكن من معرفة عامة يعرفها القراء عن أديبهم المازني ، ففي مجال تلك الذكريات أحاديث لا تحصى ..

لكن هذه « الشخصية » المحبوبة : شخصية ابراهيم الكاتب وشخصية أبي خليل الصديق — تعفيني من كل حيرة في موقف الاختيار بين تلك الذكريات ، ولا فرق فيها بين ما يقال انه شخصي خاص وبين ما يقال انه ترجمة من حق النقد وحق

---

(١) هذا الفصل كتبه العقاد بمناسبة ذكرى المازني بعد سنوات من وفاته .. أما الفصل الاول فقد كتبه حين وفاته .

التاريخ . وهكذا تكون « الشخصيات » التي يقول النقاد انها « مطبوعة في الصميم » كل ما تعمله أو تقوله خاصة يعين الناقد والقارىء على فهمها وتفسيرها في مجالها الفسيح الذي تتصل فيه بعالم القلم ، وعالم التاريخ ..

لقد كان المازني الذي يسخر من كل شيء ، ويخرج لسانه لعابري الطريق هو المازني الذي يسمي كتبه في أخريات حياته بـ « قبض الريح » و « صندوق الدنيا » و « عالماشي » ، و « حصاد الهشيم » ، وهو المازني الذي أعجبه ذلك الشاعر الذي أوصى ان يكتب على قبره هذا البيتان :

أيها الزائر قبري   أتل ما خط أمامك
هاهنا فاعلم عظامي   ليتها كانت عظامك

كأنه يخرج لسانه من تحت التراب لزائر القبر الذي يقرأ، وهو غافل ، ما يحدثه به الدفين المزور .

في كل ذكرى من تلك الذكريات الشخصية صورة من صور الدعابة التي لا يفوتها الاحترام، والاستخفاف الذي يعن مواطن الاعجاب والتقديس .

وكان صديقنا المرحوم عبد الرحمن شكري يقول له فيما بيننا بالانجليزية .. حين نسمع تعليقاته على ما نقرأ شعرا ونثرا : ان فيك يا أبا خليل لشيئا ملكيا عفريتيا بلا افتراق Angelic Impish . وكان هو ــ طيب الله ثراه ــ لا يرفض هذا الوصف ، ولكنه يجيب عليه تارة اجابة الملائكة ، وتارة اجابة العفاريت ! ..

وكان موضع العجب من أمر صديقنا المحبوب المهيب انه ــ على دعابته ــ لم يكن يفقد احترام عارفيه على اوفاه ، وانه مع استخفافه لم يكن يستخف بمواضع التقديس والاعجاب .

كان رحمه الله قصير القامة يظلع في مشيته ، وكان يدرس التاريخ والترجمة في مدرسة ثانوية اشتهرت بتلاميذها المتمردين ، لانها كانت مدرسة أهلية تجمع الذين تجاوزوا السن في المدارس الاميرية او طردوا منها لسوء السلوك ، ولم يكن ايسر من اجتراء هؤلاء على مدرس شاب قصير القامة يظلع في مشيته ولا يبالي كثيرا بزيه ، ولكنه كان على نقيض ذلك مهيبا عندهم الى حد المخافة ، وكان لقب « تيمورلنك » هو اللقب الذي اختاروه له من دروسه في التاريخ !

ولعله كسب منهم هذا اللقب بعد امتحان او امتحانين ، ففهموا بعد الامتحان اي رجل هذا الهزيل الضئيل الذي حاولوا – على غير معرفة به – ان يجترئوا عليه ، لانهم فهموا انه رجل يملك زمام نفسه فلا يستعصي عليه أن يملك زمام الآخرين ، وانه رجل كفؤ لعمله على مثال لم يعهدوه بين عشرات المدرسين .

وبهذه الكفاءة ، وتلك الارادة ، أصبح مدرسهم الهزيل « تيمورلنك » زمانه المخيف ، والمحبوب .

***

ولم تكن المدرسة هي الساحة الوحيدة المختارة لهذه الدعابات ، بل كانت كل مفارقة يلقاها على ثقة بالجواب السريع بفصل من هذه الفصول .

دخل الى صيدلية يشتري حامضا من الحوامض السامة التي تستخدم في المنازل للتطهير ، وتقضي التعليمات على الصيادلة أن يسألوا من يشتري المادة السامة عما يستعملها فيه . فسأله الصيدلي حسب التعليمات :

– لماذا تريدها يا امتاذ ؟

فلم يجب الامتاذ ، بل نظر الى الصيدلي ورفع ابهامه الى

فمه متلمظا كأنه يقول : اشربها .

وكان الصيدلي الظريف كفؤا لزبونه الساخر ، فناوله القارورة وهو يقول :

ــ قد حان مرة واحدة كفاية يا استاذ !

***

وقد كانت دعابة صديقنا الودود سلاحا ماضيا يدفع به الاذى ، كما كانت سلاحا حاضرا يطرف به الاصدقاء . وكنا جميعا « المازني وشكري وانا » عرضة للاساءات السخيفة نتلقاها ممن هب ودب من انصار القديم ، ومنهم من كان يتميز غيظا من دعوتنا ، ويتحرق شوقا الى الفرصة التي تهيء له سببا من الاسباب للغض من هؤلاء « الطالعين فيها » .. كما كانوا يصفوننا في لغو الحديث .

ولقد ثقلت هذه الاساءات على مزاج أحدنا ــ شكري ــ فسئم لقاء الناس وانطوى على نفسه بعيدا عن المجامع والمجالس، الا من تدعوه ضرورة العمل الى لقائه ..

أما « ابو خليل » فقد كان بدعابته الحاضرة امضى سلاحا من ان يتراجع أمام المسيء او امام الاساءات ، ولم يكن اخبر منه بأساليب الانتقام العاجل ممن يخيل اليه انه سيخنقه بالفصول الباردة : الفصول التي تحرج المقصود بها ، لانه لا يدري كيف يحتج عليها ولا كيف يسكت عنها .

***

خرجنا ذات مساء الى ضاحية القبة نتنسم هواء الربيع ، وكان لنا صديق يسكن في تلك الضاحية . فلما مررنا به وجدناه بين فئة من صحبه وجيرانه على باب داره ، فلبينا دعوته ، ولما يكد يستقر بنا الجلوس .. واذا بواحد من الحاضرين يتصدى

لتوزيع السجائر ويتخطاني ويتخطى المازني عمدا ليسيء الينا بهذا الاهمال .. وقبل ان افرغ من سؤال نفسي : ماذا عسى ان يصنع ابو خليل مع هذا الذي خيل اليه انه يفحمنا باساءته ، وانه حر في افحامنا بها لانه حر في سجائره يحيي بها من يشاء ويهمل من يشاء ؟ .. اذا بالدعابـة الحاضرة ــ تحت الطلب ــ تسعد أبا خليل ، فيمد يده الى علبة السجائر ، ويذهل صاحبها فيسلمها اليه ، ويأخذها أبو خليل فيناولني سيجارة ويتناول أخرى ، ويضع اثنتين على المنضـدة ، ويقول لذلك المخلـوق المذهول :

ــ هاتان السيجارتان للدورة الاتية .. لاننا لا نريد ان نراك مرة اخرى ..

ثم يرفع رأسه كأنه تنبه من سهوة عارضة ، ويقول في غير اكتراث :

ــ لا مؤاخذة .. ! حسبتك خادم الدار ، ولولا ذلك لطردك صديقنا الكريم .

***

ولقد شهد هذه الفصول المازنيـة كثيرون من صحـبه الاقربين وممن لا يعرفهم بغير تحية المزاملة في العمل او تحية الطريق ، فلم يعرضه فصل من هذه الفصول قط لفقـدان الاحترام ، ولم يعرضه هو ــ بينه وبين نفسه ــ لفقدان الشعور بالاحترام ، وكان له قدره المرعـي في كل بيئـة نزل فيهـا ولو نزول الطارىء الراحـل ، وقد كانت لهذا المستخف الساخـر غضبته التي لا يغضبها الكثيرون من الجادين الذين لا يعرفون السخرية والاستخفاف . فاذا مست كرامته فلا مزاح ولا هوادة. وقد استقال من وظيفته الحكومية يوم كانت الاستقالة مـن

« خدمة الميري » شبيهة بالانتحار ، لانه لم يعط حقه من التقدير بين قرنائه في الديوان .

وفهم هذا الازدواج المحكم في طبيعته بين فلسفة الاستخفاف وشعور الاحترام ليس بالامر العسير على الذين عرفوه وعاشروه: ان « اللامبالاة » عنده لم تكن نقصا في الشعور ولم تكن وليدة النظرة السلبية الى الحياة ، ولكنها كانت عنده وليدة للشعور المفرط وللنظرة الموجبة الى العاطفة الانسانية في شعابها التي لا تحصى : كان ملء النفس عطفا على الام ، وعلى الابن ، وعلى الاخ ، وعلى الزوجة ، وعلى الصديق ، كان امتلاء نفسه شعورا بالواقع .. هو سر هذا الضيق بالجد المتصل في حالة بعد حالـة واحساس بعد احساس ، وكانت نظرته المثالية الى غير الواقع المتكرر هي التي جعلته يعطي ما لله لله وما لقيصر لقيصر كما قال السيد المسيح : أو هي التي جعلته يعطي للواقع ما للواقع وللمثل الاعلى ما للمثل الاعلى دون أن يمزج بينهما في كل حادث وكل يوم..فاذا جاء دور المقارنة بين الواقع الانساني وبين الكمال المنشود فهناك تتفتح الابواب للسخرية بجميع مصاريعها. ولكنها سخرية عاطفة كسخرية الاب الذي هو اعطف الناس على ضعف وليده ، وأوسعهم رجاء له في الكمال .

بهذه النظرة المطبوعة الى الواقع والى المثل الاعلى استطاع ان يعرف السخرية بالواقع في حينه ، وان يعرف الغضب للقداسة التي نرفعها الى سماء المثل العليا في كل حين .

فمن غضباته التي نذكرها تلك الغضبة التي اشرت اليها في معرض الكلام على تأليف العبقريات ، وأولها « عبقرية محمد » صلوات الله عليه .

***

كنا نزور ساحة المولد النبوي على مقربة من مسكني بالعباسية ، في جولة من جولاتنا التي كنا نسميها بالتفتيش الفني على احياء المدينة .. فذكرنا مقال البطولة النبوية فيكتاب الابطال للفيلسوف الايقوسي توماس كارليل . كان يعرف اعجابي بما يكتب ذلك الفيلسوف . فقال :

ـ ولم لا تكتب انت ذلك المقال من جديد ونحن اولى بهذا الواجب من كتاب الغرب ، مهما يكن من اخلاصهم في تقدير البطولة المحمدية ؟

وكان في الجماعة فتى متحذلق يحسب ان حرية الفكر انما تقاس بمقدار التطاول على المقدسات الموقرة ، وعلى مقدساتنا نحن دون سائر العالمين .. ففاه بكلام هازل يشير به الى السيف والى الزوجات الكثيرات .. وما راعنا الا المازني الوديع الساخر ينتفض غضبا كأنما لمسته لفحة من وقود مضطرم ، والا حركة يوشك ان يتبعها عمل وهو يقول تعقيبا على صيحتي في وجه ذلك الدعي المتحذلق : كلا . كلا . ان هذا الهجر لا يثبت الحاجة الى الضرب بالسيف في نشر الدعوات . انه ليثبت الحاجة الى ما هو اصلح من ذلك لداء البذاءة والقحة : انه الضرب بالحذاء توفيرا للسيف عن مثل هذا المقام .. !

على أن الزمن قد كان يصنع صنيعه في هذا المزاج الذي وفق هذا التوفيق العجيب بين الجد والقدامة ، وبين السخرية و « اللامبالاة » في عالم الادب الخالد ، وفي عالم المعيشة العارضة من يوم الى يوم . فكان من صنيع الزمن انه لم يزل يوسع المسافة بين الواقع والمثل الاعلى عاما بعد عام ، حتى كاد أن ينتهي بها الى الطرفين المتقابلين . فلم يكن للواقع عنده في أخريات أيامه نصيب غير التحدي والسخرية والاستخفاف ، ولم يكن فيه غير باطل الاباطيل ، وغير النظرة « عالماشي » ، وغير التفويت

والاغضاء .. ولم يكن في اكثر الاحايين أهلا للمصالحة بينه وبين المثل الاعلى فوق عرشه الرفيع ، من وراء المنظور والمأمول .

***

وسكنت في طويته قوة النضال حتى عاد بشيء من الندم الى نضاله القديم ، وحتى استكثر الرد على من ينكرون حقه ويجحدون فضله حيث هو احق واجدر بالاعتراف ، واحق واجدر بالفضل والتفضيل .

فما كان انكاره لشعره ــ فيما أعلم وأعتقد ــ الا تحديا منه للاعجاب والاستحسان ، ممن يظنون انهم ينعمون عليه باعجابهم واستحسانهم ويسلبونه نعمة يتكالب عليها بما ينكرونه عليه ، أو يبخسونه ، مؤمنين ومكابرين متعنتين ..

وفي هذه الفترة كان يقول ما يقوله وهو لا يبالي ان يحسب جوابه من الجد أو يحسب من المزاح : انني في مصنع النجارة الفني أعطيكم ما تطلبون : وما بالي اعطيكم كرسي الصالون وانتم تطلبون كرسي المطبخ ؟ أو اسومكم ثمن الدولاب وانتم تبذلون ثمن الصندوق الصغير . وخدعته قبل ان تخدع غيره سهولة الكتابة عليه ، فنسي ان السهل الممتنع هو الذي يستطيعه مثله بلا مبالاة .. يطلبه سواء ، بكل ما في وسعه من مبالاة ، فلا يقدر عليه .

***

كان يجلس الى المرقم « التايبرايتر » ليكتب القصة المطلوبة ، أو المقال المطلوب ، ساعة الطلب بغير تحضير .. وكان يكتبه في جلسةواحدة ويختمه مع ختام الورقة الاخيرة ، فيحس القارىء انه لم يقل كل ما عنده ، ولكنه يحس كذلك ان الذي قرأه كاف ،

واف ، او يزيد على الكفاية والوفاء .

وهنا ـ أيضا ـ نعلم الفارق بين « اللامبالاة » السالبـــة و « اللامبالاة » الموجبة التي تغنيها القدرة عن جهد المبالاة ..

ربما كانت سهولة الكتابة على المازني تقنعه هو نفسه بأنه غير مكترث بما يكتب ، ولكنه ينسى أن هذا الذي يكتبه بغير اكتراث يحاول المكترثون جهدهم فلا ينتهون اليــه . واحسب انني قرأت له المقال الذي كان يكتبه في نصف ساعة ، وقرأت له من قبل ذلك مقالات كان يكتبها ويعود اليها في ساعات ، فكان اجود ما كتبه من ثمرات السرعة البالغة ، سرعة الكاتب الذي يقول انه « لا يبالي » ، ولكنه يبلغ غاية الشوط من « مبــالاة » الآخرين ..

وهذه هي عبقرية المازني التي لا تجارى : عبقرية تعطي وقائع اليوم حقها ولا تنسى حقوق المثل العليا في سماواتها ، وهي على هذا تعطينا نموذجا منها في النكتة مع التلميذ والصاحب وعابر الطريق ، كما تعطينا نموذجا منها في ثمرات الفن والادب ، وتشعر وهي تستخف وتسخر كما تشعر وهي تقدس وتجد ، لانها فيما « تباليه » وما « لا تباليه » ، انما تصدر عن فرط شعور ، وعن تمييز بين مواطن النقص ومواطن الكمال .

* * *

عبـد الرحمن شكري

عرفت عبد الرحمن شكري قبل خمس وأربعين سنة (١) فلم اعرف قبله ولا بعده احدا من شعرائنا وكتابنا اوسع منه اطلاعا على ادب اللغة العربية وادب اللغة الانجليزية وما يترجم اليها من اللغات الاخرى .

ولا اذكر إنني حدثته عن كتاب قرأته الا وجدت عنده علما به واحاطة بخير ما فيه ، وكان يحدثنا أحيانا عن كتب لـــم نقرأها ، ولم نلتفت اليها ، ولا سيما كتب القصة والتاريخ ..

وقد كان مع سعة اطلاعه صادق الملاحظة ، نافذ الفطنة ، حسن التخيل ، سريع التمييز بين ألوان الكلام ، فلا جرم ان تهيأت له ملكة النقد على أوفاها لانه يطلع على الكثير ويميز منه ما يستحسن وما يأباه فلا يكلفه نقد الادب غير نظرة في الصفحة والصفحات يلقي بعدها الكتاب وقد وزنه وزنا لا يتأتى لغيره في الجلسات الطوال .

لم يسبقه احد فيما اذكر الى تطبيق البلاغة النفسيـــة ــ السيكولوجية ــ المستمدة من أدب الغرب على ما يقرؤه من شعر الفحول في اللغة العربية . ولعله أول من كتب في لغتنا عن الفرق بين تصوير الخيال Imagination وتصوير الوهم Fancy وهما ملتبسان حتى في موازين بعض النقاد الغربيين . ومن ذلك

(١) توفي عبد الرحمن شكري يوم ١٥ ديسمبر سنة ١٩٥٨ م

التفرقة بين تشبيه الشفق والفجر بدم الشهداء في قول المعري :

وعلى الافق من دماء الشهيد
ين علي ونجله شاهدان
فهما في أواخر الليل فجرا
ن وفي أولياته شفقان

وبين تشبيه ابن الرومي للأصلع حيث يقول :

فوجهه يأخذ من رأسه
أخذ نهار الصيف من ليله

فالاول وهم في خاطر المعري ، لا يلتفت اليه احد غيره لو لم يذكره ، والآخر خيال مطبوع يخطر لكل بديهة مصورة تتقن من التشبيه ما يتقنه الشاعر . وقد كان يشمئز من بيت الوأواء الدمشقي :

فأمطرت لؤلؤا من نرجس وسقت
وردا وعضت على العناب بالبرد

ويقول ان نسبته الى يزيد بن معاوية بلاء فوق طاقته فلا نجمع عليه « بين قتل الحسين وقول هذا الشعر الذي لا بأس به اذا أريد للفكاهة والعبث لا للغزل » .

وكذلك كان يحسب من المزاج الغث قول الانباري :

ولما ضاق بطن الارض عن ان
يضم علاك من بعد الممات
اصاروا الجو قبرك واستعاضوا
عن الاكفان ثوب السافيات

وهو معدود من عيون الرثاء عند من ينظرون الى اللفظ ولا ينظرون الى بواعث الرثاء من النفس الانسانية . فمثل هــذا الرثاء يقال للمكايدة او للعبث ، ولا ينم على حزن دخيل ، ولا تقدير مفيد .

شكري الشاعر

ولــم يكن امتــع من الاستمــاع الى شكري وهــو يقــرأ القصيدة العربية أو الاوربية ويعلق عليها بيتا بيتا امثال هذه التعليقات ٠٠ وما كتبه من النقد في مؤلفاته قطرة من بحر من تلك الآراء النفيسة التي كان يرسلها عفو الساعة ولا يعنــى بتقييدها .

وقد نظم شكري سبعة دواوين من الشعر غير القصــائد التي لم ينشرها وتمتلىء بها كراسة في حجم ديوانين آخــرين أو أكثر ، فمن تخير من هذه الدواوين المنشورة وغير المنشورة امكنه ان يجمع منها زبدة من اجمل الشعر تضارع صفوة القول في كلام كبار الشعراء . وقد كانت له قدرة على رياضة النظم كما نرى في ترجماته لبعض رباعيات الخيام . فانالترجمة ادل على قدرة النظم من التأليف لتقيد الناظم بالمعاني المنقولة التــي لا يتصرف فيها ، فقد أحسن فيما نقله من الخيام غاية الاحسان حيث يقول :

هاج للقلب جدة الحــــول اشجا
نا لـــــديه قديمــة العهــــد

تأنس النفس بالتفــــرد والوحد
ة في ظــــل عيشـــه الرغـــد

حيث تحكي الازهار راحة موسى
في بيـض النـــوار والـــورد
ولهـا نفحة كأنفـــــاس عيسى
باعثــات للميـت مــن لحـــد

أو يقول :

ارم قـــــد عفت وصوح قدمـا
في رباهـــا الربيـــع والزهـر
كأس«جمشيد»قد مضتحيث لا حيـ
ـث لدنيـــــا من أمرها خبر
لكـن الكـــرم لا يـزال جـوادا
برحيـــــق حبــــــابه درر
ولنا منزل عـــلى الروض فيـنا
ن تــــروي أزهــاره الغـــدر

أو يقول :

هات لي الـــكأس يا حبيبي دهاقا
لا تطـــع عاتبا كئـــوس العقار
ان ثوب الوقـــار ثوب شتـــاء
ليس يغني في الصيف ثوب وقـار
اغض عنـك الوقار وارم به في
جمـــرات للقيظ مثــل النـار
انما العيش طـائر بين غصـــني
ـن فخـــده مآخـذ المستطـــار

***

وهذه طبقة من الطلاوة والجزالة من سلست له في مترجماته

كانت في مبتكراته أسلس وأوفر. وقد توافرت لشكري مقطوعات ابيات في هذه الطبقة من بلاغة الاداء . وكان خليقا ان تتوافر له في كل ما نظم لولا أن التفاوت طبيعة في اعمال العباقرة والموهوبين ، ولولا أنه كان قليل الاحتفاء بالمراجعة والتنقيح يرسل شعره ارسالا كما قال :

أرمي بشعري في حلق الزمان ولا
أبيت منه على هم وبلبال

ولكنه ــ على قلة احتفائه بالتنقيح ــ قد خلص له من جيد الشعر ما يسلكه في عداد المجددين من نخبة الشعراء .

وله عدا ذلك في ميدان القريض فضل الرائد الذي سبق زمانه في عدة حسنات مأثورات ، فهو من أسبق المتقدمين الى توحيد بنية القصيدة والى التصرف في القافية على أنواع من التصرف المقبول ، فنظم القصيدة من وزن واحد ومقطوعات متعددة القوافي ، ونظمها مزدوجات وأبياتا من بحر واحد بغير قافية ملتزمة ، وآثر في تجاربه الاخيرة أن يلتزم القافية مع تعديدها في مقطوعات القصيدة الواحدة ، وتسنى له في جميع هذه المناهج أن ينظم الكثير من القصص العاطفية والاجتماعية قبل أن يشيع (١) نظم القصص في أدبنا الحديث وله فيها قصيدة اليتيم التي يقول فيها :

وما اليتم الا غربة ومهانة
وأي قريب لليتيم قريب ؟
يمر به الغلمان مثنى وموحدا
وكل امرىء يلقى اليتيم غريب .

(١) لعل شاعر الاقطار العربية خليل مطران قد سبقه الى ذلك . ففي ديوانه الذي صدر في سنة ١٩٥٨ قصص شعرية نظمت قبل سنة ١٨٩٧ م .

يرى كل أم بابنها مستعزة
وهيهات لا يحنو عليه حبيب .
اذا جاءه عيد من الحول عاده
من الوجد دمع هاطل ووجيب
كأن سرور الناس بالعيد قسوة
عليه تريق الدمع وهو صبيب
عزاءك لا يلمم بك الضيم اننا
يتامى ولكن الشقاء ضروب
فهذا يتيم ثاكل صفو عيشه
وذاك من الصحب الكرام سليب

ونذكر هذه القصيدة خاصة لسبب غير دلالتها على نماذج شعره في هذا الباب ، اذ كانت من اسباب وجومه الذي لزمه من مقتبل شبابه وكان من دواعي هذا الوجوم ان هذه القصيدة اختارها الاستاذ محمد امين واصف في كتاب من كتب المطالعة مستحسنا لها ، موصيا بحفظها ، من دون ان يذكر اسم صاحبها ، فكان هذا الاغفال مما آلم الشاعر أشد الايلام لانه كان يفهم ـ كما قال لنا ـ ان يغفل ذكره لاستهجان شعره ، فأما ان يكون الاغفال حتما عليه مستحسنا ومستهجنا فذلك كنود عجيب .

ولقد كان بعض الانصاف خليقا ان يلطف من وحشة الشاعر التي لازمته منذ بواكير شبابه ، ولكن التواطؤ على نكران فضله بين من يعرفونه ومن يجهلونه محنة لم يكن ليصبر عليها طويلا ، مع ما فطر عليه من الحس المرهف والملل السريع .

ففي نحو العشرين نظم شكري هذه الابيات :

لقد لفظتني رحمـة الله يافعـا
فصرت كأني في الثمانين من عمري
وحاول مني الهم صبرا فلـم ازل
أدافعه حتى ابحت لـه صـدري
واني لادري أن في الموت راحـة
وأجنبـه حتـى كأنـي لا أدري
ولولا تقى لا يملك اليأس صرفه
لاوردني يأسي على المسلك الوعر

وقد عاش بقية عمره بهذه الوحشة وهذا الملل وهـذا التردد بين اليأس والرجاء لا يدري ما يدافعه من خيبة في حياته الادبية ولا من خيبة في حياته الوجدانية ، وكلها أثقل وأمض من ان تطاق في حالة السليم الجليد فلما أطبقت عليه العلة الوبيلة ـ علة الشلل ـ ران عليه وجوم الابد قبل الهرم وقبل المـوت فترك الدنيا ومن فيها وما فيها ، ولم يحفل حتى بأن يقول انه تركها غير مأسوف عليها ..

شكري الناثر

والشاعر الناقد (شكري) كاتب ناثر على اسلوبه ومنهجه في السهولة والسلاسة وقلة الاحتفال بالتنقيح والتجميل ، لكن نثره شعر ، ونقده لا تقرأ مثله لشاعر غير ناقد أو لناقد غير شاعر .

ومن مؤلفاته النثريـة كتـاب « حديث ابليس » وكتـاب « الاعترافات » وكتاب « مذكرات مجنون » عدا فصوله المجموعة في كتاب « الصحائف » وكتاب « الثمرات » وطابعها الغالب عليها جميعا انها وحي نفسه الذي لا يشبهه فيه كاتب يطرق هـذه

المعاني والاغراض ، فهي « شكرية » في كل صفحة من صفحاتها وكل فقرة من فقراتها يكاد يميزهـا اللفظ المسترسل ، كمـا يميزها لون الفكر والوجدان .

يقول من فصل له عن هيبة الحياة وهيبة الموت :

« اننا اذا أغرينا الناس بأن لا يهابوا الحياة خفنا ان يغريهم ذلك بأن يغالوا في حب الحياة حتى يجبنوا .. واذا نحن اغريناهم بأن لا يهابوا الموت خفنا ان يدفعهم ذلك الى كره الحياة والرغبة في التخلص منها فخليق بنا ان نحثهم على ان يجعلوا بين الرهبتين موازنة كي لا ترجح احداهما . ولكن الانسان لا يملك صحـة نفسه وسقمها .. فان وراء رغبته في صحة نفسه عوامـل لا يملك لها دفعا مثل الوراثة والتربية والبيئة فاذا تحالفت هذه الاسباب على أسقام نفسه بأن تجعله جبانا أمام الحيـاة ، أو جبانا أمام الموت ، كن ضحية لها ولا تنفعه نصيحة الناصحـين شيئا » .

وخذ ما شئت من صفحاته تجد فيها ما تجـده في هـذه الملاحظة من امتيحاء شعوره وفكره والاستفادة مـن مراقبته لنفسه ولغيره . ثم ارسال التجربة عـلى الورق كمـا يرسـل الحديث في مجلس السمر عفوا بلا كلفة ولا مراجعة بين مصدره من النفس ومورده من التعبير .

ان « عبد الرحمن شكري » شاعر ناثر نسيج وحده فـي فنه . ومن توحده في هذا الفن اننا نتلقى تعبيره من «شخصية» فذة لا يحكيها غير صاحبها ، وان جال به الفكر اللماح والاطلاع الواسع في كل مجال .

ولقد عرف شكري الناس معرفة أحزنته أشد من حزنه لجهلهم اياه ، فان عادوا فعرفوه فلعلهم يرضون أنفسهم بارضائهـم لذكراه ..

هؤلاء حادثتهم

نشأت وليس أحب الي من الاطلاع على تراجم العظماء ، ولكنني على فرط شغفي بالاطلاع على تراجمهم لم أشعر قط نحوهم بذلك الشعور الذي يغلب على كثير من الناس ، وهو شعور الميل الى رؤيتهم والاتصال بهم ، ان كانوا من الاحياء . وقد يتفق لي أن اقرأ عن أحدهم او اقرأ له كثيرا من الاوصاف والآراء ، ثم يصل الى مصر وتتاح لي فرصة لقائه ، فلا اكره لقاءه ولا اخف اليه ، ولكنني أستطيع أن أفرض انه لا يزال في بلاده دون أن يكلفني هذا الفرض أقل عناء .

انني أحب غاندي وأكبره ، وقد عبر بمصر في طريقه الى لندن ، وأرادت صحيفة البلاغ أن تندبني للقائه والتحدث اليه ومصاحبته في السفر من السويس الى بور سعيد ، فلم أنشط لهذه الرحلة ، ولم أشعر بأنني ازداد معرفة بالرجل او اكبارا لقدره اذا قضيت معه هذه الساعات .

ومرجع ذلك فيما أظن الى أسباب شتى : منها أنني تعودت أن أرى العظماء والمشهورين في غير « هالتهم » التي تضفي عليهم ما تضفي من الغرابة ، وتثير في نفوس الناس نحوهم حب الاستطلاع او حب الاستشفاف من وراء الظواهر والمراسم . وقد تعودت ذلك لانني نشأت في أسوان حيث كنا نرى في كل شتاء زوارا من الملوك وأولياء العهود والنبلاء وكبار القادة

والساسة ورجال الاعمال ولكنا نراهم على أبسط ما يكونون من البساطة ، فيرتفع عن أبصارنا غشاء الغرابة الذي يحيط بهم ويغري الانظار بالتطلع اليهم ، ونقدرهم من بعيد كما نقدرهم من قريب .

كانت الصحف والانباء البرقية تتحدث عن ملنر وكتشنر ، وكان أهل أسوان يرون ملنر في قهوة بلدية أكثر روادها من الحمالين والتراجمة والاكارين ويرون كتشنر على دكة خشبية أمام بيت من بيوت مشايخ العرب .

وكان علماء الارض الذين تنقل مجلات العلوم آراءهم وبحوثهم وتعتمد عليهم الحكومة في بعوث الكشف والتحقيق يفدون الى أسوان أحيانا فيزوروننا في المدرسة ونزورهم ، ونألف أن يكون كبار العلماء اناسا مألوفين .

ذلك سبب من أسباب .

أما الاسباب الاخرى فمنها حب العزلة الذي ورثته وطبعت عليه ، ومنها انني أتطلع الى معرفة العظمة حقيقة لا صورة ، وأحسب ان رؤية لحظة أو لحظات لا تعرفني بالعظيم ان لم تعرفني به قراءة يوم أو أيام .

لهذا لم أنشط كثيرا الى لقاء مشاهير العالم الذين تهيأت لي الفرص للقائهم ومحادثتهم ، ولم أتوسل بعملي في الصحافة الى محادثة أحد منهم ، الا لغرض غير حب الاستطلاع أو حب التقرب من ذوي الاخطار .

فحادثت أحمد مختار الغازي ، وحادثت سعد زغلول وحادثت أميل لودفيج ، وكان باعث الحديث في كل مرة سببا غير حب الاستطلاع من جانبي أو ارضاء المستطلعين من جمهرة القراء .

احمد مختار باشا الغازي

ومختار الغازي كما يعلم قراء التاريخ القريب بطل من الابطال العسكريين الذين اشتهروا في حروب روسيا والدولة العثمانية .

كانت له شهرة عالمية ومكانة موقرة وارادت الدولة العثمانية أن تنيب عنها في مصر مندوبا ساميا ملحوظ المكانة ، ليستطيع بمكانته – فقط – أن يوازن مركز المندوب البريطاني بما في يديه من السيطرة والنفوذ ، فاختارت مختارا لهذا المنصب ، وعرف في مصر باسم القوميسير .

ولم يكن له عمل في السياسة المصرية ، بل كانت كل أعماله من قبيل التشريفات وحضور الصلاة في يوم الجمعة مع أمير البلاد .

ولكنه كان يسأل : « ماذا تعمل في مصر ؟ » . فكان يقول : « انني احتجاج حي على وجود الاحتلال » .

ولما خطر لي أن احادثه كان هذا الخاطر في الواقع « شيطنة شباب » .. لانني أردت ان انقل باسم هذا الرجل الجريء كلاما يسمع منه ولا يسمع من غيره ، وكان المحمل المصري قد تعرض يومئذ لهجمة من هجمات الاعراب في طريقه الى مكة ، وكانت الجزيرة العربية ولاية عثمانية . فليس اجدر من القوميسير العثماني أن يسأل عما جرى فيها ، وبخاصة حين يجري لأناس من الحجاج المصريين في حماية فرقة مصرية .

كان مختار الغازي ضئيل الجسم قصير القامة ، ولكنه كان مهيب الطلعة كأنما تشتعل في عينيه نار متوقدة . فلما تحدثت اليه لم يتحفظ ولم يبال ان يقول كل ما عن له أن يقوله عن اهمال الانجليز للقوة العسكرية المصرية . ولا أذكر تفصيلات

حديثه اليوم ولا يتيسر لي أن أبحث عنه في مراجعه لنقله بنصه ، ولكنني أذكر أنه قال : « ان الانجليز اهملوا جيش مصر ، وانني بقوة كقوة المحمل افتح الجزيرة العربية ! » .

وكنت اكتب يومئذ في صحيفة الدستور لصاحبها الاستاذ الجليل محمد فريد وجدي بك . فلما رويت له ما سمعت من الغازي ابتسم وقال : « انك لا تذكر حادثة الحدود .. فان كلاما اقل من هذا الكلام قد اثار الانجليز على أمير البلاد . فكيف تظنهم يتلقون مثل هذا الحديث من رجل يتبرمون به وبمركزه في الديار المصرية ؟ »

ونشرنا ما تيسر نشره يومذاك ، ولكنه على خفته بالقياس الى ما قيل قد اقام الدنيا واقعدها في الدوائر الانجليزية ، واحسبه كان من أسباب سعيهم الحثيث في نقل الغازي والمساومة على مركزه في الآستانة .

سعد زغلول

وحديثي مع سعد زغلول خليق ان يشار اليه ، لانه فيم أعتقد كان اول حديث لصحفي مصري مع أحد الوزراء المصريين.

ونحن في العصر الحاضر نفتح الصحف اليومية والاسبوعية فلا يفوتنا حديث وزاري في عدد من أعدادها المتلاحقة .

لقد أصبحت محادثة الصحفيين المصريين لوزراء هذا البلد مادة صحفية دائمة ، وموردا ميسورا لكل قاصد .

ولكن صحف مصر قد عبرت في الجيل الماضي سنوات بعد سنوات ، دون ان يسمع فيها صوت « ناظر » من النظار كما كان الوزراء يسمون في ذلك الحين .

لان النظار كانوا في عزلة عن الرأي العام ، وكان الرأي

العام في عزلة عنهم ، فلا يجسر أحد منهم على الافضاء بحديث عن سياسة « نظارته » الى جمهور المصريين .

***

وعلمت ان سعدا رحمه الله ناظر ولا كالنظار ، وانــه لا يبالي ما يباليه زملاؤه مــن غضب قصر الــدوبارة او غضــب المستشار .

فأردت أن احطم هذا السيد بين الوزارة المصريـــة والأمة المصرية ، وهمني ان احادث سعدا على الخصوص لانني كنــت اعجب به واترقب لمصر نهضة وزارية على يديه ، وكان في تلك الايام عرضة لحملة جائرة من بعض خصومه ، وكنت أعلم انها جائرة . لانهم زعموا انه حارب الجامعة وهو الذي رصد لهـــا عشرة الاف جنيه في ميزانية الدولة ، وزعموا انه حارب التعليم باللغة العربية وهو الذي دفع الطلاب دفعا الى مدرسة المعلمين ، وجعل لهم مرتبات شهرية وهم في سلك الدراسة ليخرج منهــم أساتذة يعلمون الدروس باللغة العربية . وزعمـــوا انه مالأ الانجليز على تقييد التعليم وهو الذي كان يطوف البلاد مـــن أسوان الى رشيد لمحاربة الامية بتعيمم المكاتب الاولية .

فاتخذت من حديثي معــه وسيلة لدفــع هذه الشبهـــات بالأسانيد الرسمية ، وحصلت فعلا على تلك الاسانيد ، ورأيت بعيني ما يثبت لى صدق ما ظننته في عزيمة سعد واحتفاظـــه بكرامته وكرامة منصبه ، لان المستشار العنيد ــ دانلــوب ــ جاء يستأذن في عرض أوراق عليه . ولم يكن مستشار انجليزي يستأذن في عرض اوراق . بل كان ينظر في كل مسألة بنفســه ويعرض ما يشاء من ذلك على الوزير للتوقيع .

نشرت حديثي مع سعد في شهر مايو سنة ١٩٠٨ بصحيفة

الدستور ، ولم احادث سعدا باقتراح من الاستاذ الجليل صاحب الصحيفة ، ولكن الاستاذ الجليل من كتابنا القلائل الذين يعرفون حرية النشر ، وكثيرا ما خالفته فيما اكتب وانا يومئذ في مطلع حياتي الصحفية ، وربما ذهب في مسألة من المسائل الى رأي وذهبت الى غيره ، فلا يرى حرجا في نشر ما اكتب كما أراه .

اميل لودفيج

أما اميل لودفيج فلم يكن لقائي له عملا صحفيا ، ولا أنا أردت ان القاه لآنشر ما يجري بيني وبينه من الاحاديث ولكنه حضر الى القاهرة فأقامت له المفوضية الالمانية حفلة استقبال في دار وزيرها ، واحب ان يتعرف لهذه المناسبة الى أناس من المشتغلين بالادب والدعوة الفكرية من المصريين فكنت أحد المدعوين .

وتصافحنا في مزدحم من الاجانب والمصريين والرجال والسيدات . فقال لي انه يود لو تلاقينا في فرصة اخرى .

وكان صديقي الاستاذ محمود الدسوقي سكرتيرا * قيا للمفوضية الالمانية فدعانا معا الى اللقاء في حجرة من حجرات المفوضية وآثر لودفيج ان نتحدث على انفراد .

وأحسست من اسئلته الاولى انه ينزع في مسائل المجتمع والسياسة نزعة اشتراكية معتدلة ، فقلت انني أوافق الاشتراكيين في كلما يؤدي الى تحسين احوال الفقراء والاجراء ، واخالفهم في كل ما يؤدي الى حرمان الفرد حريته الفكرية والشخصية .

فقال : « حسن . حسن » وكررها مرات .

ثم احسست انه قد اطمأن الي بعد لحظات من الحديث وتبادل وجهات النصر ، لانه افضى الي بآصرح ما دار بينه وبين المصريين والاجانب من الاحاديث العامة في المسائل الوطنية والعالمية .

ثم سألني : « عندكم في مصر قوة تقدم ، وقوة محافظة وجمود ، وقوة بريطانيا العظمى ، فأيها يكون له التغلب فيما تظن ؟ » .

قلت : « أتسأل عن المدى الطويل أم المدى القصير ؟ »

قال : « بل عن المدى الطويل » .

قلت : « سيكون الغلب لا محالة لقوة التقدم » .

قال : « يسرني ان اسمع منك ذلك » .

***

واستطردنا الى الكلام عن مؤلفاته فوجدته أقل ما يكون رضى عن قصصه ، واكثر ما يكون رضى عن تراجمه ولا سيما ترجمة نابليون فيما اذكر ، فقلت له أيضا : « يسرني ان اسمع منك ذلك ، لانه هو الصواب فيما اراه » .

وتركته وفي نفسي أثر من لقائه يقارب الاثر الذي استخلصته من قراءة كتبه ، وهو انه صحفي راق ، وانتواريخه وادبياته اقرب الى تبليغات المجلات او تعليقاتها ، وان كانت تفوق بعض ما يكتبه المتخصصون من البحوث والدراسات ،لانه يكسوها طلاوة لا نجدها كثيرا في تلك البحوث والدراسات .

برنارد شو في أسوان

شمس ربيعية لم تعترف قط بالشتاء ، وأرض تحمل في كل بقعة من بقاعها سمات التاريخ الذي يطوي الفصول

والسنين ، ونيل خالد وقور يوحي اليك ان تقيسه بالوف العهود والإجيال ولا تقيسه بالوف الفراسخ والاميال ، وجبال مـــن حولك كأنها أسوار تدور على صومعة ناسك لا تراه بالعينين ، أو كأنك تسمعه بأذنيك يقول في سكينته الابدية : « ها أنا ذا لم أحفل بشيء في دنياك فماذا أصابني على مر الزمن ؟ لا شيء .. فلا تحفل يا بني بشيء ! » ..

تلك هي أسوان في هذا الشتاء ، وفي كل شتاء ، وتلك هي أسوان التي أقضي فيها بضعة أيام ، وفي وسعي أن أقول بضعة قرون حين تغمرني بتلك الآفاق التي لا تعرف حساب الايام ..

اجازة من عالم السياسة ، ومن عالمنـا الصاخب في غـير طائل ..

وهل في العالم من يستغني عن هذه الاجازة من سنة الـى سنة او من حين الى حين ؟ ..

ساء حظه ان استغنى عنها ، لانه لن يستغني عنها الا اذا أضاع نفسه فيها .

ولقد سن لنا الله سنة الاجازة من الحياة كلها في كل يوم ، فهل نستغني عنها في هذا الشغل الشاغل الذي يبغض الحياة الى نفوس الاحياء ؟ ..

معاذ الله خالق النوم لنا « اجازة يومية » من الحياة ، وليته خلق للحيوان « السياسي » بالطبع كما يقول أرسطو ــ اجازة قهرية ينام فيها عن سياسته .. فان غفلة النوم أروح له مـن هذه الغفلة الدائمة وهو سهران ! ..

وبحمد الله لا زأإل أعرف هذه الاجازات ، وان لم اكن في بطالة ..

الا يقدر أناس على الغفوة بعد الغفوة وهم في وسط الحركة والضجيج ؟ .. بلى يقدرون ..

***

وفي وسط الحركة والضجيج ، بل في وسط المعمعة كما كان يفعل نابليون على ظهر جواده ، استطيع ان أغمض عيني في عالم الاحلام فاذهب في أجازة اليوم أو الشهر أو العام ..

وانني في تلك الغفوة لأيقظ ما أكون ..

لانني في تلك الغفوة أهيم في أحلام الشعر والفن والادب ، فلا تقوى معركة «المارن» نفسها على اخراجي من ديوان شعر أو صفحات كتاب أغلق « أبوابه » علي !

وقلت : هي اجازة في كتاب ، حين قلت لنفسي : « الى أسوان .. الى أسوان ! »

لقد كان كتابا حسنا من وجوه كثيرة ، وأحسن ما فيه أن كاتبه هو الفيلسوف « جود » وموضوعه هو الداعية المشهور « برنارد شو » ..

فالكاتب أعظم من المكتوب عنه في أكثر من ناحية واحدة ، وهي على الاقل ناحية الفلسفة وناحية الآراء الاجتماعية ..

وان شئت فقل أيضا من ناحية الاراء السياسية والمبادىء الدستورية ، وهي اليوم شغل شاغل للصحافة والقراء !

***

بين دوي العجلات ، ودوي الدعوات ، فتحت الكتاب أطوي صفحاته والقطار يطوي الارض « كطي السجل للكتب » ، كما جاء في القرآن الكريم ..

ولم تمض أربعون صفحة حتى وجدت نفسي على أبواب

البرلمان من طريق اخر : طريق الاراء والنظريات ، لا طريق المعارك والازمات ! ..

صاحبنا الفيلسوف « جود » ينظر الى « برناردشو » نظرة التلميذ الى الاستاذ ، لان شو كان شيخا يقود الحركة الفكريه يوم كان « جود » طالبا ناشئا يتلمس طريقه في مضطرب المذاهب والمعتقدات ..

وصاحبنا « جود » يرشح نفسه للنيابه عضوا اشتراكيا مع حزب العمال ، فيكتب الى « برناردشو » مستشيرا قبل الاقدام على هذه التجربة .. لانه أستاذه في هذا الميدان ، ولانه زعيمه في النزعة الاشتراكية قبل عدة سنين ..

وأحسب أنني لو كنت في موضع « جود » لما استشرت الداعية الكبيرة في أمر من الامور ، لانني على ثقة انه يخالف كل ما تقترحه عليه. فلو كنت عضوا في البرلمان واستشرته في الخروج منه لسخر من اقدامك على هذه الخطوة التي لا معنى لها !

ولو كنت كاتبا واستشرته في دخول البرلمان لسخر من اقدامك على هذه الخطوة التي لا معنى لها كذاك ..

لان كل اقتراح تعرضه على الداعية الساخر لا معنى له على الاطلاق !

فلا معنى اذن لان تعرض عليه أي اقتراح !

ولكن « جود » قد أراد أن « يسأل » على ما يظهر مجرد سؤال .. ثم لا يعول على الجواب ..

وهكذا سأل ، وهكذا جاءه الجواب الذي لا شك فيه ..

قال له « شو » ان الفلاسفة الذين دخلوا البرلمان غير قليلين ، ومنهم « ميل » و « برادلو » و « وب » الذي كان عضوا في الوزارة .. فهل صنعوا شيئا هناك ؟

وقال له ان « تشرشل » لم يكن عضوا في البرلمان حتى الحرب العالمية ، ثم ساقوه الى دائرة انتخابية اخلوها له ، لانهم في حاجة اليه ، فقد كان شيئا مهما قبل أن يرشح نفسه للنيابة البرلمانية .

وقال له انه هو نفسه قد رفض النيابة يوم عرضوها عليه وكرروا العرض مرات، ثم لم يندم قط على الرفض والاصرار..

وقال له أخيرا : « ان ورق اللعب لا يزال أمامك على المائدة ، فان شئت فجرب حظك والعب ورقك .. » ، ثم تواضع « شو » في ختام خطابه ، لان التواضع من مثله رياضة محبوبة بين « الادعاءات الكثيرة » .. فقال في شيء من الملل : « وهذه على كل حال آراء رجل كان ينبغي الآن أن يكون ميتا لانه قد بلغ من الهرم أقصاه ! »

ولم ينثن « جود » عن عزمه بهذه النصيحة ، بل كتب الى أستاذه يبلغه أنه ماض في ترشيح نفسه ، فجاءته منه تذكرة بريدية يقول فيها : « حسنا .. انك سوف تتعلم على الاقل شيئا واحدا ، وهو أن تعرف كيف لا تعمل ! » .

ثم شفعها بتذكرة أخرى قال فيها : « أمض في عزمك بكل وسيلة .. فقد تحصل على تجربة مباشرة لا تخلو من فائدة للفلاسفة السياسيين » .

وبعد هذه النصائح المختلفة عدل « جود » عن ترشيح نفسه لانه لم يرض عن أساليب الاحزاب في الترشيح ، لا لانه عمل برأي الداعية الكبير !

***

تلك هي اجازتي في هذا الكتاب ..

اجازة ، ولا اجازة .. !

اجازة لانها رحلة في عالم الفكر والنظر ، ولا اجازة لانها تعود بنا الى السياسة في بعض الطريق ..

وهي من هنا خبرة حسنة ، لانني قد أكون في اجازه والقراء « عاملون » !

وما الرأي بعد هذا في نصائح « برناردشو » لتلميذه الفيلسوف ؟

ما الرأي في تقديره لعمل الاديب ، وعمل العضو في البرلمان ؟ ..

الرأي الذي لا يتسع فيه الخلاف ان الفيلسوف قد يصنع شيئا في المجالس النيابية ولكنه ليس بخير ما يصنع وانه اذا جرب مهنة الترشيح مرة بعد مرة خليق أن ينبذها بعد ذلك لا محالة ، لانها تهبط به الى المساومة الرخيصة والوعود الكاذبة ، ولا ترتفع به قيراطا واحدا فوق مستواه ..

ومالنا الان ولهذه الظلمات ؟ ..

ان الشمس ساطعة باسمة ، وان مشاهد التاريخ ومعالم الخلود من حولنا قائمة دائمة !!

فهلم الى النور .. !

***

لسان الهلباوي

كان في مصر قبل الثورة العرابية حزبان سياسيان : أحدهما حزب محمد شريف باشا ، والآخر حزب أحمد رياض باشا ..

وقد يخطر للقارىء العصري أن تعريف الاحزاب بالاشخاص دليل على أن الحركة كلها شخصية لا علاقة لها بالبرامج السياسية ..

ولكن الواقع أن تعريف الاحزاب بالاشخاص كان سنة معروفة في ذلك العصر حتى في أعرق الامم البرلمانية .. فكان الحزبان المتناظران في انجلترا يعرفان يومئذ باسم حزب غلادستون وحزب بيكنسفيلد ، ولم يكن ذلك دليلا على وحدة البرامج بين الحزبين ..

وقد كان الحزبان المصريان كذلك مختلفين في البرامج ، ولم يكن الخلاف بينهما مقصورا على الانتماء الى هذا الوزير أو ذاك الوزير ..

كان حزب « شريف » أقرب الى التجديد السريع ..

وكان حزب « رياض » أقرب الى المحافظة مع التقدم في رفق وأناة ..

وكان الهلباوي بك ناقما على رياض باشا لسبب من الاسباب ، فكان يطلق فيه لسانه ويكتب عنه ما لا يرضيه ..

فأمر عالما من رجال الدين أن يستجوب « الشيخ ابراهيم الهلباوي » تمهيدا لمعاقبته .. فبدأ العالم المحقق كلامه بتهديد الشيخ الناشيء ، واستطرد قائلا : ان ناظر النظار سيخرب بيتك ان لم تكف عن الحملة عليه ..

فضحك الشيخ ابراهيم وأجابه ساخرا :

ــ انه لا يستطيع ..

فعجب العالم المحقق : كيف لا يستطيع وهو ناظر النظار والحكومة كلها في يديه ؟

وقال الشيخ ابراهيم : وليكن ناظر النظار أو أكبر من ناظر النظار : ليكن أمير البلاد .. ليكن خاقان البرين والبحرين ، بل ليكن « الله » جل جلاله . فانه لا يستطيع أن يخرب لي بيتا ..

ففزع العالم المحقق ، وخيل اليه أن المسألة تنتقل من التمرد والعصيان الى الكفر بالله ، والعياذ بالله !.

فصاح بالشيخ الناشيء حنقا : أهذا الذي تعلمتموه من جمال الدين ؟..

وكان جمال الدين مظنة « الزندقة » عند بعض العلماء في ذلك الحين ، فطاب للعالم المحقق أن يجد في كلام التلميذ برهانا على زندقة الاستاذ ..

وكان الشيخ ابراهيم الهلباوي من تلاميذ جمال الدين .. فلم يكن أسرع منه الى رد التهمة الى المتهم ، وقال لصاحبنا : « بل هذا الذي تعلمناه منكم قبل أن نتعلمه من جمال الدين ! » ..

قال الرجل : أعلمناكم الكفر نحن ؟ ..

قال الفتى المتحذلق : بل علمتمونا أن قدرة الله لا تتعلق بالمستحيل .. وخراب بيتي مستحيل لسبب واحد ، وهو أنه ليس لي بيت ! ..

على أن تلمذة الهلباوي لجمال الدين لم تكن تمنعـــه أن يستطيل عليه بمثل هذه الحذلقة اذا « حكمت القافية » كمـا يقولون ، فلعله هو التلميذ الوحيد الذي كان يجترىء على السيد بالدعابة في مجالس الدرس أو مجالس الحديث ..

قال لي عظيم من عظماء هذا العصر الذين حضروا كثيرا من تلك الاحاديث أو تلك الدروس ـ وكانت كل أحاديث جمـال الدين من قبيل الدروس : ان السيد كان يتكلم يوما عن بعض الرذائل التي تصيب الجسد والنفس الناطقة ، وبعض الرذائل التي تصيب الجسد ولا تمس النفس الناطقة ..

فقاطعه الهلباوي قائلا : يا خبر ! وهل السيد من هؤلاء ؟

فانتفض السيد مغضبا وصاح به : أغرب عني أيها الخبيث .. لعنة الله عليك !

والهلباوي الذي تدل عليه هاتان النادرتان هـو الهلباوي الذي عرفه الناس طوال حياته ، ويمكنك أن تلخصه في عبارة واحدة ، وهي أنه رحمه الله كان « ذلاقة لسان لا تطيق نفسها ولا تريح صاحبها » .

ومن هذه الذلاقة المتعجلة كان يؤخذ الهلباوي في كل ما هو مأخوذ عليه ..

سمعنا عنه قبل أن نراه ، أو نستمع عنه ممن رآه ..

كان أشهر المحامين بين الفلاحين بلا امتثناء ، وكـان من آيات شهرته انها دخلت في « النكتة المصرية » .. فكان الذيـن يساومون القصابين في شراء لسان الذبيحة يقولون اذا اشتط عليهم القصاب في الثمن : والله ولا لسان الهلباوي ..

وسمعنا بشهرته كاتبا كما سمعنا بشهرته محاميا ، فكان عنوان مقالاته « الى أي طريق نحن مسوقون » يتردد على كـل لسان ، وكنا نسمع به وان لم نقرأ تلك المقالات ..

ثم أدركته آفة التعجل وقلة الاستقرار ، فتحول في الوطنية الى خطة « الاعتدال » وفسر الاعتدال بمصانعة الاحتلال ..

ثم كانت الطامة الكبرى ، ونعني بها « قضية دنشواي » التي وقف فيها موقفا ظل نادما عليه طول حياته ..

وعن قضية دنشواي قلت في كتابي سعد زغلول : « لقد كنا أربعة نقرأ وصف التنفيذ في أسوان ، فأغمي على واحد منا ولم نستطع اتمام القراءة الا بصوت متهدج تخنقه العبرات » .

ويستطيع القارىء اذن أن يتخيل مبلغ السخط الذي أثارته في نفوسنا رؤية الهلباوي أمامنا وجها لوجه في دار الجريدة ، يوم القى الاستاذ « لطفي السيد بك » خطابه الذي أشرنا اليه في الكلام على صاحب « المؤيد » .

لقد كان اغتباطي شديدا بما أصابه من الاذى في ذلك اليوم ، ولكني أقول انصافا له أننا رأينا في الرجل شجاعة لم نرها في غيره من المقصودين بالهتاف العدائي ذلك المساء .. فقد أوى بعضهم الى حجرات الدار حتى اطمأن الى انصراف الجمهور الغاضب ، وأبى الهلباوي الا أن يقتحم الجمع خارجا من الدار في ابان الهياج ، ولم يحفل بما تعرض له في طريقه من اللكم والايذاء ..

وغاب الهلباوي زمنا عن ميدان السياسة ثم ظهر بعد الثورة الوطنية معارضا لسعد زغلول ، وكانت المساجلات بين الاحزاب يومئذ على أعنفها .. ولكني أشهد القارىء انني ما وجدت القلم ينبعث في يدي انبعاثا الى القول القارص العنيف كما كان ينبعث في الرد على خطب الهلباوي وأحاديثه ، فردودي عليه فيما أعتقد كانت أعنف ما كتبت على الاطلاق ..

ثم مضت الايام ، وشاء القدر أن يكون للهلباوي شأن في موقف من أهم المواقف في حياتي السياسية ، لانه الموقف الذي

اعتزمت فيه جديا ان اترك الهيئة الوفدية مستقلا عن جميع الاحزاب ..

كان الوفد والاحرار الدستوريون مؤتلفين على عهد الوزارة الصدقية التي عدلت الدستور ..

وجاء اليوم الثالث عشر من شهر نوفمبر فعقد الاحرار الدستوريون اجتماعا في دار حزبهم ، وذهبنا اليه تأييدا لمظهر الائتلاف ..

واذا بالهلباوي هو خطيب الاجتماع ..

واذا بي جالس أمامه على قيد خطوة واحدة ، واذا به يحتال في كلامه ليهملني عند مناسبة ذكري ويتجاوز الاهمال الى التعريض ..

وعلقت على الخطبة في اليوم التالي ، ورآها فرصة سانحة لارغامي باسم الائتلاف ..

وجاءتني دعوة الى بيت الامة حيث يجتمع طائفة من أعضاء الوفد وعلى رأسهم مصطفى النحاس (باشا) ..

ما الخبر ؟ ..

الخبر – كما قالوا – أن مصير الائتلاف معلق على بيان مطلوب منا ، ونحب أن نتلوه عليك ..

قلت : وما شأني في هذا البيان ؟ ..

قالوا : بل الشأن شأنك ، لان فحوى البيان أن الوفد لا يقر ما كتبت عن الهلباوي بك ..

قلت : انكم أحرار فيما تكتبون ، ولكنني سأرد لا محالة على هذا البيان . وأقول لكم سلفا انني أنا المسؤول عما اكتب ، ولم يعلم الناس قط انني اكتب باشارة من احد ..

ثم ذكرت لهم سابقة سعد مع اللورد جورج لويد حين حملت على اللورد من أجل زياراته للاقاليم ، وثار اللورد ثورته

التي أوشكت ان تعصف بالبرلمان ، وارسل الى سعد من يقول له ان اللورد يعتقد أنه هو الموعز بتلك الحملة ، فقال سعد كلمته المأثورة : « انها تهمة لا أدفعها أو شرف لا أدعيه » ولم يفاتحني في الامر حتى انقضت الازمة ، لكي لا أفهم أنه يقترح علي الكف عن الكتابة في هذا الموضوع ..

ولكنهم لم يقتنعوا وقالوا ان صدور البيان من الوفد أمر لا محيص عنه ، فان شئت فاسمعه لتقترح تغييره أو تعديله فيما لا يرضيك ..

قلت : لن أسمعه ، ولن أسكت عن الرد عليه ..

في ذلك المساء زارني مكرم عبيد (باشا) والمرحوم صبري أبو علم (باشا) ، وسألاني : « ماذا صنعت ؟ » .

قلت : كتبت ردا على البيان سينشر في عدد الغد من جريدة « مصر » ـ وكانت من الصحف الصباحية ، وفيها كنت أكتب مقالاتي كل يوم ..

فحاولا وقف المقال ..

فقلت لهما : اذا كنت لم أستطع أن أقنعكم بوقف بيانكم فلن تستطيعوا اقناعي بوقف هذا المقال ..

ثم قلت لهما : انني أملك أن أنشره في غير الصحيفة الوفدية اذا حيل بيني وبين نشره فيها ..

وكان قد جاءني فعلا من يعرض علي العروض الطوال العراض لاعطيه المقال وينشره حيث يشاء ..

وبعد مناقشة طويلة ، قال مكرم باشا : اننا كنا نود لو قبلت رجاءنا وعدلت عن نشر مقالك .. أما وأنت مصر على نشره فاقبل منا رجاء اخر ..

قلت : ما هو ؟ ..

قالا : أن يخلو المقال من الملام الشديد .

قلت : انني اذا ذكرت الحقائق كما حصلت فلا حاجة بي الى ملام شديد ..

ومضت سنوات ثلاث أو نحوها والهلباوي بك لا يقع لي في طريق ..

وحدثت في خلال ذلك جفوة بيني وبين المرحوم عبد القادر حمزة لمناقشة دارت بيني وبينه حين كنت أكتب في صحيفة « الجهاد » ..

ثم زارني يوما بعد طول القطيعة ، وهو يقول لي : لقد مررت بدارك وأنا في مصر الجديدة فحمدت هذه الفرصة وقلت لنفسي : فلنزره ان كان هو لا يزورنا .. فما رأيك ؟ ..

قلت : انه فضل لك سبقتني به وعلي أن أشاركك فيه ..

وزرته في دار البلاغ بعد يوم أو يومين ، فاذا بالهلباوي بك هناك ..

فكدت أهم بالرجوع ..

بيد أن الهلباوي كعادته هجام لا يتردد ، فجذب يدي وبدأني بالحديث .

ولقد خطر لي في تلك اللحظة أن واقعتي معه اخر ما يذكره في تلك المقابلة ، ولكنها على عكس ذلك كانت أول ما ذكره وأسهب فيه ، وجعل يقول وهو يضحك : « كنت والله يا رجل أحب ان يكتب الله لي ثواب اخراجك من تلك الجماعة .. ولكنه فاتني ، وأراك خارجا منها على التسعين .. !

وبعد حديث متشعب دعاني والاستاذ عبد القادر الى قضاء سهرة في منزله .. فاعتذرت ، وخرج معي حين انصرفت حتى افترقنا عند دار محمد محمود (باشا) رحمه الله ..

ويظهر أن رغبته في زيارتي له بقيت تساوره زمنا حتى

صدرت صحيفة « روز اليوسف » اليومية وواليت الكتابة فيها ، فدعانا جميعا الى قضاء السهرة عنده ، وذهبنا اليه مع السيدة روز اليوسف والدكتور محمود عزمي ، وكانت في الحق من أمتع السهرات ، لان الرجل محدث ظريف لا يمله المستمع اليه ..

ولقد كانت أحاديثه في تلك الليلة أكثر من أن تذكر .. الا أنني أذكر من طرائف السهرة أن السيدة روز اليوسف كانت تخاطب السيدة قرينته وهي تظن أنها زوجة ابنه ، لبعد الفارق بينها وبين زوجها في السن .. ولم تزل على ظنها حتى نبهها الى خطئها بنكتة من نكاته التي تناسب المقام !

نابغة من نوابغ عصره لامراء .. كان يسلم من كثير مما يؤخذ عليه لولا تلك الحيوية التي أقلقته وباعدت بينه وبين الصبر والاستقرار .

* * *

طه حسين

للقدماء ضروب من التوقر يستخف بها المحدثون ولا يحفلون بها وحق لهم أن يستخفوا ولا يحفلوا ، لانها ترجع الى أسباب خاطئة في زمانها فضلا عن الازمنة الحديثة ، وليس أدل على قلة الحياة من كثرة البحث فيما يجوز وما لا يجوز ، لانه دليل على كثرة القيود .

وأول ضروب التوقر التي يحق للمحدثين أن يستخفوا بها اجتناب الكتابة عن الاحياء وقصر التاريخ والتقدير على من فارقوا الحياة ، فربما كان مصدر هذا العرف عند القدماء أنهم كانوا يكبرون السلف ويحصرون فيه العلم والمعرفة والادب والخلق والشهرة . كأنهم كانوا يستكثرون الجمع بين العلم والحياة أو بين الشهرة والحياة في وقت واحد : فاما حياة وخمول واما موت وشهرة ، ولا توسط بين الامرين في تاريخ العلماء والادباء وتقدير حظوظ العلم والادب .

وقد جرف العصر الحديث ذلك العرف جرف السيل فكثرت تراجم الاحياء . بل كثرت تراجم الادباء لانفسهم بأقلامهم ونشرها في ابان حياتهم ، وتلك علامة خير وصلاح لان ما خف من جانب التوقر انما يزيد الحياة ، ولان اساغة التاريخ للاحياء تدل على رحابة الصدر والتفاهم على الطبيعة الانسانية في جوانب كمالها ونقصها واطرائها وعيبها. ولان العصر الذي يساغ

فيه الاعتراف ببعض العيوب هو العصر الذي تتوافر فيه المزايا والمحاسن ، فلا يضار المرء بالنقد لانه يعرف حدود الطبيعة الانسانية وما يبقى له بعد النقد من وجوه التحبيذ والترجيح .

ولست أنا من أعداء القديم حبا لعداوة القديم ، ولكنني أكره التحرج الكثير في غير طائل ، وأشايع زمني في هذه العادة خاصة ، فلا أرى حرجا في الثناء على الدكتور طه حسين أو اغتيابه على ملأ من الناس .. ولهذا أجبت دعوة « الهلال » حين دعاني الى اجمال رأيي في الصديق العالم الاديب ، وهو يعدني أو ينذرني بمثل هذا النصيب. وقبلت الكتابة وأنا أرجو الا اكون مغلوبا حين تنكشف الورقتان المطويتان . إذ الكلام في كلينا سر مكتوم عن صاحبه حتى يطلع الهلال ، وعندئذ تشيع الغيبة وينجلي السر عمن أحسن الحيطة والتخمين .

أنا ضامن أن الدكتور طه حسين سيقول انني شاعر ، فليضمن الدكتور طه حسين اذن أن أقول فيه انه كاتب ناتج في الادب ، وخير ما نتجه كتابه « الايام » وكتابه « في الصيف » وهما الكتابان اللذان سرد فيهما بعض ما جرى له في حياته ، فكان فيهما مثلا في البساطة والثقة التي تعزف بصاحبها عن التماس التأثير المصطنع بالتعمل والتجمل والطلاء والتزويق ، فالموصوف في هذين الكتابين صادق بسيط والوصف كذلك على مثل هذه الحال من الصدق والبساطة ، ولكني لم أطلع على شيء يصف به الدكتور ما لم يجر له أو يصف ما يخلقه من الشخوص والحوادث في عالم الرواية . فما علة ذلك يا ترى ؟

أنا ضامن أن الصديق الاديب سيجد عيبا أو عيوبا في شعري يقيسها بمقياسه ويقدرها بمعياره . فاذا ضمنت هذا فليضمن الصديق الاديب أن علل قلة الوصف المخلوق في كتاباته القصصية لعيب فيه ، هو قلة الخيال .. فهو يصف ما يعالجه من

المحسوسات ولا يتخيل ما عداه من نقائضه أو مشابهاته ، والعوض من ذلك عنده أنه يحسن البساطة التي يندر من يحسنها ويشعر بالكفاية التي تأتي من الثقة والاطمئنان الى صدق الشعور ، وهو عوض فيه غنى لمن يحسن الاستغناء .

***

أما طه حسين الناقد فماذا أقول فيه ؟

أقول انه اطلع على الادب العربي القديم اطلاعه الواسع الذي لا جدال فيه ، واطلع على نفائس من أدب الاغريق واللاتين الاقدمين ، واطلع على آثار رهط من كبار الادباء الاوربيين ولا سيما الفرنسيين . كل أولئك خليق أن يحبب اليه الصحة والمتانة والقوة ويبغض اليه الزيف والسخف والركاكة . فهو يختار ما يعلو على مقاييس المقلدين المصطنعين ، وينبذ ما يستطيبه المحدودون من أصحاب الاطلاع القليل أو أصحاب الذوق السقيم ، وله في ذلك قواعد صحيحة ومراجع وثيقة ، واعتماد على فكر لا يتقيد الا بما يرضاه .

والى هنا لا أظن أن الدكتور سيعترف لي بأقل من هذا القدر في ميزان الكتابة المنثورة فأنا رابح على هذا التقدير .

ولا أظن كذلك أنه سيعترف لي في هذا الميزان بلا تعقيب ولا استدراك ، فلنسرع أذن الى التعقيب والاستدراك . ولا لوم ولا اجحاف .

فالدكتور صحيح الاصول في النقد ولكنه لا يوفق بين أصوله وطبيعته في كثير من الموضوعات .

وهو حين يقرر المبدأ على صواب غالب .

ولكنه حين يطبق المبدأ ينحرف أحيانا عن الصواب .

وعلة ذلك كما أسلفنا ان القاعدة والطبيعة عنده لا تتفقان

فالطبيعة عنده لا تحتكم الى الخيال والتصوير الخالق ، ولكنها تحتكم الى الرأي والاطلاع فيقع من هنا التباين والاختلاف

أليس الدكتور يوصي بمبدأ « الشك » أو مذهب ديكارت؟

بلى ! ولكنك حين تقرؤه ترى لهعبارات من التوكيد واليقين قلما تراها في عبارات الشاكين المترددين ، فلا يعجب ـ أكثر ما يعجب ـ الا أشد الاعجاب ، أو اعجابا لا حد له ، ولا يقنع بما دون الامراف وترديد كلمة الاسراف ، ولا يغضب الذين يتحدث عنهم الا غضبا شديدا ، ولا يضيقون الا أشد الضيق ولا يتكلمون الا بصيغة المبالغة في معظم الاشياء .. ثم تنتقل من هذا الى تشكيك يذكرك « بان شاء الله » التي قالها جحا حين ضاع المال .. فقال ضاع المال ان شاء الله ...

كأن الدكتور يخاف من نسيان الشك خوف جحا من تلك الكلمة التي نسيها فضاع ماله ، فأنت تسمع منه : « أزعم أنني ضحكت » وقد أزعم .. وقد أتردد .. وقد أقول وقد لا أقول ». مع ان المرء لو أقسم جاهدا : « والله لازعمن . وتالله لاترددن ، وبالله لاقولن » لما خرج بالقسم مع الزعم ، من دائرة الشكوك .

والقاعدة تستقر على اطراد اذا كانت هي والطبع على وفاق غير أنهما عرضة للاختلاف اذا وقع بينهما الخلاف ، ومن هنا نرى الدكتور يقول مرة أن أصول النقد الغربي واحدة قد وضعها اليونان قديما وفرغوا منها ، وتلقاها منهم الانجليز كما تلقاها منهم الفرنسيون فهم لا يختلفون .

ثم نراه يقول بعد أشهر قليلة أن النقد ليست له أصول مقررة عند الناقد الفرد فضلا عن الامم الكبيرة والعصور الكثيرة ، وأن الناقد يستحسن أو يستهجن والمرجع الى ذوقه وحده في استحسانه واستهجانه .

ولعل هذا التباين بين القاعدة والطبع هو الذي جعل

الدكتور ينكر الجديد اذا جاءه في زي القديم ، أو هو الــــذي جعله يطالب الشعر الحديث بأمور لا يطالب بها في حكم الطبيعة لانه يجري في مطالبته على القياس .

وأقول للقلم : على رسلك ! الى أين ؟ ما أحسبك الا متوقعا الكثير من تعقيب الدكتور واستدراكه فأنت تستوفي المثل وتأمن أن تزيد .

ويقول القلم : ما أحسبني والدكتور مغلوبين على كل حال في هذه الصفقة ، وليس الحق فيها بمغلوب .

نعم ، وحساب الدكتور أو « رصيده » كما يقولون في لغه المصارف كثير ، ففيه بقية وافرة بعد كل تعقيب واستدراك

واذا قلت ان الدكتور أمن استحسان السخيف مـــن الادب فاختلافك بعد ذلك في زيادة القيمة التي يقــوم بهــا الجيــد أو نقصها انما يغير الثمن ولا يغير جودة الشيء الثمين .

***

ومن حساب الدكتور طه حسين أنه رجل جريء العقــــل قويه ، مفطور على المناجزة والتحدي ، يستفيد مما يقتنـــع بصحته ومما يعينه على التحدي والتفرد فلا يحجم عن اتخاذه ، ولهذا تغير اسلوبه الكتابي بعد دراسته للاساليب الاوربية ، فاتخذ له نمطا يوافق علمه بالعربية الفصيحة وعلمه بتقسيم المقاطــع والفواصـــل في الكلام الاوربي ، كمــا يتكلمــه مـــن يجمع بين الحديث والكتابة في وقت واحد . فهــو يتحــدث ولا ينسى أنه يكتب ، ويكتب ولا ينسى أنه يتحدث ، وأسلوبـــه الذي اختاره أوفق الاساليب لذلك جميعا وأولها من نوعــه في اللغة العربية . وليس فيه محاكــاة لاسلوب اخــر في اللغــات الاوربية .

ولو كانت كتابته حديثا محضا لاسترسلت بلا توكيد ولا تكرير ، ولو كانت تقريرا محضا أو درسا محضا لما انحرفت عن أسلوب الكتابة الذي لا يتحدث به القائل ، ولو كانت تقريرا أو درسا على الطريقة الشرقية لما ظهرت فيها المقاطع والفواصل الاوربية ولجرت على سياق قريب من سياق الدروس الازهرية. ولكن كتابته حديث فيه محاضرة ومراجعة وتنظيم ، فلا يوافقها الا ذلك الاسلوب الذي استقل بابتداعه طه حسين ولو غضب المنكرون . وقد يكون غضب المنكرين من أسباب ذلك الابتداع ولاجل هذا الابتداع يغتفر ما في كتابة الدكتور من اسهاب وتكرار .

ولقد أفاد بأسلوبه هذا عملا من لم يفدهم الرأي ولم تقنعهم المناقشة . فرأوا أن العربية قد تكتب صحيحة فصيحة على أسلوب غير أسلوب الجاحظ وعبد الحميد وبديع الزمان وابن المقفع ، ورأوا كاتبا كبيرا يكتبها كما يشاء هو لا كما يشاء القدماء « فتنكتب» وتلذ وتفيد فاستعدوا لاستحسان الفصاحة في غير قيودها القديمة ، وألفوا تعديد الاساليب وطرائق التعبير الى غير انتهاء .

وذلك وحده فتح قدير .

وقد جار نصيب القوة في الدكتور طه حسين على نصيب العمق كما أشرت الى ذلك في نقدي لكتابه « في الصيف » .

وليس بالقليل بين أكبر الادباء العالميين من هو قوي لا يتعمق . فاني لأكتب هذا المقال بعد ان فرغت من قراءة مقال للشاعر الاسباني ميجويل دي انامينو كتبه ليمثل به رأي الاسبان بين سائر الآراء التي نشرتها مجلة « الشهر » الفرنسية عن فكرة هوجو لمضي خمسين سنة على وفاته . فاذا هو يقول ان عمله في اسبانيا على الاقل كان واسعا أكثر مما هو

عميق . وأرجو الا يحسب الدكتور انني أعود به الى التفرقة بين السكسون واللاتين اذا أضفت الى هذا أن شاعر الامة الاسبانية اللاتينية يقرر أن « بيرون » والشعراء الانجليز هم الذين وجهوا أدب تلك البلاد ، وليس فكتور هوجو ولا الشعراء الفرنسيون ، وانه ليقرر ذلك في مجلة فرنسية تحتفل بهوجو في عام ذكراه !

***

والآن وقد أبرأت ذمتي وأفضيت بمجمل الرأي مع الحيطة والمعادلة والتربص فاني على ما أرجح كاسب ولست بخاسر . فإن اختلف تقديري فسأتهم محرر الهلال بافشاء السر واطلاع مناجزي على ما أعددت له قبل أن يتأهب لي بسلاحه ، والمناجزة يومئذ بيني وبين محرر الهلال .

* * *

من وحي أسوان

هبطت أسوان في هذا الشتاء ، وأنا أذكر قول دعبل الخزاعي :

هبطت محلا يقصر البرق دونه
ويعجز عنه الطيف أن يتجشما
وان امرءا أضحت مساقط رحله
بأسوان لم يترك له الحزم معلما

وذكرت كلام دعبل في هذه الرحلة خاصة لاننا قضينا ساعة من الوقت في القطار نتحدث عن السفر الى الصعيد بطريق الهواء . ومسافته لا تزيد في هذا الطريق على أربع ساعات ، وقد تنقص غدا الى ساعتين ، ومسافة السفر بسكة الحديد تنقضي ما بين عشية اليوم وضحى الغد .. ثم ينتهي الى حيث يستمع السامع اذا شاء الى صوت المتحدث اليه من القاهرة والاسكندرية كما يتبادل الحديث مع جليسه في ناديه ، أو يدير المفتاح في المذياع فيصغي الى لندن وواشنطن ، ولا يقصر مكان في الارض عن ابلاغ صوته اليه . أما الاطياف فما أكثرها في دور الصور المتحركة الناطقة هناك ! ان منها لاطيافا تنتقل من هوليوود . واطيافا تنتقل من الجيزة ، ولا تعجز عن التجشم ، ولا يبدو عليها انها تعرف الاعياء كما عرفته أطياف دعبل يرحمها الله .

تلك أطياف وهذه أطياف ، وتلك بروق وهذه بروق ، وما

أكسل البروق والاطياف فيما مضى ، وما أسرع البروق والاطياف في هذا الزمان ، فلو عاش دعبل اليوم لتمنى ساعة من تلك الايام التي كان يتبرم بها قبل الف عام ، ولنظر حوله فرأى أناسا يتسابقون الى المكان الذي قصرت عنه أطيافه وبروقه ، ويغبطون أنفسهم على الحزم الذي ساقهم الى هذا المقام في خاتمة المطاف .

وقصة دعبل في هجاء العالم كله معروفة . أما قصته مع أسوان فخلاصتها أنه وفد مع أخيه ، عبد المطلب بن عبد الله أمير مصر يومئذ فولاه أسوان ، ثم بلغ المطلب هجاؤه اياه فأنفذ اليه كتاب العزل مع مولى له وأوصاه أن ينتظره حتى يصعد المنبر يوم الجمعة فينزله ويصعد مكانه ، ففعل كما أوصاه !

ذكرت كلام دعبل وذكرت كلام أخ له من قبل في هذا المقام . أهو أخوه في النسب يا ترى ؟ أهو أخوه في العربية ؟ أهو أخوه في الزمن الذي عاش فيه ؟ كلا . ولكنه أخوه في صناعة الهجاء ، ولم يكن أخاه في قومه ولا عصره ، لانه كان من أمة الرومان ، وكان عصره في القرن الاول للميلاد ، وهو الشاعر اللاتيني جوفنال Juvenal .

من توافق المصادفات أن الشاعر اللاتيني كان كالشاعر العربي لا يسلم أحد من لسانه ، وأن هجاءه لفنان العصر « باريس » قذف به من رومًا الى جزيرة أسوان ، لان هذا الفنان الساحر كان حظيا عند العاهل دومسيان !

قدم جوفنال الى جزيرة أسوان قائدا للحامية الرومانية في ظاهر الامر وأسيرا منفيا في حقيقته ، ولم يستطع أن يلعن دومسيان فلعن الجزيرة ومن فيها ومن حولها ، ولم يرض عن شيء رآه في ولايته التي فرضت عليه ، فكذب وأقذع في شكواه ، وادعى على مصر والمصريين ما لم يدعه أحد سواه .

قال ان المصريين يعبدون كل حيوان ، ولا يدعون شيئا الا عبدوه حتى الثوم . وما كان المصريون يعبدون الثوم ولا البصل، ولكنهم عرفوا خصائص هذا وذاك فانتفعوا بها في الغذاء وفي العلاج ، وجاء المحدثون في عصرنا هذا فاتخذوا من الثوم عصيرا سموه ماء الحياة .

وقال ان المصريين يأكلون لحم البشر ، وقص من أخبار هذه الدعوة أن أناسا من أهل كوم أمبو الذين يعبدون التمساح هجموا على رجل من أهل دندرة قتل تمساحا فأكلوه !

والتمساح ، واسمه هذا منقول من المصرية القديمة ، حيوان مقدس كالذئبة الرومانية ، ولكنه كان مقدسا عند أناس ورجيما ملعونا عند آخرين ، أما ان الذين يقدسونه يأكلون لحم قاتليه فتلك هي الفرية التي اتفق المؤرخون على تكذيبها ، وحسبوها « اختراعة » من أفانين الهجاء ، جناها السخط على الشاعر الهجاء قبل أن يجنيها بشعره على أبناء كوم امبو الاقدمين ، المظلومين !

ومن عجيب التوافق بين الشاعرين الساخطين أنهما يتفقان في الخاطر كما يتفقان في المزاج ، فكان جوفنال يعجب لمن يسأله عن سبب هجائه كأنما كان الهجاء عنده أصلا من الاصول التي لا تحتاج الى سبب ، وكان دعبل ينظم القصيدة المقذعة ويسألونه عمن قيلت فيه فيقول لهم انها ستجد صاحبها لا محالة ، ويتفلسف فيمضي قائلا : « ان من يتقيك على عرضه أكثر ممن يرغب اليك في تشريفه ، وعيوب الناس أكثر من محاسنهم ، وليس كل من شرفته شرف ولا كل من وصفته بالجود والمجد والشجاعة ولم يكن ذلك فيه انتفع بقولك » .

فهي طبيعة واحدة في الشعراء الهجائين مع تباعد الجنس والزمن ، ولا نظلمهم فنحكيهم حين يجنون بالسخط على

الحقيقة ، فما نحسبهم ظالمين في كل ما تقوّلوه على الناس ، وما نظنهم سخطوا بغير حق في كل مقال ، فلعل اصابتهم النـاس تنفيس عن بعض ما أصابهم منهم ، ولعلهم شقوا بالعالم كمـا شقي العالم بهم . ومن دلائل هذا الشقاء ، أن شاعرا هجّاءً في اللاتينية وشاعرا هجاء في العربية يرددان معنى واحدا عميقا في دلالته على شقاوة الرجلين ، فيقول جوفنال في الاهجية الخامسة عشرة : « ان الطبيعة خلقت للانسان الكريم قلبا رحيما فأودعت فيه ينابيع الدموع ، وهي أكرم جانب في طوية الانسان » .

ويقول ابن الرومي :

لم يخلـق الدمـع لامرئ عبثـا

الله أدرى بلوعـــة الحــــزَن

وقد تكون الحاجة الى الهجاء كالحاجة الى البكاء ، في طبائع الشعراء ، فلنقل ان الشعراء الهجائين ظالمون مظلومون ،وكلهم في هذه الخلة سواء .

***

وأعود الى دعبل فأقول ان الاعياء الذي ابتُليت به أطيافـه وبروقه ليست من فعل الزمن وحده ، ولكنها من فعل الخيبـة التي كانت تلاحقه حيث ذهب ، فلا هو استقر فيصعيد مصر ولا هو استقر في صعيد حيث كان .

وقبل أن ينشط العصر الحديث بأصداء الاثير وأطيـاف الستار الابيض نظر الشعراء الى أسوان بغير هذه العين التـي تستعجز البرق وتتهم الطيف بالقصور : نظروا اليها بعـين الرضا فوجدوا فيها بغية الطلاب على اختلاف المقاصد والآراب ، كما قال جعفر بن ثعلب أبو الفضل كمال الدين :

آسوان في الارض نصف دائرة
الخير فيها والشر قد جمعا
تصلح للناسك التقي اذا
أقام والفاتك الخليع معا
وحسنها ما أراك مبدعة
تروق الا بأختها شفعا

وقد حببت الحياة الى أبنائها حتى قال فيها أحد هؤلاء الابناء من الشعراء :

ما الشيب الا نعمة
مشكورة فاشكر عليه
ما الغبن الا أن تمو
ت وأنت لم تبلغ اليه

وقائل هذين البيتين هو الاديب ابراهيم بن محمد بن ابرهيم ، وهو من أسرة عريقة أمرها في النبوغ عجب ، ومن هذه الاسرة خالاه النابغان أحمد بن علي الملقب بالرشيد ، والحسن بن علي الملقب بالمهذب ، وكلاهما شاعر مشارك في العلوم يدل كلامه على علمه كما قال الرشيد :

ولن يستفيد البدر اكمال نوره
من الشمس الا وهو في غاية البعد

أو كما قال المهذب في وصف ليلة :

لو لم تكن نهرا لما عامت به
أبدا نجوم الحوت والسرطان
نادمت فيها الفرقدين كأنني
دون الورى وجذيمة أخوان

وترفعت هممي فما أرضى سوى
شهب الدجى عوضـا من الخلان

أو كما قال :

لا تـرجُ ذا نقص وان أصبحـت
مـن دونه في الرتبـة الشمـس
كيـوان أعـلى كوكـب موضعـا
وهـو اذا أنصفتـه نحـس

وكانا لهذا مبلوين بالحساد والاضداد ، ولا سيما الرشيد الذي قيل عنه انه تطلع الى الخلافة ، وكان يقول عن نفسه انه خلق من نار . فقال فيه ابن قادوس :

ان قلـت مـن نـار خلقـ
ـت وفقت كـل النـاس فهمـا
قلنـا صدقـت فمـا الذي
أطفـاك حتـى صـرت فحمـا

وقال فيه شاعر يمني ، وكان الخليفة قد أوفده الى اليمن داعيا وسماه علم المهتدين ، فحسده أدباء اليمن وقـال فيـه أحدهـم :

بعثت لنـا علـم المهتديـن
ولكنـه علـم أسـود !

ولكنه كان لا ينظر الى الحساد نظرة الأقـران والانداد ، وقال في أمير رجاه فخيب مناه :

لئـن خاب ظني في رجائك بعدما
توهمتُ اني قـد ظفرت بمنصف

فانك قد قلدتني كل منة
ملكت بها شكري لدى كل موقف
لانك قد حذرتني كل صاحب
واعلمتني أن ليس في الارض من يفي

عليهم رحمة الله جميعا من ظفر بالانصاف ومن فاته انصاف الناس وفاته هو أن ينصف الناس ، فقد بقي بعدهم وحي أسوان ووحي الزمان كما كان ، وكذلك يبقيان ! ..

* * *

في أرض الميعاد

قصة المدينتين

قلت لبعض الاخوان الفلسطينيين أن الله أنعم عليكم بحرية الاختيار في أمر واحد ، ولعله فأل حسن وبشارة صادقة بنعمة أخرى تملكون فيها حرية الاختيار فيما يشغلكم اليوم وتؤثرونه على كل نعمة ، وهو نعمة الحرية القومية .. (١)

انكم تملكون اختيار الاجواء والاهوية في كل فصل من فصول السنة ، وترجعون الى حسابكم أنتم لا الى حساب الافلاك والكواكب لتخرجوا من الصيف وتدخلوا في الشتاء ..

فنحن في مصر ننتظر ثلاثة أشهر أو أربعة لنشيع الصيف ونستقبل الشتاء ، ولكنكم هنا لا تحتاجون الى هذا الانتظار الطويل ، لان ساعة واحدة تنقلكم من حرارة يوليو الى برودة نوفمبر أو يناير في بعض الجهات ، وعندكم المكان الذي يتذكر فيه السمار معاطفهم اذا طالت السهرة كما تطول أبدا في ليالي الربيع .. وعلى مسيرة ساعة منه مكان يتذكر فيه السائرون مظلاتهم في أبرد أيام الشتاء ، وقد أوحى مكان من هذه الامكنة

---

(١) قام امام البيان الاستاذ عباس العقاد بهذه الرحلة في صيف عام ١٩٤٥ قبل حرب فلسطين بثلاث سنوات ولما عاد منها كتب هذه الفصول التيتناولت حالة فلسطين المدنية والسياسية والاجتماعية في ذلك الحين ٠ وقد ٠ اشار فيها الى ما يجب على العرب عمله قبل ان تقع الكارثة ٠

نغمة الفكاهة الى قائد من قواد الحرب وهو في ميدان القتال ، فكتب منه اللورد اللنبي الى وزارة الدفاع البريطانية برقية يصف بها احدى المعارك في أيام الحرب العالمية الماضية فقال : « حلقت طائراتنا هذا الصباح تحت سطح البحر الابيض المتوسط بستمائة قدم ، ولاحقت العدو عند أريحا من هذا الارتفاع ! »

وقد كان الحر هذا العام على أشده في شواطىء البحر الابيض جميعها ، فلم نشعر بوطأته الثقيلة حين تركنا الشواطىء وارتفعنا الى هضاب رام الله أو « رام ايل » الفيحاء ، ولكنني لم أندم على قضاء معظم أيامي في فلسطين بين الشواطىء حيث تفرط الحرارة والرطوبة هذ العام على خلاف المألوف في السنوات الماضية ، لانني لمست فيها عن كثب ذلك الصراع العنيف الذي أحسبه أعجب صراع بين مدينتين متجاورتين في تاريخ المشرق أو في تاريخ العالم بأمره ، وهو الصراع بين مدينة يافا ومدينة تل أبيب ..

ان المدينتين متجاورتان تقيمان في مكان واحد ، حتى ليبدأ الشارع أحيانا في يافا وينتهي في تل أبيب ، ولكن السباق بينهما سباق بين أقدم ميناء على شواطىء بحر الروم وأحدث ميناء عليه .. أو لعله أحدث ميناء على جميع شواطىء البحار .

كانت « يافا » علما مشهورا في التاريخ القديم قبل نيف وثلاثين قرنا من الزمان ..

وكانت « الاسكندرية » جنينا في الغيب يوم كان سوفكليس ويوربيدس وغيرهما من شعراء اليونان يتغنون بجمال « يافا » وينسجون خيوط القصيد حول عروسها الفاتنة « اندروميد » التي ربطها الارباب الى صخرة الشاطىء عقابا لها على رفض البناء بخطابها السماويين ! .. ثم ما زالت حتى نجا بها القدر

من وحش البحر وهو راصد لها ليغتالها .. فأصبحت بعد ذلك كوكبا من كواكب السماء ..

ولا نحسب أن مدينة في الشرق الادنى عرض لها من تعاقب السعود والنحوس ما عرض لمدينة « يافا » في جميع الدول وعلى جميع العهود ..

فعمرت وخربت مرات على أيدي البشر، وعلى أيدي الزلازل والجوائح الطبيعية ، وصمدت للعراك بين الدول التي تداولتها من عهد تحوتمس وسنحاريب ، الى عهد العرب والصليبيين ،الى هذا العهد الذي لا يحسب في تاريخها من العهود الرخية الميمونة، وان كنا لنرجو ألا يكون من أقسى العهود ، لانها قد صمدت في تجاربها الكثيرة لما هو أقسى وأصرم من تجارب العهد الذي هي فيه الآن .

كانت « يافا » تعول في معيشتها على الزراعة وعلى الصناعة وعلى الميناء وما يدور حوله من حركة السفن وحركة البيع والشراء ...

فأصيبت في جميع هذه الموارد ، ولا تزال مع هذا قائمة على قدميها تناضل نضالها المجيد في سبيل البقاء .

فالموالح والثمرات التي عرفت باسمها من قديم الزمن لا تلقى اليوم في الاسواق القريبة ذلك الترحيب الذي تعودت أن تلقاه الى زمن غير بعيد .

والصناعة ــ وأهمها صناعة الجلود وصناعة الصابون ــ قد منيت بالمزاحمين الاقوياء في تل أبيب وما وراء تل أبيب من بلدان الشرق الادنى .

أما الميناء فقد تحول عنه أكثر السفن الى ميناء حيفا الذي تنتهي اليه أنابيب البترول من آبار العراق ، أو الى ميناء تل أبيب الذي بناه مجلسها البلدي ومد الى جانبه ذلك « الكرنيش »

الطويل محاكيا به كرنيش الاسكندرية في كل شيء .. حتى في « الاذرة الشامية » التي تشوى أو تسلق على زواياه ومنعطفاته، ويقبل عليها المتنزهون والمتنزهات الى أواخر الليل !

فهي اليوم تتماسك على مضض ، أو على صبر أليم ، وحسبك من مدينة تفجع في مواردها جميعا ولا تزال ناهضة على قدميها في اباء المناضل المستميت .

***

الى جانب هذه « الشيخة » الصبور فتاة ماكرة لعوب تتيه عليها بدلال الفتنة وجمال الشباب ..

تلك مدينة تل أبيب ..

صبية لم تتجاوز الثانية والعشرين ، اذا نظرنا الى مولدها الصحيح في أعقاب الحرب الماضية ، ولم تتجاوز السادسة والثلاثين اذا نظرنا الى نشأتها في عهد الدولة العثمانية أيام كانت هذه الدولة تحب أن تستعين بالدعاية الاسرائيلية في مقاومة روسيا ودويلات البلقان ، ولم تكن نشأتها يومئذ نشأة مدينة تزخر بالسكان وتحتوي من الوافدين عشرات الالوف ، ولكنها كانت روضة للنزهة وقضاء ساعات الاصيل في أيام الصيف والربيع ، ولهذا سميت « تل الربيع » حين غرسوها في أول عهدها بالظهور ..

كذلك نشأت منذ نيف وثلاثين سنة على غير حذر من عواقبها السريعة لا من جانب الراعي ولا من جانب الرعية ..

أما اليوم فليست هي تلك الروضة البريئة التي يتنسم لديها أهل « يافا » نفحات الغروب من نسمات الربيع ..

يا له من صراع عجيب بين شيخة الامس وفتاة اليوم ..

وانه لصراع ظالم اذا ترك فيه الندان منفردين على النحو

الذي نراه ، لان « يافا » تقف وحدها هناك ولا تقف «تل أبيب» وحدها في ميدانها .. بل تقف هنالك ومن ورائها أمة موزعة بين جميع أنحاء العالم تعينها بأحدث ما اخترعه العلم من الوسائل ، وأخفى ما يعرفه المال من الاساليب ، وأقوى ما تسيطر عليه السياسة من الخدع والاحابيل ..

واليافيون لا يغفلون عن الخطر الذي يستهدفون له ولا يجهلون ان الاساليب القديمة لن تجدي وحدها في اتقاء هذه المنافسة التي تعتز بأحدث ما عرفه الناس من ضروب التعمير والاستغلال ..

فقد علمت من مدير المجلس البلدي بمدينة يافا انهم يعدون العدة لبناء الكرنيش الذي يضارع كرنيش تل أبيب ، ولتنظيم الطرقات التي لا تزال بحاجة الى التنظيم ..

وعلمت أنهم يؤلفون شركة كبيرة لبناء فندق فخم وناد حديث يستغني بهما من يريد الاستغناء عن ارتياد الفنادق والاندية في تل أبيب ..

وهذا كله حسن واجب ، بل هذا كله قليل من كثير ينبغي الشروع في انجازه قبل أن يطول التفكير فيه ..

ولكن الحقيقة التي ينبغي أن تذكر في هذا الصدد قبل كل حقيقة أخرى ، هي ان مدينة « يافا » لن تقوى على هذا الصراع العنيف على انفراد ، فلا بد لها من عون سريع كالعون الذي ترجع اليه غريمتها ، ليجري الامر بينهما على سنة الانصاف ، ويرجى منه اتقاء الهزيمة في هذا النضال .

* * *

الصهيونية والجامعة العربية

اذا عبرت « تل أبيب » رأيت في أكثر أوقات النهار زحاما يملأ جوانب الطرق من اليمين والشمال ، وخيل اليك أن القوم منصرفون من محفل او مقبلون على اجتماع في منعطف الطريق..

لان حركة المرور لا تنقطع في « تل أبيب » من ساعات الصباح الباكر الى ما بعد العشاء ..

ولكنك مع هذا تلاحظ هذا الزحام المتلاحق فتعجب لانك لا ترى فيه أحدا يلوي على أحد ، ولا تكاد تلمح انسانا يومىء الى انسان آخر بالتحية ، الا في العرض النادر الذي يرجع الى محض الاتفاق ..

وأعجب من ذلك انك تنظر الى القوم فلا ترى على وجوههم ما يدل على السعادة : سعادة الظفر بالامنية الروحية والمطلب التراثي القديم .. فلا تملك أن تسأل نفسك : ما هذا ؟ أهؤلاء قوم يهبطون الى أرض الميعاد بعد التفرق في جوانب الارض مئات السنين ؟ ..

وتتخيل المسلمين في عرفات ، أو النصارى في معاهد المسيحية المقدسة ، فلا ترى على وجوه القوم في « تل أبيب » شيئا من دلائل تلك الاخوّة الروحانية التي تفيض على وجوه الحجاج من جميع الاديان ، ولا يقع في نفسك الا أن القوم مسوقون الى هذه الحجة الموعودة ، وان الذي وجدوه هنالك

غير الذي آمنوا به وصدقوه ..

وما في الامر من غرابة اذا رجعت الى الواقع ، او رجعت الى المعقول ..

اذ كانت حجة اليهود الى أرض الميعاد غير الحجة الى عرفات أو الى كنيسة القيامة أو ما شابهها من مناسك الديانة المسيحية ...

فان المسلمين والمسيحيين يقضون مناسك الحج ويعودون الى أوطانهم التي نشأوا فيها وألفوا معالمها ..

أما اليهودي حين يهجر بلاده الى الوطن القومي بفلسطين ، فانه يترك وطنه الذي نشأ فيه وألف معالمه ليستنبت نفسه في وطن جديد .. ولا يفعل ذلك الا بدافع قوي من الامل في تحسين الاحوال ، أو بدافع قوي من الحماسة الروحية .. فليس من شك في أن اليهودي الناجح في وطنه ـ الاوربي أو الامريكي ـ لن يهجر ذلك الوطن ليستأنف الحياة زارعا أو بائعا في ناحية يجهلها من أرض فلسطين ، ولن يبيع نجاحه المحقق بأمل بعيد يمنيه به الزعماء الصهيونيون ، بالغا ما بلغ به الايمان بوعود صهيون ...

ولنذكر أن اليهودي قد ألف العمل في التجارة والصفقات المالية ، ولم يألف العمل في الزراعة وتربية الدواجن وما اليها من اعمال الفلاحة ورعي الحيوان .. فهو لا يقدم على تبديل مألوفاته الا اذا اتفق الشظف والتعصب والامل في المجهول على اقناعه بالهجرة وامداده بالبواعث النفسية التي تساعده على هذا التبديل .. وقلما تعمر هذه البواعث الى زمن طويل ..

والذي نعتقده أن « النقلة الصهيونية » هي نقلة مصطنعة عارضة تخلقها تلك العوامل الموقوتة التي أشرنا اليها ، وينفخ فيها عاملان آخران موقوتان ، وهما دعاية الزعماء واضطهاد

الطوائف الاسرائيلية في أوربا الوسطى واوربا الشرقية .. ولولا هذان العاملان لبقيت الصهيونية حيث كانت أملا من آمال الخيال .

***

ظهرت في الايام الاخيرة مذكرات اللورد «هربرت صموبل» الذي كان أول مندوب سام على فلسطين من قبل الدولة البريطانية ..

وهو سياسي فيلسوف ينتمي الى أسرة اسرائيلية كبيرة في البلاد الانجليزية ، ويتكلم بكثير من الصراحة عن موقف زعماء اليهود من الدعوة الصهيونية عند ظهورها واشتدادها في أعقاب الحرب الماضية . ومن هذه المذكرات يتبين لنا أن ثلاثة من عظماء اليهود الانجليز الذين شاورتهم الحكومة البريطانية في اعلان الوطن القومي بفلسطين كانوا معارضين لاعلانه متشائمين من عقباه ، وعلى رأسهم « ادوين منتاجو » الذي كان وزيرا للهند في وزارة لويد جورج الائتلافية ..

فحماسة الشعوب الاسرائيلية للوطن القومي هي حماسة مصطنعة مبالغ فيها بغير مراء ، وأقل ما يقال فيها انها ليست بالحماسة الاجتماعية التي تقاوم جميع المصاعب وتذلل جميع العقبات ..

وانما قامت الحركة كلها على دعاية الزعماء ، وصادفت هذه الدعاية ما صادفته من النجاح لامرين لا مناص منهما للمثابرة على نشاط الحركة واستمرارها ..

هذان الامران هما : « أولا » سهولة الحصول على الوطن القومي في أعقاب الحرب الماضية . و « ثانيا » صعوبة المقام في كثير من الاقطار الاوربية على اليهود ، لما كانوا يلقونه هناك من ضروب الحجر والاضطهاد ..

فاذا تغير الموقف بعد الحرب العالمية الاخيرة ، فصعب المقام في الوطن القومي وسهل المقام في الاقطار الاوربية بعد زوال الاضطهاد منها وفتح أبوابها لمشروعات التعمير وصفقات التجارة والمال ، فقد تنكشف الحركة المصطنعة عن حقيقتها الباقية فاذا هي أضعف من أن تقوى على الثبات الى زمن طويل .

***

نعم ان الصهيونية تعتمد الان ــ بعد القيام في فلسطين زهاء ربع قرن ــ على عاملين آخرين غير تلك العوامل التي بعثت الحركة من مرقدها في دفعتها الاولى ..

تعتمد الان على الجيل الجديد الذي يولد وينشأ في تل أبيب وما يحيط بها من المستعمرات الاسرائيلية .

وتعتمد كذلك على الصناعات الحديثة التي تأسست في أيام الحرب الاخيرة على الخصوص ، واتصلت معاملاتها بأقطار الشرق الادنى وما جاورها من الاقطار .

لكن الجيل الجديد الذي يولد وينشأ في تل أبيب خليط من الاوطان المختلفة لا يمتزج بعضه ببعض في زمن قريب .

أما الصناعات الحديثة فلها مزاحم قوي من الصناعات الاوربية المتعطشة الى الاسواق ، ولها مزاحم اخر من الصناعات الوطنية التي تعتمد على الشعور الوطني والضرورات الاقتصادية ، ولها بعد هذا وذاك كابح آخر من حرامة الاسواق الشرقية حيثما تنبهت الى أخطار الاحتكار ، وليست أزمات البطالة فيها بعد انتهاء الحرب بالازمات التي يسهل علاجها في هذه الاوقات .

***

كنت أقول لاخواننا الفلسطينيين كلما سألوني عن رأيي في

قضية بلادهم وقضية البلاد العربية : انني متفائل قوي التفاؤل عظيم الرجاء في مصير البلاد الشرقية على الاجمال ..

ولكنني كنت أشفع ذلك دائما بتفسير التفاؤل الذي أعنيه وأعقد عليه عظيم الرجاء ..

فالتفاؤل المحمود هو التفاؤل الذي يقنعك بأن العمل ممكن وأنه مع امكانه مفيد ...

ومتى آمنت بذلك فعليك أن تعمل وأن تحقق الفائدة التي ترجوها وان كلفك العمل أثقل الجهود ..

فلا فائدة من تعظيم خطر الصهيونية والارتفاع به الى ما وراء طاقة الجهود البشرية ..

ولكن لا فائدة كذلك من تهوين هذا الخطر اذا لم يقترن تهوينه بالشروع في العمل المفيد ..

والجامعة العربية خليقة أن تنتهز فرصة العمل في هذه الآونة لانها فرصة سانحة بعد الحرب الاخيرة وفي مفتتح الحياة الجديدة التي تستعد لها الاقطار الاوربية ، ممن كانت على صله بالمسألة الصهيونية أو باضطهاد اليهود ، وقد تفتح أبوابها غدا لمن يؤثرون العودة اليها من أرض الميعاد اذا عز عليهم الوفاء بما وعدهم به الدعاة والزعماء ..

ولا غنى للبلاد العربية على أية حال ـ لخدمة نفسها لا لخدمة القضية الفلسطينية وكفى ـ من تنظيم الصناعات الحديثة ، وتنظيم الاسواق في وجه المعاملات الطارئة عليها ،ومن منع الاحتكار في أيدي فريق من الناس كائنا ما كان ..

واذا استقامت البلاد العربية على هذا الطريق فقد استقامت على الطريق السوي الذي يفضي بها الى النجاح في جميع قضاياها، ومنها قضية فلسطين .

الحالة الاجتماعية

المجتمع الفلسطيني قريب من المجتمع المصري في تكوينه وفي معظم آدابه وعاداته ، ولا يختلفان الا في بعض التقاليد التي ترجع أولا الى امتزاج شعائر الامرة المصرية بشعائر الحداد الموروث من أقدم العصور ، وترجع ثانيا الى الزراعة المصرية والبادية الفلسطينية .. فمصر تنقسم الى عاصمة وقرية ، وفلسطين تنقسم الى حاضرة وبادية ، وان كانت باديتها أخصب من بادية الصحراء وأقرب الى العمار ...

ولا يزال سلطان البادية ظاهرا في تقاليد الامرة الفلسطينية سواء منها الاسلامية أو المسيحية ..

والبادية كما لا يخفي تشتد في المحافظة الاجتماعية وتحب البقاء على القديم ، وأظهر ما تبدو عليه هذه المحافظة الاجتماعية في حجاب المرأة ونظام الحياة الزوجية .. فان بنات الامر في حواضر فلسطين متعلمات على نصيب وافر من الثقافة العصرية ، ولا يندر بينهن من تحسن لغة أو لغتين من اللغات الحديثة ، ولكنهن قليلات الظهور في الحياة العامة ، وقلما تجسر السيدة منهن أو الفتاة على السفور في الطريق الا أن تكون من أمرة قوية السلطان مهيبة الجانب تحميها بسلطانها وهيبتها أن تتعرض للاذى والمهانة من بعض من ينكرون السفور ، وهم كثيرون ..

فاذا سفرت السيدة او الفتاة من البيوت المتوسطة التي لا

تخشى شوكتها فقد يصيبها ما يسوءها في طريقها ، ولا يتقدم أحد لحمايتها ، لانها تستحق ما تلقاه في رأي السابلة من طبقات العامة ومن يحسبون حسابها ..

ونحن لا نتمنى لفلسطين ذلك الشطط الذي تمادى فيه بعض السافرات في بعض الاقطار الشرقية .. ولكننا نعتقد أن تيسير الحجاب والتخفيف من قيوده الثقيلة نافعان للمجتمع الفلسطيني في مرحلته الحاضرة ، ولعلهما نافعان له جد النفع في مكافحة « تل أبيب » ومغرياتها ، لان الفتى الذي يصحب خطيبته أو زوجته في رياضته اليومية يشعر بالامانة الزوجيه ماثلة أمام عينيه في بيته وفي طريقه ، وتغنيه هذه الصحبة المشروعة عن تلك الصحبة الموبقة التي تذهله عن كرامته وماله وقضية بلاده .

ولسلطان البادية القوي أثر في السياسة الفلسطينية .

لان الزعماء هناك هم ــ بطبيعة تكوين المجتمع ــ رؤساء العشائر وعمداء البيوت العريقة في الحواضر ، ولهم من النفوذ في السياسة بمقدار ما لهم من الاشياع والاتباع والاقرباء وانصار العصبيات ، وهم الذين نهضوا بأعباء الحركة في آشدها ، وتعرضوا لمخاطر الموت والابعاد من أجلها ..

وقد أضيف الى هذا العامل الموروث عامل مكتسب من نفوذ الدين أو نفوذ الرئاسة الرسمية ، بل أضيف اليه ما تقضي به أطوار العصر من رعاية البرامج والمبادىء التي تتعلق بها آمال الشعوب في الزمن الحديث ..

ولا تخلو فلسطين من ذلك القلق الذي يخامر نفوس الشباب ويعجلهم على الصبر والانتظار ، ومطاولة الاحوال التي درجت عليها السياسة في أيدي الرؤساء والعمداء .

وقد سألني بعضهم سؤالا صريحا في حفل حاشد عن

الزعامة السياسية والبرامج الوطنية فقال موجها الى الخطاب :
الا ترى أن ينفرد الشباب بقيادة الحركة القومية دون الرؤساء والعمداء ؟ ..

فلمحت على وجوه الحاضرين أن صاحب السؤال ينوب في الحقيقة عن الاكثرين منهم ، وأنه يعبر عن خاطر يساورهم ويدور عليه النقاش الطويل فيما بينهم ، فقلت : ان الشباب يستطيع أن يسمع صوته فلا يقوى الزعماء على اغفاله ، ولا يزال للشباب عمل كثير يضطلع به في خدمة وطنه قبل أن يتصدى لمهمة الزعامة الشعبية ، ولكنه اذا رزق الالمعية النادرة التي ترشحه لقيادة قومه فان هذه الهبة الفطرية لن تخفى على أحد ، ولن تحول الحوائل دونه ودون القيادة التي يستحقها ، اذ لا حاجة به يومئذ الى التوسل والرجاء في طلب الاعتراف له بالكفاءة الممتازة والزعامة الموهوبة ، لان الكفاءة الممتازة تفرض مكانتها على من يعرفها ومن ينكرها على السواء ..

***

والفلسطيني وسط بين المصري وبين السوري واللبناني في الاقدام على الهجرة والتمرس بالمحاولات الاقتصادية في بلاده أو في البلاد الاجنبية ..

فهو لا يهاجر كما يهاجر السوريون واللبنانيون ..

وهو أجرأ على انفاق المال من أبناء الامم التي تعودت المحاسبة على الموارد والمصارف ، وانتظمت على الموازنة بين الارباح والخسائر ، منذ عهد بعيد ..

ولم يزل الى زمن قريب يعول على تربية الماشية والزراعة، ويعول معها أحيانا على التجارة الدورية التي تجري في مواسمها على سنة الزراعة والثروة الطبيعية ..

وفي طبعه استقلال البدوي الذي تثقل عليه رياضة الحياة المدنية وتعنته بما فيها من الموانع والقيود ..

وقد قال لي رجل من أذكياء السوريين وذوي الغيرة منهم على القضية الفلسطينية : ان اخواننا هنا يتعبون كثيرا مع جماعة الصهيونية ، لانها تحاربهم بسلاح لم يتعودوه .

قال ذلك وقد مررنا بخص من القش على شاطىء البحر في جوار « يافا » يملكه رجل يهودي يطهو فيه الطعام لمن يستريحون لديه في أثناء الطريق ، أو لمن يقصدونه في طلب النزهة والاستجمام وقضاء فترة من الوقت في ضواحي الخلاء ..

قال الدمشقي الاريب : لو نزل رجل من بلدنا هنا يوما واحدا وتناول هنا وجبة واحدة ، لما فارق المكان قبل أن يعيد حسبته في ذهنه ويقدر نفقات المكان ونفقات الطعام ومكسب اليوم الواحد ثم مكسب الايام ..

فاذا أعجبه الحال وراقه المكسب ،فما هي الا أيام معدودات حتى يرى اليهودي خصا قائما الى جانب خصه يبيع الطعام الذي يبيعه ويهيىء المائدة التي يهيؤها ، وينزل عن بعض ربحه في أيامه الاولى ليحول قصاد الخص القديم الى الخص الجديد ..

قال صاحبي الدمشقي : فليت الصهيونية تبتلى في هذه الديار بمن ينافسونها هذه المنافسة وينازلونها بمثل هذا السلاح ..

قلت : ان الدرس غير عسير على من يرى الصراع من حوله ويعلم عاقبة التهاون فيه ..

***

وأحسب أن المصريين والفلسطينيين في مجال الهجرة فرسا رهان ، أو فارسان متقاربان ..

فمن فلسطين مهاجرون في مصر ، ومن مصر مهاجرون في فلسطين ، وقد يعيش الفلسطيني في مصر زمنا ثم يعود الى بلاده ، وقد ترى بينهم من يلقب بالانشاصي والبلبيسي والطنطاوي كما ترى بيننا من يلقب بالغزي والرملي والعكاوي، وكأنهم يتسابقون أو يتلاحقون في حلبة واحدة لا يخرجون منها ولا يسرعون الى تبديل معالمها ، سواء في التقاليد الاجتماعية أو معيشة البيوت .. حتى « الملوخية » وهي صحفة مصرية لا يتقنها الطهاة في غير وادي النيل ــ قد أكلناها في بيت أبي خضرة كما تؤكل على أفخر موائدنا التي تعتز بتقديمها في بواكيرها أو معقباتها .. لان أبناء هذا البيت يحافظون على تراثهم القديم منذ كانوا بريف مصر ، ولا تزال لهم قرابة فيه ..

بين مصر وفلسطين جوار هو أقرب من جوار المكان لانه كذلك جوار التاريخ وجوار السكان .

***

مصر والقضية العربية

سألني فنان صهيوني : لماذا يهتم المصريون بمشاكل العرب ؟

فاستغربت سؤاله ، ولم أكتمه أنه سؤال غريب . فعاد يسأل : وما وجه الغرابة فيه ؟ ..

قلت : وجه الغرابة فيه انك تنتظر الاهتمام من يهود أمريكا بجماعة الوطن القومي في فلسطين وتحسبه من الامور الطبيعية التي لا تحتمل السؤال والاستفسار ، ولكنك تستغرب من العرب المتجاورين أن يهتم بعضهم ببعض ، وهم مضطرون الى هذا الاهتمام .. نعم مضطرون اليه ولو لم ينظروا الى المسألة من الوجهة الشعورية أو العلاقة التاريخية الروحية، لان استقرار السلام في الشرق الادنى يعنيهم جميعا ويوجب عليهم أن يتداركوا اخطاره قبل وقوعها بشيء من الحيطة والمعاونة ، ولا استقرار للسلام في الشرق الادنى مع تهديد أمة كاملة في استقلالها ومصالحها ومعالم وجودها .

فلاح عليه انه كان يتوقع جوابا غير هذا الجواب ..

وكان غيره أصرح منه في السؤال ــ وهو كاتب في صحيفة « فلسطين بوست » الانجليزية يراسل بعض الشركات البرقية ــ فسألني :

هل تريد مصر أن تسيطر على سياسة البلاد العربية ؟ ..

قلت : كلا .. ولو جاءتها السيطرة طيعة هينة بغير سعي منها ، لان الاساس الذي قامت عليه الجامعة العربية هو استقلال كل أمة من أمم العرب التي تشترك فيها ، وبذل المجهود المستطاع لتمكين الامم الخاضعة للحكم الاجنبي من بلوغ استقلالها ، وليست لمصر مصلحة في التوسع أو زيادة التبعات والاعباء السياسية والعسكرية والاقتصادية ، ولكنها ترى المصلحة كل المصلحة في التعاون بينها وبين الامم التي تقاربها في الموقع الجغرافي والتراث التاريخي والوجهة السياسية ..

***

ان الشعوذة السياسية وحدها هي التي تسول لبعض الأدعياء ان ينتحلوا لانفسهم صفة الزعامة على جميع الامم العربية ، كما ينتحلون لانفسهم صفة الزعامة المطلقة على الامة المصرية ..

وانما يخدم أولئك الادعياء أنفسهم بتلك الشعوذة البغيضة الى كل من يطلب الحرية وكل من يؤمن في الشرق بمبادىء الديموقراطية ، لانها تضير القضية المصرية كما تضير القضية العربية ، ولا تنتهي الى فائدة مرجوة لغير أولئك الادعياء فيما يتخيلونه من الاوهام والاحلام ..

انهم يتوهمون انهم يروجون في سوق المناصب على قدر البضائع التي يعلنون عنها ويدخلون في روع الاجانب انهم قادرون على تسليمها ..

فهم يبيعون ويشترون في قضية مصر وقضية العرب على السواء ، ويخرجون المسألة من حدود التعاون المحمود الى حدود الزعامة المنكرة وما وراءها من الدعاوى والشبهات .

ونحمد الله على ان الوقائع قد افهمت من يفهم ومن لا يفهم ان مصر تبغض هذا النوع من الشعوذة وتتشاءم به وتأباه ، وأنها

تعاف مزاج الدعاة الذين يدقون الطبول وينفخون الابواق حول انفسهم ، ولا ينزهون مطلبا من المطالب عن صغائر التهريج والتهييج ، لانهم لا يعيشون بغير اجراس المزاد في سوق المساومات .

ليس في ساسة مصر اليوم — بحمد الله — من ينطوي على مثل ذلك المزاج ، فهم لا يعملون لمصر ولا لغير مصر ليحتكروا الزعامة الابدية على هذا الشعب أو ذاك ، ولكنهم يعملون لانهم يعرفون الواجب ولا يتجاوزون به حدوده ، ويخدمون القضية العربية خدمة الاخوان أو الاعوان ، ولا يخدمونها — ولا يستطيعون أن يخدموها — من طريق الضجة الخاوية التي يعلن بها المعلنون عن تسليم البضاعة في أسواق المطامع الاجنبية .

هذا التعاون على أساس الاستقلال الموفور لكل امة من الامم العربية هو قوام الجامعة العربية ، ولا قوام لها بغيره ..

وينبغي أن يفهم الاستقلال هنا على أوسع معانيه أو على جميع معانيه ، فهو يشمل الاستقلال الادبي كما يشمل الاستقلال في عرف العلاقات الدولية ..

فلا أفتيات فيه على حق أمة من الامم في الاعتماد على نفسها والتوفر على جهودها ، وليس من شأنه أن يحمل أحدا على التواكل ولا أن يحمل أحدا على تجاوز الحدود ..

لكل أمة عربية أن تنتظر المعونة من أخواتها وجاراتها ..

ذلك حق الاخ على أخيه والجار على جاره ..

وعلى كل امة عربية ان تعمل ما في طاقتها لتحقيق مطالبها ..

ذلك واجب الانسان على نفسه بل واجبه لنفسه ..

وقوام الامر بين الجميع هو استقلال في الرأي والعمل وتعاون بين اخوان مستقلين في الآراء والاعمال ..

فلا سيطرة هناك ولا قيادة ، ولا اعفاء من واجب ولا تجاوز في الحقوق ..

***

ومن دواعي الغبطة انني رأيت دلائل الشعور بهذه التبعة العظيمة ــ على هذا الاساس القويم ــ في كل من لقيت من ذوي الرأي والمكانة بين خاصة ابناء الامم العربية ..

فهم ــ مع ايمانهم بجدوى هذا التعاون الاخوي في تخفيف الاعباء ومضاعفة القدرة على النجاح ــ يعتقدون أنه قد ضاعف شعورهم بالتبعة وتقديرهم للواجب ورعايتهم للحقوق ، لان عمل أمة تسأل عنه أمم ، وكلمة فريق من المجاهدين قد تحسب على كل فريق .

قلت للكاتب الصهيوني : ان مصر لا تريد السيطرة على الامم العربية ولو جاءتها السيطرة بغير سعي منها ..

وأحسبني أردد كل رأي رشيد في الاقطار العربية حين أقول ان الضجة الخاوية التي سولت لبعض الظنون ان تهجس فيها هذه الهاجسة قد ذهبت الى غير رجعة ، وان العمل الوقور هو العمل الوحيد الذي يليق بخدام هذه القضية الكبرى ، وانه لا يستقيم على أساس كما يستقيم على أساس التعاون الاخوي في حدود الاستقلال المرعي ، ومرحبا بآمال الامم العربية في الامة المصرية ولو طالبتها بالحصة الكبرى من المعونة وتوجهت اليها بالجانب الاكبر من الرجاء .. فحبذا مضاعفة الواجب كلما تضاعفت الطاقة ، وحبذا ان تزداد القدرة ويزداد معها التوفيق الى تحقيق الآمال .

دين وفلسفة

الله

في رأينا أن مسألة وجود الله مسألة « وعي » قبل كل شيء .

فالانسان له « وعي » يقيني بوجوده الخاص وحقيقته الذاتية ، ولا يخلو من « وعي » يقيني بالوجود الاعظم والحقيقة الكونية ، لانه متصل بهذا الوجود ، بل قائم عليه .

والوعي والعقل لا يتناقضان ، وإن كان الوعي أعم من العقل في ادراكه لانه مستمد من كيان الانسان كله ، ومن ظاهره وباطنه ، وما يعيه هو وما لا يعيه ، ولكنه يقوم به قياما مجملا .

ونحن نخطىء فهم العقل نفسه حين نفهم أنه مقصور على ملكة التحليل والتجزئة والتفتيت ، وانه لا يعمل عمله الشامل الا على طريقة التقسيم المنطقي وتركيب القضايا من المقدمات والنتائج واثباتها بالبراهين على النحو المعروف .

فالعقل موجود بغير تجزئة وتقسيم .. وهو في وجوده ملكة حية تعمل عملا حيا ، ولا يتوقف عملها على صناعة المنطق وضوابطه في عرف المنطقيين .. وهو في وجوده هذا يقول : « نعم » ويقول

« لا » ويحق له أن يقولهما مجملتين في المسائل المجملة على الخصوص .

وقد يخطىء القول في بعض الاشياء ولا يضمن الاصابة في كل شيء . ولكن الخطأ ينفي العصمة الكاملة ولا ينفي الوجود . فقد يكون العقل المجمل موجودا عاملا وهو غير معصوم عن الخطأ الكثير أو القليل ، ولن يقدح ذلك لا في وجوده ولا في صلاحه للتفكير . لان « التقسيم المنطقي » يخطىء أيضا كما يخطىء العقل المجمل في أحكامه المجملة ، ولا يقال من أجل ذلك أن التقسيم المنطقي غير موجود أو غير صالح للتفكير .

فاذا قالت البداهة العقلية : « نعم .. هناك اله » فهذا القول له قيمة في النظر الانساني لا تقل عن قيمة المنطق والقياس ، لانها قيمة العقل الحي الذي لا يرجع المنطق والقياس الى مصدر غير مصدره أو سند أقوى من سنده . وقد كان العقل المجمل أبدا أقرب الى الايمان وأقرب الى قولة « نعم » في البحث عن الله ، ولم يستطع التقسيم المنطقي أن يقول « لا » قاطعة مانعة في هذا الموضوع .

وقد أسفرت مباحث الفلاسفة المؤمنين عن براهين مختلفه لاثبات وجود الله بالحجة والدليل ، ونحسب أننا نضعها في موضعها حين نقرر في شأنها هذه الحقيقة التي يقل فيها التشكك والخلاف : وهي أن البراهين جميعا لا تغني عن الوعي الكوني ، وأن الاحاطة بالحقيقة الالهية شيء لا ينحصر في عقل انسان ولا في دليل يتمخض عنه عقل الانسان. وانما الترجيح هنا بين نوعين من الادلة والبراهين ، وهما نوع الادلة والبراهين التي يعتمد عليها المؤمنون ، ونوع الادلة والبراهين التي يعتمد عليها المنكرون . فاذا كانت أدلة المؤمنين أرجح من أدلة المنكرين فقد أغنى الدليل غناءه وأدى القياس رسالته التي يستطيعها في هذا

المجال ، وهي في الواقع أرجح وأصلح للاقتناع بالفكر ــ فضلا عن الاقتناع بالبداهة ــ كما يبدو من كل موازنة منصفة بين الكفتين .

ولا يخفى أن قاعدة الاثبات والنفي في مناقشات الخصوم لا تنطبق على هذا الموضوع الجليل . فليس للعقل البشري خصومة في الاثبات ولا خصومة في الانكار .. وليس على أحد عبء الدليل كله ولا على أحد عبء الانكار كله في البحث عن حقيقة الوجود .

ونحن لا نحصي هنا جميع البراهين التي استدل بها الفلاسفة على وجود الله فانها كثيرة يشابه بعضها بعضا في القواعد وان اختلفت قليلا في التفصيلات والفروع ، ولكننا نكتفي منها بأشيعها وأجمعها وأقربها الى التواتر والقبول وهي : برهان الخلق ، وبرهان الغاية ، وبرهان الاستكمال أو الاستقصاء ، وبرهان الاخلاق أو وازع الضمير .

***

محمد الإنسان

من الاقوال المتواترة بين كثير من مؤرخي المسيحية ، انها انتشرت على يد بولس الرسول ، ولو لم يعرف المسيحيون قبل ذلك بهذا الاسم لعرفوا في الغرب باسم « البولسيين » نسبة الى « بولس » الذي كان يدعى قبل ذلك باسم شاؤل .

ويحمل الاستطراد بعض مؤرخي الغرب الى التماس الشبه بين انتشار المسيحية وانتشار الاسلام في خصلة كهذه بين محمد عليه السلام وخليفة من أكبر أصحابه وهو الفاروق عمر بن الخطاب ، ويزيدهم ولعا بهذا التشبيه ان الفاروق كان ، ايام جاهليته ، أشد ابناء قريش ايذاء للمسلمين ، وكذلك كان بولس قبل ايمانه برسالة السيد المسيح . فانه آمن بها وهو متجرد لاضطهاد اتباعها في حملة من حملاته على الشام .

وهذه مشابهة مغرية بالمقارنة في أكثر ظواهرها واشكالها ولكنها تنقضي عند حقيقة واحدة غفل عنها أصحاب المقارنات بين الاديان ، وتلك هي الفرق بين اثر الدعوة واثر الداعي بالنسبة الى الرجلين ، فان بولس الرسول لم يلق السيد المسيح ولم يعاشره على التحقيق ، ولكن الفاروق كان هو نفسه غرسا من غروس محمد عليه السلام ، وكان في كل ما عمله بعد اسلامه طالبا مجتهدا على يد معلم محبوب .

واجتماع الرجال الافذاذ من قبيل ابن الخطاب هو مقياس

العظمة الانسانية في نبي الاسلام صلوات الله عليه ، فلم يحدث قط في تواريخ الدعوات الدينية ، كتابية كانت او غير كتابية ، ان اجتمع حول داع من دعاتها رهط من أفذاذ الرجال يدينون « لشخص » ذلك الداعي بالاجلال والمحبة ويعترفون له بالتفوق والرجحان راضين مغتبطين كما اجتمع الفاروق وأقرانه حول نبي الاسلام . وقد ظل الفاروق طوال حياته يتحدث بعذوبة قول النبي له « يا أخي » مرة ونداءه له بكنيته « ابي حفص » مرة أخرى ، وظل غيره من الصحابة يحتفظون بكل اثر « شخصي » ظفروا به في أيام صحبتهم له سنوات بعد سنوات .

***

كان للانبياء والدعاة اصحاب كثيرون او قليلون ، ولكنهم لم يذكروا بين عداد العاملين بين ابطال التاريخ ، ولم يجتمع قط في صحبة طويلة للانبياء أمثال هؤلاء الاصحاب الذين حفوا بنبي الاسلام . ولا نحصيهم في هذا المقام ولكننا نذكر منهم ابا بكر وعمر وعثمان وعليا وخالد بن جبل ومعاوية بن العاص ، ومعاذ ابن جبل ومعاوية بن أبي سفيان وأبا عبيدة بن الجراح والمقداد ابن عمرو ، غيرهم من السابقين المتلاحقين في هذا الطراز ، كل منهم أمة في رجل أو قائد على جيش ، أو مؤسس لدولة ، أو سيد بين علية قومه يؤتم به ويهاب ، وكلهم يلحظ في عشرته لنبيه انه يعتز برئاسته وولائه ، فضلا عن ايمانه به ايمان المهتدي بهاديه المصدق الامين .

ذلك مقياس للعظمة الانسانية لم يتحقق قط لعظيم من عظماء بني الانسان ، ولا استثناء لأحد من العظماء الدينيين كان أو من العظماء الدنيويين .

فالصداقة العالية أكبر برهان من براهين العظمة المحمدية

في صورتها الانسانية ، مع صورتها القدسية الالهية .

ومحمد الصديق هو أعظم العظماء بين بني الانسان بمقياس هذه « الظاهرة » النفسية الفذة في تواريخ العظماء .

***

ولسنا نقول غير الحقيقة التي تثبت كل الثبوت بمعيـــار النفوس ، اذا قلنا ان محمدا الزوج أعظم نفسا وخلقا من محمد الصديق .

ان الاراذل من المحترفين بالتبشير الديني قد ابتذلوا كـل أدب من آداب الدين ، وكل خلق من أخلاق الكرام ، حين اتخذوا من زواج محمد عليه السلام مذمة يعيبونه بها ، حـــاشاه ، بين رسل الله بل يعيبونه بها بين عامة الخلق من عباد الله .

ولو كان محمد كما أرادوا ان يكون طالب متعة في زواجه ، لكان عـلى النقيض مما كان ـ في حريمـه عشرات مـــن أجمل العقائل والجواري ، من بيوت العرب ومن سبايا العجم والروم ، يرفلن في الحرير ويتحلين بالذهب والجوهر ، ويأكلن على سماط كسماط قيصر وكسرى وبلقيس .

ولكنه كان وحوله من الزوجات الكهلة والشيخة والتي مات عنها زوجها والتي عز عليها الزواج من غيره، ولم تكن بين هؤلاء غير فتاة عذراء واحدة هي بنت صديقه أبي بكـر الصديق ، وكن جميعا يشكين قلة المؤنة وشظف العيش ويخيرن بـــين الطلاق وبين البقاء على هذه الحال : « يأيها النبي قل لازواجك ان كنتن تردن الحياة الدنيا وزينتها فتعالـين امتعكن واسرحكـن سراحا جميلا ، وان كنتن تردن الله ورسوله والدار الآخرة فان الله أعد للمحسنات منكن أجرا عظيما » .

واذا بحثنا عن بواعث الزواج النبوي كلها لم نجد بينها غير باعثين اثنين كان لهما الاثر الاول والاخير في اختياره عليه السلام

لكل زوجة من زوجاته : وهما مصلحة الدعوة والمروءة العالية .

فقد بنى بثلاث من زوجاته لانهن بنات أصحابه الاوائل : أبي بكر وعمر وعثمان ، وليس للأخوة في الله من سند انساني في بلاد العرب أوثق من الاخوة في النسب والمصاهرة .

وأولى زوجاته خديجة رضي الله عنها كانت في نحو الاربعين يوم بنى بها وهو في نحو الخامسة والعشرين ولم يكن وفاؤه لها وفاء الحس والمتعة ، لانه فضلها على أصغر زوجاته وأحبهن اليه : عائشة بنت الصديق ، عليهما الرضوان ..

وكانت أم سلمة مسنة حين قتل زوجها عبد الله المخزومي في واقعة أحد ، ورملة بنت ابي سفيان تركت اباها لتسلم وتركت وطنها لتهاجر ، وفارقها زوجها بغير عائل وهي في الحبشة ، فطلبها النبي من النجاشي وتزوج بها لكي لا ترتد وهي عائدة الى أهلها . وصفية الاسرائيلية خيرت بين العودة الى قومها وبين العتق وزواج الحرائر غير السبايا .. فاختارت زواجها بالنبي عليه السلام .

واكرم ما كان من بواعث المروءة في اختيار زوجات النبي قد كان ذلك الزواج الذي خاض المبشرون في حديثه ، وزعموه عشقا غلبه على نفسه الكريمة ، حاشاه ، فطلقها من فتاه زيد ليضمها اليه .

فقد كانت زينب زوجة زيد بن حارثة من بنات عمومته عليه السلام رآها منذ طفولتها الى يوم زفافها ، ولم تكن من الغريبات اللاتي يفاجأ برؤيتهن لاول مرة في بيوت ازواجهن ، وانما كان كرم النبي هو الذي حبب اليه أن يرفع من شأن الامير الغريب فيجعله اهلا لمصاهرته ومصاهرة بني هاشم من أبناء عمومته ، وقد شق على الفتاة ان تسكن الى العيش مع رجل من غير اكفائها ، ثم شق على زيد ان يواجه النبي بتسريح بنت عمته

بعد ما كرمه بمصاهرته ، فكان كرم النبي باعثه على اعفـــاء الزوج من ضنك هذه العشرة واعفاء الزوجة من اهمال يصيبها بعد طلاق يذلها ، ثم يقصي عنها الخاطبين الذين لا يتقدمــون مختارين الى مطلقات الارقاء ، وتمت القدوة كما أرادها الانسان بمروءته ، وأرادهــا النبي بتشريف الاسير وجبـر الخاطـر الكسير .

وان الانسان ــ حق الانسان ــ ليعرف من أمــر محمد في اختيار زوجاته جانبا من المروءة المثلى في صاحب الدعوة الالهية ينبىء عن تلك العظمة الانسانية التي تمثلت في مكانة الرجل بين صفوة الابطال من عظماء الرجال ، فهو كذلك لانه انسان عظيم، غاية ما ترتقي اليه شمائل الرجل العظيم .

ولقد كانت معاملة محمد لنسائه صفحة اخرى من صفحات تلك المروءة التي يسمو بها ــ انسانا عظيما ــ الى شرف الرسالة الالهية . فمن وصاياه ، نبيا ، ان خير الناس خيرهم لنسائهم ، ومن رعايته لهن ، انسانا ، قد ضرب للرجال مثلا يعلو على غاية الغايات في العمل بتلك الوصية ، فما من رجل مضت له في العشرة الزوجية سنوات طوال لم تفلت من لسانه الكلمة النابية ولم تبد على وجهه اللمحة القاسية ، ولم يلق أمرأته بحالة من الشدة تبدر من الرجل للمرأة كما تبدر من المرأة للرجل ، وهذه سيرة محمد مفصلة مطولة لم يهمل رواتها خبرا من أخبارها ولـــم يسقطوا حديثا من أحاديثها التي تؤثر بالنقل والرواية ، فمـــا انتقلت الينا منها كلمة زجر ولا نظرة سخط ولا لمحة تأنيب أو زراية ولم يكن له في حالة غير حال الرضا موقف أشد من موقف العتاب في صمت أو السؤال في غير اقبال ، وتلك شيمة من شيم الرفق الانساني تتلاقى عندها طبائع الملائكة وطبائع البشر من ابناء آدم وحواء .

وليس هذا من صنيع رجل لا يعرف الغضب ، فليس من لا يعرف الغضب بانسان ! ولكنها قدرة على النفس حيث تحمد القدرة في موضعها ، وهي أحمد ما تكون من رجل اذا غضب حق الغضب استطاع ان يوقع بمن يغضب عليه ما ليس في طاقة الاقوياء بله الضعفاء . ولقد غضب النبي على أناس خدعوه وكفروا نعمته وقتلوا الآمنين من رجاله واستدرجوهم ليعلموهم الدين كما زعموا فغدروا بهم وانتزعوا منهم ما أحسنوا به اليهم ، فغضب الانسان محمد ، والنبي محمد ، حيث يعاب الرضا والهوادة .

غضب على الغدر والشر والخداع والغلظة ، وجزاهم الجزاء العدل وهم غير اهل للرحمة ، ولم يحرمهم الرحمة وهي ليست عنده أو ليست من الزم شمائله ، بل حرمهم رحمته ورحمة الله لان الرحمة بهم قسوة على كل خلق شريف في الانسان ، فكان غضبه سواء لرفقه ورحمته في خير ما يحمد من انسان .

ولقد يكون الضعف الانساني خير مقياس للعظمة الانسانية في أرفع مراتبها ، بل هو في الواقع اصدق قياسا للعظمة الحقة من منازلة الابطال الاشداء من الرجال فان من يغلب بقدرته قدرة تصارعها وتضارعها عظيم ، ولكن القدرة التي هي أعظم من قدرة القاهر الغلاب قدرة تغلب نفسها باختيارها لترفق بالضعيف الذي لا طاقة له بقهرها ولا غنى له عن رفقها ولا أمل له في النصفة من غيرها ، ولا حصر لمآثر النبي التي شمل بها الضعفاء في عنفوان قوته ونصره ، ولكننا قد نحصرها كلها اذا ذكرنا منها تلك المروءة التي حببت اليه أن يجبر خاطر الاسير الضعيف المنقطع عن أهله ، فيرفعه الى مقام مصاهرته في أقرب الناس اليه ، وتلك آية من ايات « الانسانية » الحقة أروع ما فيها ان تأتي من النبي العربي القرشي الهاشمي وليس أحق

منه باعتزاز النسب في مقام المصاهرة .

ان محمدا الصديق لانسان في الذروة من عظمة الانسانية .

وان محمدا رب الاسرة لفي الذروة من رفق الانسانية .

وان محمدا المنتقم لفي الذروة من بأس الانسانية وعدل الانسانية والرحمة بالانسانية .

ان محمدا السيد لفي الذروة من بطولة الانسانية .

وان محمدا الاب قـــد عرف ضعف الانسان فبكى بكـــاء الانسان ، فكان في موضع ضعفه نعم الاب الانسان ، ونعم النبي المرسل في آن .

بكى وهو يحمل جثة وليده الصغير ابراهيم عـــلى يديه ، ونظر الى الجبل فقال : « يا جبل ! لو كان بك مثل ما بي لهدك . ولكن انا لله وانا اليه راجعون » .

وكان النبي الصادق الامين أقرب ما يكون يومئذ من الانسان الباكي الحزين ، فلما انكسفت الشمس وقيل انها انكسفت لموت ابراهيم أبت النبوة على الاب أن يبلغ بالبنوة هذا المبلغ في سورة الوجد عليها ، فقال الاب الذي انكسفت الشمس حقا في عينيه : «كلا ان الشمس والقمر آيتان من آيات الله لا تخسفان لموت أحد ولا حياته » .

بهذا الحزن الصادق وهذا الصدق الحزين استحق الانسان محمد بمشيئة الله أن يصبح رسوله الى الناس : « والله أعلم حيث يجعل رسالته » ، كما قال عز من قال .

ومحمد « الانسان » هو الذي استحق كرامة النبوة فصنع في تاريخ الكون ما لم يصنعه قط انسان سواه : أربعمائة ألف ألف من بني الانسان هم اليوم في مشارق الارض ومغاربهـــا يقرنون اسمه باسم خالق الارض والسماء كل صباح ومساء : لا اله الا الله محمد رسول الله .

ليلة القدر

ليلة القدر خير من الف شهر ..

والمتفق عليه بين جلة المفسرين ان ليلة القدر شرفت هذا التشريف لنزول القرآن الكريم فيها ، ولا خلاف بينهم على هذا المعنى ، ولكنهم ـ كعادتهم في تحقيق كل دقيقة وجليلة من تفاصيل الآيات والاخبار القرآنية ـ يفسرون نزول القرآن على كل وجه من وجوهه المحتملة. اذ يجوز ان يكون المقصود به ابتداء النزول كما يجوز أن يقصد به نزول الكتاب كله جملة واحدة . ويشير القرطبي وابن كثير الى قول القائلين ان ليلة القدر اسم جنس لجميع الليالي التي تنزلت فيها الآيات ، قد تبلغ عدتها عشرين أو أكثر من عشرين ليلة على هذا الاحتمال ، ولكنه قول لا يأخذ به الكثيرون وان أخذوا بتعدد الليالي التي تنزلت فيها آيات الكتاب .

والمفسرون الذين يحققون ان ليلة القدر ليلة واحدة من ليالي شهر رمضان يرجحون انها احدى لياليه العشر الاخيرات ، وانها على الارجح ليلة السابع والعشرين منه لاسباب لا محل لتفصيلها في هذا المقام .

ومن المفسرين من يرى أن نزول القرآن الكريم جملة واحدة هو المقصود بنزوله في ليلة القدر يعززون رأيهم بأن ابتداء نزول الآيات كان نهارا ، ولم يكن في ليلة من الليالي . لانه من

المتواتر ان النبي عليه السلام خوطب بأول آية كريمة وهو عاكف بغار حراء ، وقيل له (إقرأ) فقال : ما أنا بقارىء ، الى آخر ما ورد في الحديث المشهور ، ولكن الامر الذي لا خلاف فيه أن سورة العلق التي افتتحت بهذه الآيات قد تمت بعد ذلك لما ورد فيها من الاشارة الى الامور التي حدثت كما قال الاستاذ الامام « بعد شيوع خبر البعثة وظهور امر النبوة وتحرش قريش لايذائه عليه السلام » .

فلا خلاف على وجه من الوجوه في تشريف ليلة القدر لنزول القرآن الكريم فيها آيات متفرقة أو جملة واحدة ، وان حكمتها الكبرى انها هي ليلة الفرقان كما جاء في سورة الدخان « انا أنزلناه في ليلة مباركة انا كنا منذرين ، فيها يفرق كل أمر حكيم » .

فهي ليلة القدر لانها ليلة التقدير والتمييز بين الخير والشر والتفريق بين المباح والمحظور ، والامر بالدعوة والتكليف ، وهو اشرف ما يشرف به الانسان لانه هو المخلوق المميز بالتكليف والمخصوص بالتمييز بين جميع المخلوقات . ومن أجل هذا فضل الانسان على الملائكة ، لانها لا تتعرض لما يتعرض له الانسان من فتنة التمييز بين المباح والمحظور وفضيلة الوصول الى الخير والامتناع عن الشر بمشيئة الحي المكلف المسؤول . وقد افتتحت دعوة محمد عليه السلام بالامر بالقراءة واقترن تمييز آدم على الملائكة بفضيلة العلم كما جاء في وصف الخليقة من الكتاب المبين : « هو الذي خلق لكم ما في الارض جميعا ثم استوى الى السماء فسواهن سبع سماوات وهو بكل شيء عليم ، واذ قال ربك للملائكة اني جاعل في الارض خليقة قالوا اتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك ، قال اني أعلم ما لا تعلمون . وعلم آدم الاسماء كلها ثم عرضهم

على الملائكة ، فقال انبئوني بأسماء هؤلاء ان كنتم صادقين ، قالوا سبحانك لا علم لنا الا ما علمتنا انك أنت العليم الحكيم ، قال يا آدم أنبئهم بأسمائهم ، فلما أنبأهم بأسمائهم قال ألم أقل لكل اني أعلم غيب السموات والارض واعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون » .

وقد جاء وصف الانسان بهذه المزية بعد الامر بالقراءة في أول آية خوطب بها عليه السلام : « اقرأ وربك الاكرم الذي علم بالقلم علم الانسان ما لم يعلم » .

وهكذا ينبغي أن نفهم معنى القرآن ومعنى الفرقان ومعنى التقدير والتمييز الذي خص به الانسان ، ومعنى الامر الحكيم الذي يفرق في ليلة القدر ، بأمر العليم الحكيم .

فالشرف الذي فضلت به ليلة القدر انما هو شرف التقدير والتمييز ، وشرف القرآن والفرقان، وشرف التكليف الذي رفع به الانسان الى منزلة أشرف المخلوقات وحق عليه أن يذكره لانه محاسب عليه ، فيذكر في كل يوم وليلة انه مسؤول عما يفعل ، وانه مشرف بين الخلائق جميعا لانه مناط السؤال والحساب .

وعلى هذا المعنى وحده ينبغي أن نفهم التدقير الذي يرتبط بنزول القرآن وبأمر القراءة والعلم الذي يفرق به كل أمر حكيم.

ومن حقائق البداهة التي يدين بها المؤمن بالله انه سبحانه وتعالى يقدر الاقدار ويقسم الارزاق ، ويحيي ويميت ، ويجري قضاءه في صروف الحوادث وأطوال الحياة والاحياء ، ولكن اقتران ذلك بليلة واحدة من ليالي الزمن أمر لا يقول به المؤمن بالاله الواحد السرمد الذي لا أول له ولا آخر ، ولا تأخذه سنة ولا نوم ، وانما يتخلف هذا الاعتقاد من بقايا الاديان التي ظلت تعدد الارباب وتخص كل رب منها بوقته وسمائه ، أو تشبهه بما يعده الانسان من أعمال أصحاب التصريف والسلطان من

بني نوعه المحكمين فيه ، وتجعل للسعود والنحوس اياما تتعلق بمطالع النجوم ومدارات الافلاك ، ويستنزلها العارفون بأسرار النجوم عندهم توسلا اليها بشفاعة القرابين والضحايا ورموز الطلاسم والعبادات .

ومن بقايا تلك العقائد الوثنية تسربت عقيدة التقدير في احدى ليالي السنة ، وسرت الى بني اسرائيل بعد اختلاطهم بعباد النجوم والارباب الارضية أو الفلكية في أرض بابل فأخذت سبيلها مع سائر الخرافات والاسرائيليات الى عامة المسلمين ، فظهر في تلك الاساطير التي أحاطت باخبار ليلة القدر وعدلت بتلك الليلة المباركة عن معناها الذي يتصل به شرف الانسان وشرف التمييز والتكليف الى معنى يناقضه ويبطل حكمته ويبطل حكمة الاسلام في جملته ، لانه يرتهن السعادة والشقاء والمثوبة والجزاء بغير الاعمال والمقاصد ويعود بها الى أرصاد الليالي والايام ورموز الشفاعات والقرابين .

كان قدماء البابليين يحتفلون بسنتهم الزراعية ويبتهلون الى أربابهم في مطلعها ان يغدق فيها المطر ، ويورق فيها الشجر ، ويجعلها سنة أمن ورخاء ونعمة وثراء ، لاعتقادهم ان أرباب النجوم تقضي في الليلة الاولى من مطلع السنة كل ما يقضى من أمور الخصب والجدب والرزق والحرمان والحياة والموت . وكان من عقائدهم ان للاعمار شجرة تخضر أوراقها أو تذبل مع اخضرار الشجر على الارض وذبوله، فمن كتب له العيش اخضرت ورقته ، ومن قضي عليه بالموت ذبلت ورقته وسقطت فلم يبق منه غير عود كعيدان الحطب بغير روح . وكان من عقائدهم مع هذا ان اخضرار الورقة وذبولها مرتهنان بمراسم الصلاة وطلاسم السحر التي يتولاها الكهان ويفرضون من اجلها القرابين والهدايا على طلاب الصلوات والدعوات .

وقد نقل الاسرائيليون كل ذلك الى عيد من أعيادهم التي اختلطت فيها عبادة الاله بعبادة الارباب الوثنية ، ثم تسربت منهم الى عامة المسلمين ، وانخدع بها من غير العامة من كان يحسب ان القوم ينقلون ذلك عن مصادر الكتاب الصحيحة ، فأضافوا الى ليلة القدر اكثر ما كان يقال عن مراسم السنة الزراعية عند البابليين ومراسم التفكير عند كهان اسرائيل .

ولعل انتقال بعضهم بليلة القدر الى منتصف شهر شعبان، مع وضوح نسبتها الى شهر الصيام في القرآن الكريم ، انما جاء من ذلك الاعتقاد القديم في السنة الزراعية اذ كان شهر شعبان انما سمي بذلك لانشعاب عيدان الشجر فيه على ما جاء في روايات الجاهلية ، فهو اشبه بما كان يقال في بابل القديمة عن شجرة الحياة وعما يعرض لها من «انشعاب» الأعمار بين الاخضرار والذبول .

لكنه في الواقع « انشعاب » آخر بين العقائد الاسلامية في صميمها وبين العقائد التي تخلفت عن عبادة الاوثان والارباب من دون الله .

فالعقيدة الاسلامية في صميمها لا تتمثل في شيء كما تتمثل في التكليف والتمييز ، وفي المخلوق العاقل المسؤول الذي يدان بعمله ولا يصيبه الجزاء أو الغفران من عمل غيره ، وهنا تنشعب العقائد بين ليلة القدر في شريعة المسلم وبين اشباه هذه الليالي في كل شريعة يناط فيها قدر الانسان بغير الاعمال والنيات. وان المسلم ليعود الى اسلامه الصحيح كلما احتفل بليلة القدر ، وهو يذكر أنها ليلة فرقان وحسب ، وانه يدعو الله فيها ليشرف بما شرفته به الليلة المباركة من آيات التقدير والتذكير .

***

القصة في القرآن الكريم

القصص في اللغة هو تتبع الاثر لمعرفة المكان الذي نزل به أصحابه أو سلكوه .

ومن هنا قيل للحكاية عن القوم انها قصة ، لان من يحكي عنهم يتتبع أثرهم ليعرف خبرهم ، فهو يقص سيرتهم في الزمان ، كما تقص السير في المواقع والجهات .

وقد وردت الكلمة في القرآن الكريم بالمعنيين في سورة واحدة . فجاء في سورة الكهف : « فارتدا على آثارهما قصصا » بمعنى تتبع الاثر لمعرفة الطريق ، وجاء فيها : «نحن نقص عليك نبأهم بالحق انهم فتية آمنوا بربهم وزدناهم هدى » بمعنى تتبع الخبر في التاريخ .

ولكن كلمة القصص في القرآن الكريم تنصرف على عمومها الى معنى الهداية الى الاخبار والآثار الباقية من سير القرون الغابرة ، وهي تساق في الكتاب لمقاصد كثيرة تجمعها كلها هذه المقاصد الثلاثة :

فهي تساق للعبرة والموعظة ، أو تساق للقدوة وتثبيت العزيمة ، أو تساق للتعليم والهداية .

وتتلى قصص العبرة والموعظة في القرآن الكريم لتذكير الاحياء بمصائر الغابرين من الامم الاولى ، وكانت توصف بأنها أساطير الاولين من الكلام المسطور أي المكتوب ، وقد تكون الكلمة احدى الالفاظ التي تعربت عن اليونانية، لان«الاستوريا»

عندهم بمعنى الخبر المسجل أو المعروف ، ولا يبعد أن يكون اليونان قد أخذوها عن العرب لانهم أخذوا الكتابة عن الامم السامية وسبقهم عرب الشمال وعرب الجنوب الى رسم الحروف ، ولا تزال أسماء « الالفا والبيتا والجما » عندهم منقولة من الالف والباء والجيم ، بل يرجع أن كلمة « كلموس » اليونانية أي « القلم » منقولة عن العربية ، لان القلامة أصيلة فيها ، ومن مادتها « القصم والقضم والقطم والقحم والقرم » وكلها تفيد القطع كما يفيده التقليم ، وكذلك السطر والشطر بمعنى الخط أو القط في العربية ، يقال سطره وشطره وخطه وقطه بمعنى واحد ، فليس من البعيد أن تنتقل هذه الكلمات مصاحبة للكتابة التي لا شك في انتقالها من الامم السامية الى اليونان .

وقد ترددت في القرآن الكريم أخبار الاولين على سبيل العبرة والموعظة ، وكان مدارها جميعا على تحذير الامم الباقية من الاغترار بالمتعة .. كما اغترت بها الامم الخالية ، وكانت هذه العظات ألزم العبر لتلك الامم التي آمني بالاوثان والارباب ولم تؤمن بالوحدانية ، فانها اذا علمت أن أربابها لان تحميها من الكوارث ، ولا تقدر على اصابتها بها ، ذهب ايمانها بتلك الارباب ، ووجب عليها ان تبحث عن قوة الهية تملك القدرة التي عجزت عنها معبوداتها .

وفي القرآن غير القصص التي تدعو الى العبرة بمصير الكافرين أنباء تروى عن الانبياء الذين أرسلوهم الى الامم الغابرة فكذبتهم وتنكرت لهم ، ثم ظهرت دعوتهم وحاقت النقمة بمن كذبوهم وانكروهم ، وبقيت قدوتهم لينتفع بها من يعمل عملهم ، ويقفوا اثرهم ، ويلقى من قوله مثل ما كانوا يلقونه

من أقوامهم ... « وكلا نقص عليك من انباء الرسل ما نثبت به فؤادك » كما جاء في سورة هود .

وهذه على الجملة حكمة القصص التي جاءت في الكتاب عن جهاد الرسل وعاقبة الصبر على الدعوة، تثبيتا للافئدة وتبشيرا للدعاة والمصلحين بعاقبة الصبر على الجهاد .

***

ومن قصص التعليم والهداية في القرآن قصة موسى والخضر عليهما السلام، يرى بعض المفسرين آنها درس لاصحاب الشرائع يفرقون به بين شريعة الظاهر وشريعة الباطن كأنهما على اختلاف ، كما اعتقد أناس من القائلين بالاسرار والاشارات الخفية . ويرى الثقات ان القصة درس لاصحاب الشرائع حقا ولكنهم يفهمون من هذا الدرس ان سعة العلم من شروط القضاء بين الناس ، وان العدل منوط بمقدار ما يعلمه الحاكم من شؤونهم وحقائق أحوالهم وأسباب مصالحهم ، فلا يتساوى في العدل قاض يعرف تلك الاحوال على حقائقها وآخر ينظر فيها بما يبدو له ظاهرها ، وذلك درس لا غنى عنه لمن يقضي بشريعة من الشرائع تجري على قسطاس واحد ولا يختلف بين ظاهر وباطن ، كما يعتقد القائلون بالاسرار والاشارات الخفية ، فلا حاجة بالقاضي العادل الى غير العلم بحقيقة القضية التي بين يديه ، ثم لا يختلف فيها بعد ذلك قولان .

ومن الواجب ان نذكر ان قصص القرآن جميعا تساق للموعظة والتعليم وحسن القدوة ، وانها تأخذ من التاريخ ما فيه الغنى لكل سياق أو مقصد يعنى به الدين . فليس المقصود بها تفصيل التواريخ ولا تسجيل الوقائع والسنين ، وليست

حكمتها موقوفة على شيء غير ما فيه الكفاية لهذه المقاصد كما يفهمها الناس .

ولكن الجانب التاريخي المحض من القصص الديني قد كان له درسه النافع للمتعجلين من أدعياء التحقيق ــ العلمي ــ منذ أوائل القرن التاسع عشر ، لعلهم لا يستغنون عنه بعد انتصاف القرن العشرين . فقد كان ورود الخبر في كتاب من كتب الدين دافيا عندهم للجزم باختلاقه وحسبانه في عداد الخرافات أو في عداد الخيالات الشعرية التي لم تحدث قط في غير أوهام الشعراء ، فلم تمض سنوات على الشروع في حركة البحوث الحفرية حتى ثبتت علامات الصبغة التاريخية لكل خبر من أخبار تلك الحوادث المشكوك فيها ، وثبت ان علماء التاريخ كانوا خلقاء أن يجهلوا كل شيء عن تلك الحوادث لو لم يعلموا بها من مصادرها الدينية ، قبل أن يتوفروا على حركة الحفر والتنقيب في آثار الشرق الادنى وما جاور بلاد النهرين .

ومن هذه الاخبار ما كانوا يقرءونه في الكتب ويمرون به على غير انتباه لانهم لم يعرفوا له خطرا جديرا بالاهتمام في غير المصادر الدينية ، فشكوا في وجود عاد وثمود وشكوا في حملة الفيل وهلاك أصحاب الفيل ، وشكوا في الزلازل والاعاصير والطوفانات والجوائح والحروب التي سيقت مساق العبرة في قصص القرآن وانفرد بها احيانا بين كتب الاديان . فلما حققوا الآثار وصححوا المراجعة تبين لهم أن عادا وثمودا من أخبار بطليموس ، وان هلاك أصحاب الفيل من تواريخ الحبش والروم ، وأن المدن التي ساخت بها الارض أو عصفت بها الرياح حقيقة لا تقل في صدقها عن حقائق طيبة ومنف وطروادة ومسيني ، وان بقايا اللغة تقول لنا اليوم بعد المقارنة بين اللغات كل ما كذبوه من الاصول أو من الصلات بين شعوب الامس

وأعراقه في أحاديث المتدينين ، وانهم هم في انكارهم وتحقيقهم المزعوم قد أبدعوا لهذا العصر صورة جديدة من صور الخرافة لم تكن مقبولة عند المخرفين الاقدمين . وهي خرافة العالم الذي ينكر ما يجهل ويجهل ما ينكر ، ويظن ان كلمة «التحقيق» وحدها سلطة تخولهم دون غيرهم حق الاستئثار بالرفض والانكار .

واذا أنكر هؤلاء المتعجلون كل شيء في الدين فلعلهم لا يستطيعون ان ينكروا اليوم هذا الدرس الذي تعلموه من كتب الدين ، فقد تعلموا على غير قصد منهم ان التعجل بالانكار جهل شائن كجهل المتعجلين بالتصديق .

***

رمضان شهر الارادة

كان منا رجل من رجال الاعمال ، وسفير، وشاعر، وكاتب وصحفي ، ومنا المسلمون والمسيحيون ، وجرى حديث الصحة ونظام التغذية المفضل فقال رجل الاعمال: «انني تعودت بين حين وحين أن اصوم اسبوعا أو اسبوعين عن كل طعام غير السوائل وافضل من السوائل عصير البرتقال » .

وقال السفير : « انني أصوم فترة كهذه واكتفي فيها كل يوم بوجبة أو وجبتين من اللبن ، ولكني أفضل عليه السوائل الاخرى » .

وقلت : « انني أعالج الصوم مرة في كل أسبوع ، واختار يوما من أيامه للصوم عن كل طعام غير السوائل ، وأفضل منها مغلي البابونج أو عصير الليمون الحلو أو عصير البرتقال ، وقد أحتاج في أيام الاسبوع الاخرى الى اسقاط وجبة من الوجبات الثلاث ، وأكثر ما تكون وجبة العشاء » .

ولا أذكر مما قيل في هذا المعنى غير ما تقدم ، ولكني على يقين ان القارىء يسمع في مجالسه مثل ما سمعنا في ذلك المجلس وفي غيره . فان لم يسمع حديثا عن الصيام لاصلاح المعدة سمع حديثا عنه لاجتناب السمنة أو لزيادة نصيب الجسم من بعض الاغذية الحيوية ، او سمع عن الصيام السياسي الذي يراد به

فرض رأي أو الاحتجاج على معاملة ،فليس اكثر من انــــواع الصيام في هذه الايام .

ولا حاجة الى الافاضة عن الكلام على أنواع الصيام التـــي يعالجها الجنس اللطيف حرصا على الرشاقة واعتدال القوام ، أو رياضة له في سبيل الجمال تشبه الرياضة التي يعالجها اللاعبون في سبيل القوة والنشاط . فان حديث الصيام من هذا القبيل في كل بيت وكل ناد ، وبلغ من شيوعه أنه أخاف المصانع التي كانت تعول على الشراب الخفيف كالجعة والمنقوعات وما اليها وتعلم ان وجود الجنس اللطيف مع الرجال اكبر مشجع على الاكثار مـــن هذه الاشربة ، فاننا نقرأ أخيرا عن الجعة التي تخفف السمنة وعن التي تزيل الرواسب وتحفظ على الجسم «هندامه» واعتدال قوامه .

ووراء هذه المنشورات مصالح تلك المصانع على الاقل في بعض الاحايين .

ليس زماننا اذن زمان الاعراض عن الصيام كأنه عادة من عادات الاقدمين التي عفى عليها الدهر كما يقولون ، بل هــو في الواقع زمان تزيد فيه الوان الصيام ولا تنقص ، ويكثر فيه اختلاف انواعه ولا يقل ، فما علمنا من عصر قط انه استحــق ان يسمى عصرا « صياميا » كالعصر الذي نحن فيه .

ونقول « الصيام على اختلاف انواعه » لان الانـــواع التي ذكرناها آنفا ليست هي كل الصيام الذي يشتغل به ابناء العصر الحاضر ، فتلك جميعا انواع « جسدية » تراد لحفظ الصحة أو حفظ الرشاقة أو حفظ القوة والنشاط ، وغيرها كثير مـــن أنواع الصيام يدرسها ابناء العصر الحاضر ولا يطلق عليهـــا وصف « الانواع الجسدية » .. لانها تراد لتربية الخلق ورياضة النفس وتعويد الانسان ان يملك عاداته كما يشاء .

وقد تفتح باب البحث في هذه « الصيامات » على أثر التوسع في دراسة الاديان والمقارنة بينها، وعلى أثر التوسع في الدراسات النفسية وعلاقة العقل فيها بالبنية ، وعلى اثر القول بامكان توليد الامراض العقلية وشفائها بتعاطي بعض العقاقير أو الامتناع عن بعض أصناف الطعام .

وكثر الكلام على « اليوجا » الهندية ، كما كثر الكلام على عادات المتصوفين والنساك التي ملكو بها زمام اجسادهم وضمائرهم ، فلا يقل الكلام على الصيام في سبيل الروح والضمير عن الصيام في سبيل الجوارح والعضلات .

والصيام الذي فرضته الاديان احق هذه الانواع بالبحث عن دواعيه وعن معانيه ، وقد طال القول في أصل الصيام الديني قديما قبل ظهور الاديان الكتابية فلا حاجة بنا الى استقصائه في هذا المقام .

أما حكمة الصيام في الاديان الكتابية فهي محصورة في أغراض معدودة : وهي تعذيب النفس والتكفير عن الخطايا والسيئات ، وتربية الاخلاق على نحو من الانحاء .

والدين الاسلامي هو الدين الكتابي الوحيد الذي فرض كتابه الصيام فترة معروفة من الزمن على نحو معروف من النظام .

ولا خلاف بين الائمة في الحكمة المقصودة بهذه الفريضة وهي تقويم الاخلاق وتربيبها ، وان تعددت الاخلاق التي تذكر في هذا المقام .

فمن الجائز كثيرا ان صيام الغني يعلمه الرحمة بالفقير ، ولكنه مقصد لا يشمل الفقراء كما يشمل الاغنياء وكما ينبغي في كل فريضة عامة لا تخصص بانسان ولا بطائفة من الناس .

أما الخلق الذي يعم الاغنياء والفقراء ولا يستفاد من

فريضة عامة كما يستفاد من الصيام فهو «الارادة» ألزم الصفات لكل انسان . ان الارادة لازمة في كل تكليف وفي كل تبعة وفي كل فضيلة ، فلا قوام للفرائض والفضائل جميعا بغير هذه الارادة .

وهي لازمة للفقير لزومها للغني ، فان كان احدهما أحوج اليها من الآخر فهو الفقير . لان الغني قد يجد عنده ما يعوض التفريط في أعمال الارادة والعزيمة والحزم والمضاء ، وليس هذا العوض ميسورا للفقير الا بزيادة الجهد والعناء .

الارادة اذن هي فضيلة الفضائل في الصيام .

ومتى عرفت هذه الحكمة فآداب رمضان كلها محصورة فيها مستفادة من معناها ، ولا حاجة بالصائم الى أدب غير أن يذكر انه يريد الصيام وانه يقوم بفريضة يطلبها ويعلم نفعها ويحمل جهدها ، وان لم تكن مفروضة عليه .

فليس من أدب رمضان ان يتململ الصائم وان يتجهم لحدثيه وأن يبدو منه ما يدل على الضيق بالفريضة كأنه مكره عليها مطيع لها بغير رضاه .

وليس منأدب رمضان أن يهرب الصائم من ارادته بقضاء النهار كله في النوم تاركا للطعام ، لانه غافل عن مواعيده غير متنبه اليه .

وليس من أدب رمضان ان يفلت زمام الارادة بعد غروب الشمس فلا يعرف الصائم له ارادة تصده عن الافراط في الطعام والشراب الى موعد الامساك .

وليس من أدب رمضان أن يصوم الانسان وهو معرض للتهلكة بصيامه فان من كان مريضا لم تجب الفريضة عليه ولا معنى لاداء الفريضة اذن ، الا انه يريد لنفسه الهلاك . وهذا محرم عليه .

كلمة « الارادة » وحدها تلخص آداب رمضان ولا تحتاج الى اسهاب في تفسيرها وتعديد أنواعها .

ومزية رمضان انه فريضة اجتماعية مع فرضه على آحاد المكلفين ، فهو موعد معلوم من العام لترويض الجماعة على نظام واحد من المعيشة وعلى نمط واحد من تغيير العادات ، وليس أصلح لتربية الامة من تعويدها هذه الاهبة للنظام ولتغيير العادات شهرا في كل سنة ، تتلاقى فيه على سنن واحد في الطعام واليقظة والرقاد وما يستتبع ذلك من أهبة الجماعة كلها لهذا الشهر خلال العام .

واذا استطاعت الجماعة ان « تريد » ذلك التنظيم وذلك التغيير، فليس ثمة نمط من انماط المعيشة لا تستطيعه على هذا المثال في الشدة أو الرخاء .

رمضان شهر الارادة .

أدبه أدب الارادة ، وحكمته حكمة الارادة ، وليست الارادة بالشيء اليسير في الدين والخلق ، فما الدين وما الخلق الا تبعات وتكاليف ، وعماد التبعات والتكاليف جميعا أنها تناط بمريد .

ومن ملك الارادة فزمام الخلق جميعا في يديه .

***

لو عاد محمد عليه السلام

من الاماثيل التي تعاد ولا تمل امثولة للكـــاتب الرومي « ديستيفسكي » عن السيد المسيح ومحكمة التفتيش في قصـــة الاخوة كرامزوف .

وخلاصة الامثولة ان السيد المسيح عاد الى الارض وأخذ في وعظ الشعب وتبشيره بالملكوت فأقبلـوا عليه واستمعوا لـه وأوشكوا ان ينفضوا عن وعاظهم ودعاتهم المعهودين ، فأشفق هؤلاء على مكانتهم وأوعزوا الى رئيس محكمة التفتيش فاعتقله وتوعده بالمحاكمة والحكم عليه لتضليله الشعب والانحراف به عن تعاليم السيد المسيح ! .. وقال له : ان هؤلاء الذين يقبلون عليك اليوم هم أول الثائرين عليك وأسبق المبادرين الى تنفيذ القضاء فيك ..

أمثولة تعاد ولا تمل لان العبرة بها لا تنقضي في حقبة واحدة، ولا تزال عبرة الدهر كله في أحاديث المصلحين والمفسدين .

ولم يبالغ الكاتب العظيم في تخيله ، فانما يكون مبالغا لو كان ما تخيله بعيدا أو غريبا في بابه ، ولكنه في الواقع اقرب شيء الى الاحتمـــال مع هذه البشرية التـــي تختلط فيها الشيطانيـــة والخنزيرية والحمارية في وقت واحد ، فلا تزال حربا على من ينفعها والعوبة في أيدي العابثين بها ، وان كرروا العبث بها كل يوم مرات بعد مرات .

لو عاد السيد المسيح لانكره كثيرون ممن يعيشون باسمه وينتحلون هدايته .

ولو عاد محمد عليه السلام لكان له نصيب كذلك النصيب ممن يرفعون العقيرة بهداية الاسلام والاسلام بريء منهـم ، وكل ما هنالك من خلاف أن المسألة لا تمر بتلك السهولـة التي توهمها رئيس محكمة التفتيش أو من يتصدى في الاسلام لمثـل عمله ، وأنه سيندم على فعلته ندما يكفر عن سيئاته ، ان كانت سيئاته مما يقبل التكفير .

وأسأل نفسي كيف ينتفع المسلمون على أحسن وجـوه النفع بعودة النبي عليه السلام فترة قصيرة من الزمن ؟ ومـا هي المسائل التي يرجعون بها الى شخصه الكريم فيسمعون منه فصل الخطاب فيها ؟

أسأل نفسي فتخطر لي مسائـل خمس يرجـع فيهـا الى شخصه الكريم ويغني جوابه فيها كل الغناء ، فلا لجاجـة ولا اختلاط ولا حاجة الى الاجتهاد والتأويل من مجتهد أو مقلد وما أشبه الاجتهاد والتقليد في هذ الزمان !

تلك المسائل الخمس هـي : مسألـة الاحاديث النبويـة ، ومسألة الروايات في قراءة الكتاب المجيد ، ومسألة الخلافـة والملك ، ومسألة الرسالة والنبوة بعد خاتم المرسلين ، ومسألة المذاهب الاجتماعية الحديثة وحكم الاسلام عليها وقـول نبـي الاسلام فيها .

مسألة الاحاديث النبوية

ان رجال الحديث قد بلغوا الغاية من الاجتهاد المشكور في جمع الاحاديث وتبويبها وتقسيم رواتها واسانيدها ، وقـد

جعلوا من أقسامها الثابت والراجح والحسن والمقبول والضعيف والمشكوك فيه والمرفوض وجعلوا لكل قسم شروطه وعلاماته فأصبح الحديث بفضل هذه الشروط والعلامات علما مستقلا يتفرغ له علماء مستقلون .

وبعد كل هذا الجهد المشكور لا تزيد الاحاديث الثابتة على عشر الاحاديث المتداولة في الكتب وعلى الالسنة .

وكلمة واحدة من فمه الشريف عليه السلام ترد الامور جميعا الى نصابها : « لم أقل هذه الاحاديث ! » وينتهي القيل والقال ويبطل الخلاف والجدال ، ويبطل معهما بلاء أولئك المحدثين الذين يستندون الى الحديث الكاذب في التضليل وترويج الاباطيل .

قراءات القرآن

ومسألة الروايات القرآنية دون مسألة الاحاديث في اشكالها ونتائج الاختلاف عليها ، فان الروايات التي لم يتفق عليها القراء لا تغير شيئا من أحكام القرآن ، ويمكن الاخذ بها جميعا ولا ضرر في ذلك ولا ضرار .

الا انها لا تحتمل أقل اختلاف مع وجود النبي الذي تنزل عليه القرآن فما يقوله فيها فهو مجتمع القراءات ومرجع الروايات ، ومتى استمع الناس الى تلاوته ــ في عصر التسجيل ــ فتلك ذخيرة الابد في ذاكرة الاجيال ، وسيبقى صوته بتلاوة القرآن اول ما يسمعه السامعون في مجالس الذكر الحكيم .

الخلافة والملك

وتأتي مسألة الخلافة ، بل معضلة الخلافة .

تلك المعضلة التي سالت فيها بحور من الدماء وجداول من المداد ، وبقيت وراء كل انقسام نذكره في الاسلام حين نذكر السنة والشيعة والاماميين والزيديين والاسماعيليين والنزاريين ، وحين نذكر الهاشميين والامويين والعباسيين والفاطميين وغيرهم وغيرهم من المنقسمين واقسام المنقسمين.

بم أوصيت يا رسول الله في أمر الخلافة ؟ وهل أوصيت بها دينية أو دنيوية ؟ وهل تريدها اليوم على هذه أو على تلك من صفاتها وأحكامها ؟

فاذا قال عليه السلام أوصيت بكذا ولم أوص بكذا ، فكأنما مسح بيده الشريفة على تلك الصفحات والمجلدات فاذا هي بيضاء من غير سوء ، واذا هي بقية من بقايا الماضي تحال الى دار المحفوظات للعبرة والحذر أو يلقى بها حيث لا حس ولا خبر .

وكفى الله المؤمنين شر القتال وذكرى القتال .

الرسالة بعد خاتم المرسلين

والخطب أهون من ذلك جدا في مسألة الرسالة والنبوة بعد خاتم المرسلين ، فان المخالفين للاجماع في هذه المسألة واحد في كل خمسمائة مسلم ، وسينتهي خلافهم عما قريب .

ولكن اذا انتهى بكلمة من الرسول الذي يؤمن به المسلمون جميعا فتلك هي النهاية الفاصلة، وقد تمنع فيالمستقبل أضرارا لا يقاس عليها ضررها في الوقت الحاضر ، وخير من واحدينشق على خمسمائة أن يتفق الخمسمائة فلا ينشق منهم واحد .

المذاهب الإجتماعية الحديثة

وما قولك يا رسول الله في دعاة المذاهب العصرية من

اجتماعية أو غير اجتماعية ؟

لا حاجة الى السؤال عن الديموقراطية ، فان مسابقة الاسلام فيها أصلح من كل مسابقة .

ولا حاجة الى السؤال عن الفاشية فان الاسلام يمقت الجبارين والمتجبرين .

ولا حاجة الى السؤال عن الشيوعية الماركسية ، فانها ملعونة في كل دين .

وانما يسأل النبي عليه السلام في الاشتراكية فيقول ما قاله القرآن حيث نهى أن تكون الثروة « دولة بين الاغنياء » .. ثم يسأل عن شرحها فيتلقاه منه المسلمون على أقوم المناهج وأسلم الحلول .

وتأتي على الهامش أسئلة عن ترجمة القرآن وعن حقوق المرأة وعن دعاوى المدعين في الاحكام والقوانين باسم الدين ، وعن أحاديث شتى مما يتحدث عنه الصحفيون وأشباه الصحفيين .

ويسمع من النبي عليه السلام في أولئك كله جواب يغني عن ألف جواب أو عن كل جواب .

ونعود الى محكمة التفتيش وما يشبه محكمة التفتيش بين المسلمين .

ان كاتب هذه السطور آخر من يؤمن باقناع العقول أو بسلطان البرهان في الاقناع .

ان كاتب هذه السطور قد رأى بعينيه انامسا أغرب وأصفق ممن ينكرون الشمس في رائعة النهار .

وليس بالمستحيل عندي أن يعاندك المعاند ويكابرك المكابر في « اثنين واثنين يساويان أربعة وفي واحد وواحد يساويان اثنين » .

بل ليس بالمستحيل عندي أن يكابرك المكابرون في معنى الواحد ومعنى الاثنين وان هذا خمسة وليس بواحد وذلك صفر وليس برقم من الارقام .

فاذا عاد النبي عليه السلام وقضى قضاءه في أحكام الاسلام فلا والله لا يعدم الناس من يشكك في كلامه وبيانه وفي ملامح وجهه وعلامات جثمانه ، ولا والله لن يسلس المقاد ممن يلج في العناد ويضيع عليه الجاه أو الغنى بما قضاه الرسول وتلقاه الناس منه بالتسليم والقبول .

غير أنه ، فيما نحسب ، عناد لا ينفع أصحابه ولا يطمعون في الرجاء منه حتى تفجأهم الحوادث بالندم عليه ، وصلى الله على محمد في الاولين والاخرين ، فما هو الا أن يعود فلا تعز عليه هداية المهتدين ورياضة الذين لا يهتدون ، فلا يصدون أحدا عن الدنيا ولا عن الدين .

لو عاد السيد المسيح

في احدى روايات الكاتب الروسي العظيم ــ دستيفسكي ــ بطل من ابطال الرواية يتخيل أن السيد المسيح عاد الى الارض في طوفة عابرة ونزل بأشبيلية في ابان سطوة « التفتيش » فوعظ الناس وصنع المعجزات وأقبل عليه الضعاف والمرضى والمحزونون يلثمون قدميه ويسألونه العون والرحمة .

وانه ليمضي بين الشعب يضفي عليهم حبه وحنانه ويبسطون له شكاياتهم ومخاوفهم اذا برئيس ديوان التفتيش ــ المفتش الاعظم ــ يعبر بالمكان ويتأمل السيد والشعب من حوله هنيهة ثم يشير الى الحراس ويأمرهم أن يعتقلوه ويودعوه حجرة السجناء في انتظار التحقيق .

ويأتي المساء فيذهب المفتش الاعظم الى الحجرة ويقول للرسول الكريم : « انني اعرفك ولا اجهلك ، ولهذا حبستك ، لماذا جئت الى هنا ؟ لماذا تعوقنا وتلقي العثرات والعقبات في سبيلنا » ؟

ثم يقول له فيما يقول : « انك كلفت الناس ما ليست لهم به طاقة . كلفتهم حرية الضمير ، كلفتهم مؤنة التمييز ، كلفتهم أوعر المسالك فلم يطيقوا ما كلفتهم وشقيت مساعيهم بما طلبت منهم .. والان وقد عرفنا نحن داءهم واعفيناهم من ذلك التكليف ، واعدناهم الى الشرائع والشعائر ، تعود الينا

لتأخذ علينا سبيلنا وتحدثهم من جديد بحديث الاختيار وحريه الضمير ؟

« ليس اثقل على الانسان من حمل الحرية ، وليس اسعد منه حين يخف عنه محملها وينقاد طائعا لمن يسلبه الحرية ويوهمه في الوقت نفسه انه قد اطلقها له وفوض اليه الامر في اعتقاده وعمله ، فلماذا تسوم الانسان من جديد ان يفتح عينيه وان يتطلع الى المعرفة وان يختار لنفسه ما يشاء ، وهو لا يعلم ما يشاء ؟

« انك منحتنا السلطان قديما وليس لك ان تسترده ، وليس في عزمنا ان ننزل عنه ، فدع هذا الانسان لنا وارجع من حيث اتيت ، والا اسلمناك لهذا الانسان غدا وسلطناه عليك وحاسبناك باياتك واخذناك بمعجزاتك ، ولترين غدا هذا الشعب الذي لثم قدميك اليوم مقبلا علينا مبتهلا لنا ان نخلصه منك وان ندينك كما ندين الضحايا من المعذبين والمحرقين » .

قال ايفان كرامزوف بطل الرواية التي تتخيل هذا الملتقى وهذا الحوار « ان السيد المسيح لم ينبس بكلمة ولم يقابل هذا الوعيد وهذا العداء بعبوس او ازورار ، وتقدم الى المفتش الاعظم ــ وهو شيخ فان في التسعين ــ فلثم شفتيه وخرج الى ظلام المدينة وغاب عن الانظار » .

خلاصة لما تخيله الكاتب العظيم في خطاب طويل مملوء بحكمة الحياة كما يراها « الحكماء » من الطرف الاخر الذي يقابل الحكمة المسيحية : حكمة الرسول الكريم .

ولا نحسب أن الخيال في هذا الخطاب العجيب بعيد عن الحقيقة ولا نستبعد ما قاله المفتش الاعظم حين انذر الرسول الكريم ان يسلمه لمن يثور عليه ويصب عليه الويل والغضب ، بعد أن أحاط به ولثم قدميه وتوسل اليه .

كلا . ان الخيال في ذلك الخطاب العجيب غير بعيد من الحقيقة ، واقرب شيء الى طبائع الناس ان يصنعوا ذلك الصنيع وان يتبعوا المفتش الاعظم في نقمته على الرسول الكريم .

واقرب شيء ان يكون لو عاد السيد المسيح الى الارض ان ينكر الكثير مما يعمل اليوم باسمه وأن يجد بين أتباعه كتبة وفريسيين ينعي عليهم الرياء ويعلمهم من جديد ان السبت للانسان وليس الانسان للسبت ، وان العبرة بما في الضمائر لا بما تفوه به الالسن ويبدو على الوجوه ، وأن الوحي في طوية الانسان لا في طوايا الكتب والاوراق .

أقرب شيء ان يكون أن ينعي على الناس ما نعاه قبل الف وتسعمائة سنة ، وان يجد انسان اليوم كانسان الامس في شروره وعداوته ، وفي نفاقه وشقاقه ، وفي اعراضه عن اللباب وإقباله على القشور ، وفي استعلائه بالتقوى حين يتقي، ولجاجه في الجحود والعدوان حين يجحد ويعتدي ، خمرا جديدة في زق قديم .

ذلك أقرب شيء أن يكون .

واقرب شيء ان يقال اذا طاف بالخاطر ذلك الخيال ، أن يردد اللسان قول أبي العلاء :

تعب غير نافع واجتهاد
لا يؤدي الى غناء اجتهاد

ففيم يشقى المصلحون ، وفيم يهلك الشهداء ؟ وفيم يأتي الانبياء ويذهبون ؟ وفيم اختلفت الديانات واصطرع عليها المتدينون ؟ فيم كان هذا ؟ فيم جاءهم رسول بعد رسول ؟ وفيم توالى التابعون بعدهم باحسان أو بغير احسان .

جاءوا وعادوا ٠.

وانصرفوا والبلاء باق
ولم يزل داؤنا العياء

لئن قيل هذا ليكونن أقرب ما يقال بعد تلك الحقيقة التي جاءت في صورة الخيال .

ولكن الحقيقة الكبرى التي توزن بها جميع الحقائق هي أن الحقيقة لا ترى من جانب واحد ، ولا سيما الحقيقة التي تخلد على الزمن في أطوار الانسان منذ كان ، وتخلد معه آني يكون .

ليست حرية الضمير مطلبا محدود المسافة ، يرحل اليه الانسان ثم يصل اليه ويقعد عنده ، ويكف بعده عن كل عناء .

انما حرية الضمير جهاد دائم وعمل دائب ، يتقدم فيه الانسان شوطا بعد شوط ، أو طبقة فوق طبقة ، ولا يفرغ من جهاده يوما الا لينظر بعده الى جهاد مستأنف ولا يودع الشر في مرحلة من مراحله الا ليلقاه ويجاهده ، ولن يلقاه في سلام .

ومطالبنا المحسوسة تهدينا الى القياس الصحيح في هذه المشكلة ، وهي أولى بأن ندركها من المطالب الخفية التي تعتلج بالضمير وتبعثه الى العمل مرة حيث يرى مواقع خطوه، ومرات حيث يبصر فلا يرى غير الحجب والظلمات .

منذا يقول أن عناء التعليم باطل اذا رأى الطفل يحمل الكتاب وهو في الخامسة ، ورآه يحمله وهو في العاشرة ، ورآه يحمله وهو في العشرين ثم في الثلاثين ، ثم رآه مدى الحياة لا يستغني عن علم ولا يقضي على الجهل كل القضاء ؟

منذا يقول أن عناء الطب باطل اذا رأى الناس يمرضون

بعد علمهم بالجراثيم وبعد افتنانهم في الطبابة ومواقع الدواء وموانع الشفاء ؟

منذا يقول أن الغاية عبث لان الطريق اليها طويل، أو لانها غاية تتلوها غاية بلا انقطاع ولا اكتفاء ؟

لا نقول هذا في محسوساتنا التي نلمحها ونلمسها ، فهل نقوله في غاية كحرية الضمير هي سر الاسرار في حياة الانسان منذ كان وأني يكون ؟

ليست العبرة ان الشر واقع ، ولكن العبرة كيف ننظر اليه وكيف نواقعه أو كيف نتقيه .

واذا وقع اثنان في الشر ، فليس الذي وقع فيه وهو مستريح اليه مستزيد منه ، كالذي وقع فيه وهو مضطر اليه نادم عليه ، وليس الذي وقع فيه وهو يعلمه كالذي وقع فيه وهو يجهله ، أو يقف منه موقف المغالطة بين العلم والجهل وبين القصد والاضطرار .

انما الانسان غير الحيوان البهيم لانه صاحب ضمير ، وانما يقاس ضمير الانسان بالقيم التي يقومها والمثل العليا التي يتمثلها ، والمطالب التي يطلبها وينالها أو لا ينالها . وما دام المصلحون والرسل يعلمون الانسان قيمة يغليها ويرفعون امامه مثلا أعلى يتسامى اليه .. فهم عاملون وعملهم لازم ، ونتيجته محققة ، وان دام الشر ولم ينقص عدد الذنوب والجرائم بأرقام الاحصاء .

واذا قلنا يوما ان الانسان في هذا العصر يطلب الخير ولا يدركه ، فقد قلنا على اليقين أنه أفضل من الانسان الذي كان لا يطلبه ولا يعرفه ، وأن عمله غير مطلوب وغير معروف كما يعمل الحيوان .

انما تقاس الاديان بما تودعه النفوس من القيم والحوافز ،

وبما تزيده من نصيب الانسان في حرية الضمير أو في حرية التمييز بين الحسن والقبيح، وقد عملت الاديان كثيرا ولا تزال قادرة على العمل الكثير ، ولكنها لن تغني الانسان يوما عن جهاد الضمير .

كان جهلاء الناس فيما غبر ينتظرون الف سنة يعم فيها الخير وينقطع فيها الشر ويمتنع الشقاء ولا يرى في العالم يومئذ غير سعداء أبناء سعداء .

وكان « العارفون » يقولون عن هؤلاء انهم جهلاء .

لكن هؤلاء العارفين اجهل منهم اذا اعتقدوا أن دينا من الاديان لم يعمل عملا ، ولم يكن غير عبث من العبث ، لان الدنيا باق فيها الشر ، باق فيها البغي ، باق فيها الكفران .

أي فرق بين العارفين الذين ينتظرون من الدين دنيا لا تعاب وبين الجاهلين الذين انتظروا السعادة المطلقة في « الالفية » الموعودة آخر الزمان ، بعد قرون تعد بالعشرات أو بالمئات ؟ .

لعل هؤلاء الجاهلين أقرب الى التقدير الصحيح من أولئك العارفين ، لانهم يفكرون وينتظرون « الالفية » . وقد انتظرها الجاهلون بغير تفكير ! .

لو عاد السيد المسيح اليوم لوجد كثيرا يصنعه ويعيد صنعه، ولصنع كثيرا بين أتباعه ومن يعملون باسمه ويتواصون بوصاياه ، ولكن الدنيا التي يصنع فيهاالهداة صنيعا كثيرا خير من الدنيا التي لا موضع فيها لصنيع الهداة وجهاد الضمير .

ولن يختم المسيح العائد الى الدنيا رسالة الخير والهداية ، فتلك هي شوط الضمير الذي لا ختام له ، وهو الغاية وراء كل ختام .

وسيعلم الناس في العصر الحديث ــ ان لم يكونوا قد علموا حتى اليوم ــ أن عقيدة الانسان شيء لا يأتيه من الخارج فيقبله

مرضاة للداعي أو ممتنا عليه ، ولكنها هي ضميره وقوام حياته الباطنية يصلحه ، ان احتاج الى الاصلاح ، كما يصلح بدنه عند الطبيب وهو لا يمتن عليه ولا يرى أنه عالج نفسه لمرضاته . فالعقيدة مسألة الانسان ، لا شأن للانبياء بها الا لانها مسألة الانسان ، وعليه اذا عالج اصلاحه أن يعالجها كما يعالج جزءا من نفسه بل كما يعالج قوام نفسه ، ولا يعالجها كأنها بضاعة يردها الى صاحبها ويفرغ من أمرها ، فلا فراغ من أمر العقيدة الى آخر الزمان .

في الشعر العربي

المذاهب العربية

نظم الشعر في اللغة العربية فن مستقل بذاته بين الفنون التي عرفت في العصر الحديث باسم الفنون الجميلة، وتلك مزية نادرة جدا بين أشعار الامم الشرقية والغربية ، خلافا لما يبدر الى الخاطر لاول وهلة .. فان كثـيرا من أشعار الامم تكسـب صفتها الفنية بمصاحبة فن آخر ، كالغناء أو الرقص أو الحركة على الايقاع . ولكن النظم العربي فن معروف المقاييس والاقسام بعد استقلاله عن الغناء والرقص والحركة الموقعة ، فلا يصعب تمييزه شطرة شطرة بمقياسه الفني من البحور والاعاريض ، الى الاوتاد والاسباب .

وليست هذه خاصة من خواص اللغـات السامية اخوات العربية . فاننا اذا أخذنا سطرا على حدة من قصيدة عبرية لم نستطع ان ننسبه الى وزن محدود أو مقياس متفق عليه ، ولا بد من اقترانه بسطور اخرى يتم بها الايقاع ولا تطود في قول كل شاعر ولا في سطر كل قصيدة ،فهو والفاصلة النثرية التي يمكن اداؤها بالغناء او بالايقاع على حركة الرقص، متساويان.

ومن الشعر الغربي ما يعـرف كل سطر منه بعدد مـن المقاطع والنبرات ، ولكنه بغير قافية تنتهي اليها هذه السطور

أما ضروب النظم التي تلتزم فيها القافية ، فكلها في نشاتها كانت تغني أو تنشد على ايقاع الرقص ، ثم استقلت باوزانها المحدودة على نحو مشابه للاوزان العربيه ، وهي الموشحات التي اشتهرت عندهم باسم « استانزا » او اسم «سونيت» . ويدل كلا الاسمين على اصلها من الرقص والغناء ..فان استانزا كلمه ايطالية بمعنى الوقوف تقابلها ستاند Stand بالانجليزيه ، وسونيت Sonnet من كلمه سونج Song بمعنى الغناء .

فالشعر الذي لا يضبط بالوزن او بالقافيه موجود في اللغات السامية واللغات الاريه ، وبعضه لا يزيد الايقاع فيه على الموازنة بين السطور بغير ضابط متفق عليه ، وبعضه يضبط فيه الايقاع بعدد المقاطع والنبرات ، ولا ينتهي الى قافيه ملتزمه في القصيدة أو المقطوعة الصغيرة .

انما الوزن المقسم بالاسباب والاوتاد والتفاعيل والبحور خاصة عربية نادرة المثال في لغات العالم . وكذلك القافية التي تصاحب هذه الاوزان .

ومرجع ذلك الى أسباب خاصة لم تتكرر في غير البيئة العربيه الاولى : أهمها سببان : هما الغناء المنفرد ، وبناء اللغة نفسها على الاوزان .

فالامم التي ينفرد فيها الشاعر بالانشاد تظهر القافية في شعرها .. لان السامعين يحتاجون الى الشعور بموضع الوقوف والترديد ، ولكن الجماعة اذا اشتركت في الغناء لم تكن بها حاجة الى هذا التنبيه ، لان المغنين جميعا يحفظون الغناء بفواصله ولوازمه ومواضع النبر والترديد في كلماته وفقراته ، فينساقون مع الايقاع بغير حاجة الى القوافي عند نهاية السطور ، وانما تنشأ الحاجة الى القافية ، أو وقفة تشبه القافية عند تفاوت السطور وانقسام القوم الى منشدين ومستمعين .

يقول العلامة جلبرت موري ـ وهو من ثقات البحث في الاوزان والاعاريض : « ان احدى نتائج هذا الاختلاف زيادة الاعتماد على القافية في اللغات الحديثة . ففي اللغتين اللاتينية واليونانية ينظمون بغير قافية لان الاوزان فيهما واضحة ، وانما تدعو الحاجة الى القافية لتقرير نهاية السطر وتزويد الاذن بعلامة ثابتة للوقوف.. وبغير هذه العلامة تثقل الاوزان وتغمض ولا تستبين للسامع مواضع الانتقال والانفصال . بل لا يستبين له هل هو مستمع لكلام منظوم أو كلام منثور . وقد اختلف الطابعون عند طبع الكتب هذا الاختلاف في بعض المناظر المرسلة من كلام شكسبير ، فحسبها بعضهم من المنثور وحسبها الآخرون من المنظوم . ومما يلاحظ ان اللاتين اعتمدوا على القافية حين فقدوا الانتباه الى النسبة العددية.. وان الصينيين يحرصون على القافية لانهم يلتزمون الاوزان ، وان انتشار القافية في أغاني الريف الانجليزية يقترن الترخص في أوزان الاعاريض » .

ويستطرد الاستاذ موري الى الشعر الفرنسي فيقول : « ان اللغة الفرنسية حين رجع فيها الوزن الى مجرد احصاء للمقاطع ، وأصبحت المقاطع بين موطلة وصامتة ـ نشأت فيها من اجل ذلك حاجة ماسة الى القافية ، فصارت في شعرها ضرورة لا محيص عنها ، ودعا الامر الى تقطيع البيت أجزاء صغيرة ليفهم معناه » .

ومن أسباب الاكتفاء بالوزن دون القافية فياشعار الغربيين سبب لم يذكره الاستاذ موري ، وهو غناء الجماعة للشعر المحفوظ كما تقدم .

فحيث شاعت أناشيد الجماعة قل الاعتماد على القافية وكثر الاعتماد على حركات الايقاع ،ولو لم تكنمتناسقة الوزن على نمط محدود . لان الغناء بالكلام المنثور ممكن مع توازن

الفواصل وموازاة السطور .

وأناشيد الجماعة قد شاعت بين العبريين لانهم قبيلة متنقلة تحمل تابوتها في رحلتها وتنشد الدعوات معا في صلواتها الجامعة ، وفي هذه الدعوات ترانيم على وقع الدفوف كما جاء في الاصحاح الخامس عشر من سفر الخروج حيث « أخذت مريم النبية الدف بيدها وخرجت جميع النساء وراءها بدفوف ورقص . وأجابتهم مريم : رنموا للرب فانه قد تعظم .. » .

وكذلك شاعت بين اليونان اغاني المسرح التي ترجع في نشأتها الى الشعائر الدينية ، ثم انتقلت منها الى الامم الاوربية .

ومما يؤيد الصلة بين غناء الفرد والتزام القافية ان شعراء الامم الغربية الذين ينشدون قصائدهم للمستمعين قد لجأوا الى القافية والتزموا في مراعاتها أحيانا ما يلتزمه عندنا شعراء الموشحات .

أما البيئة العربية فلم تكن فيها قبل الاسلام صلوات جامعة منتظمة بمواعيدها ومحفوظاتها ، وانما كان الحداء هو الغناء الذي يصاحب انشاد الشعر على بساطة كأنها بساطة الترتيل ، ينشده الحادي على انفراد وتصغي اليه القافلة أحيانا في هدأة الليل ، اذ يعتمد الحس كله على السمع في متابعة النغم الى مواضع الوقوف والترديد ، فتقفو النغمة على وتيرتها ، ويصدق عليها اسم القافية بجملة معانيه .

لهذا استقل المنظم بحقه في الصنعة ، لان هذه الصنعة لازمة لتمييزه مع الغناء ومع غير الغناء . فانتظمت قوافيه وانتظم ترتيله انتظاما لا بد منه لكفايته ، مع بساطة أفانين الغناء .

واذا التمسنا مدخلا لفن الحركة الموقعة مع الحداء فهناك

ايقاع واحد نتابعه في خطوات الابل وفي خطوات الهرولة التي تصاحبها على القدم . والى هذا الايقاع يرجع وزن الرجز على قصد وعلى غير قصد ، ومجيئه على غير قصد أدل على تمكن العادة وعلى اصالتها في الحياة البدوية :

انا النبي لا كذب
انا ابن عبد المطلب

***

هل أنت الا أصبع دميت
وفي سبيل الله ما لقيت

***

وقد تكون حركة الهرولة في الطواف بالكعبة ملحوظة في كل دعاء مروي كيفما اختلف المختلفون في صحة الرواية ، كما قيل عن امرأة أخزم بن العاص حين نذرت ولدها للكعبة فقالت :

اني جعلت رب من بنيه
ربيطة بمكة العليه

فباركن لي بها اليه
واجعله لي من صالح البرية

فهكذا يفهم الناظم كيف تكون حركة الدعاء مع الهرولة ، ايا كان صاحب النظم او من ينسب اليه .

هذه المرددات الفردية هي التي ميزت النظم العربي باستقلال فنه ووضوح قافيته وترتيله ، ولو وجدت في الجاهلية العربية صلوات جامعة تنشد فيها الدعوات المحفوظة لوجدت فيها

القصائد التي تمثل لنا حياتهم الدينية وحياتهم الاجتماعية ، أما من اناشيد الصلاة كما عرفها العبرانيون ، أو من اناشيد المسرح كما عرفها اليونان . ولكننا نعرف العرب من قصائدهم الفردية كما نعرف الامم الاخرى من أمثال تلك القصائد ، فلا يفوتنا منها غاية ما تدل عليه .

هذا سبب من اسباب تلك الظاهرة النادرة التي ظهرت لنا في القصيدة العربية ، وكانت نادرة بين الامم السامية والامم الآرية على السواء .

أما السبب الآخر فهو اصالة الوزن في تركيب اللغة . فالمصادر فيها اوزان ، والمشتقات اوزان ، وابواب الفعل اوزان ، وقوام الاختلاف بين المعنى والمعنى حركة على حرف من حروف الكلمة تتبدل بها دلالة الفعل ، بل يتبدل بها الفعل فيحسب من الاسماء او يحتفظ بدلالته على الحدث حسب الوزن الذي ينتقل اليه .

هذه اصالة في موضع الوزن من المفردات والتراكيب لا يستغرب معها ان يكون للوزن شأنه في شعر هذه اللغة وأن يكون شأنها في نظم أشعارها على خلاف المعهود في منظومات الامم الاخرى ، ولو صرفنا النظر عن اثر الانشاد الفردي في تثبيت القافية واستقلال فن العروض عن فن الغناء في القصائد العربية .

نعم ان اللغات السامية تجري على قواعد الاشتقاق وتوليد الاسماء من الافعال ، ولكن المقابلة بين هذه اللغات في أقسام مشتقاتها وتفريع الكلمات من جذورها تدل على تمام التطور في قواعد الاوزان العربية وعلى نقص هذه القواعد أو التباسها في اخواتها السامية ، بل تدل في باب الاعراب خاصة على تفصيل

في العربية يقابله الاجمال او الاهمال في أخواتها ، وفي غيرها من اللغات الآرية التي دخلها شيء من الاعراب .

***

وواضح مما تقدم اننا قصرنا القول على النظم من حيث هو أوزان عروضية أو قوالب تحتوي الكلم المنظوم فيها .

فهذه القوالب هي التي تطورت في اللغة العربية فأصبحت فنا مستقلا بمقاييسه عن فن الغناء أو فن الحركة الموقعة . أما الكلام المنظوم في تلك القوالب فهو عمل ممتد مع الزمن يأتي فيه كل عصر بما هو أهله من الابداع او الزيادة او المحاكاة .. وانما نعود الى القوالب والاوزان في كل عصر لنسأل : هل هي صالحة لاداء المقاصد الشعرية ومجاراة الامم في تطورها الذي يمتد مع الزمن على حسب حالاتها من الشعور والفهم والقدرة على الأداء؟ وهل تتسع للتعديل اذا وجب التعديل للوفاء بمطلب جديد من مطالب التعبير ؟

ان تجارب العصور الماضية تنجلي عن صلاح القوالب العروضية لمجاراة اغراض الشعر في أحوال كثيرة ، ويبدو منها أن أساس العروض العربي قابل للبناء عليه بغير حاجة الى نقضه والغائه . فقد كانت بضعة بحور من اوزان الشعر كافية لاغراض الشعراء في الجاهلية ، أشهرها الطويل والكامل والوافر والخفيف ، ثم نشأت من أوزانها مجزوءات ومختصرات صالحة للغناء حين استحدثت الحاجة اليه في الحواضر العربية التي عرفت الغناء على ايقاع الالات . ثم اتخذت من هذه البحور أسماط وموشحات وأهازيج تتعدد قوافيها مع اختلاف مواقعها وتطول فيها الاشطر أو تقصر مع التزام قواعد الترديد فيها . واختار بعض الشعراء نظم المثاني أو المزدوجات ، وبعضهم نظم

المقطوعات التي تجتمع في قصيد واحد متعدد القوافي أو تتفرق وتتعدد بأوزانها مع توحيد الموضوع. ولما نقلت الالياذة اليونانية الى النظم العربي لم تضق بها أوزانه ولم يظهر سياق الترجمة ان هذه الاوزان قاصرة عن التنويع فيها على نمط غير هذا النمط لمن يشاء التنويـــع ، واستجابت الاوزان لمطالب المسرح كمـــا استجابت للملحمة المترجمة ولما يشبهها من القصائد التاريخية المطولة .

وقد أفرد الموسيقار العصري الاستاذ خليل اللاوردي فصلا وافيا في كتابه فلسفة الموسيقى الشرقية لبحث التوزين والايقاع وتطبيق العروض العربي على الضوابط الموسيقية فانتهى مـــن بحثـــه الى امكان التنويـــع في الاوزان العروضية واستطاعـــة الموسيقى والشاعر أن « يفتتح اشكالا غير محدودة من اشكال الموازين ، واعتمد في تجاربه على الجهاز الفني المسمى بالمتروتوم وهو صندوق صغير من الخشب هرمي الشكل ، يفتح من احدى جهاته الاربع فينكشف عن قضيب معدني مقسم بخطوط ، وعليه ثقل متنقل يحدث حركة متساوية .. فيقسم الدقيقة الواحدة من الزمن الى نقرات تتراوح بين أربعين ومائتين وثمان ، فيمثـــل الحد الادنى النقرات المتناهية في البطء ويمثل الحد الاعلى النقرات المتناهية في السرعة » .. ولم يلجأ الموسيقار الى وحدات للنغمات غير وحدات الفواصل والاوتاد والاسبـــاب التي يستخدمهـــا العروضيون ولم يجعل لها اقساما غير اقسامهم المعروفة كالسبب الخفيف والسبب الثقيل ، والوتد المقرون والوتد المفـــروق ، والفاصلة الصغرى والفاصلة الكبرى ، وانما استخدم الضوابط الموسيقية لبحث الموضوع بمصطلحات فنه ، وترك مجال بحثـــه للعروضيـــين يتفاهمـــون فيه بمصطلحاتهم التي لا تحتـــاج الى التخصص أو التوسع في فنون الالحان . فخلص من بحوثـــه

الموسيقية والعروضية معا الى نتيجة محققة خلاصتها ــ كما قال ــ ان اشكال الموازين الشعرية غير محدودة أو ان حدودها ــ على ما نرى ــ اشبه بحدود الكلمات التي تتألف من الحروف الابجدية ، على حين ان الحروف الابجدية قلما تزيد على الثلاثين .

فاذا نظرنا الى ما تم من اشكال العروض ، وما يتأتى ان يتم منها مع التنويع والتوزين ، ثبت لنا انها قائمة على أساس صالح للبناء عليه وتجديد الانماط والاشكال فيه ، على نحو يتسع لاغراض الشعر ولا يلجئنا الى نقض ذلك الاساس .

***

وهذا كله مع التسليم بداهة بالتفرقة بين الكلام المنثور والكلام المنظوم في السهولة أو الصعوبة ، فان التسهيل المطلوب لفن من الفنون كائنا ما كان ــ ينبغي ان ينتهي عند بقاء الفن فنا مقرر القواعد والمقاييس . وما جهل الناس قط ان الكلام اسهل من الغناء ، وان المشي أسهل من الرقص ، وان الحركة المرسلة أسهل من الحركة الرياضية ، ولم يكن ذلك قط مسوغا للاستغناء بالكلام عن فن الغناء أو بالمشي عن فن الرقص ، أو بتحريك الاعضاء بغير هدى عن أصول الحركة الرياضية أو الحركة في العاب الفروسية . فمهما يكن من تيسير الاوزان بالتنويع والتوفيق فلا مناص في النهاية من التفرقة بينها وبين الكلام المرسل في سهولة الاداء ، وانما المطلوب ان تكون فنا سهلا وليس المطلوب مجرد السهولة التي تخرجها من عداد الفنون.

ولا بد في هذا السياق من تفرقة أخرى هي التفرقة بين القواعد والقيود في كل فن من الفنون ، فلا سبيل الى الاستغناء عن القواعد في عمل له صفة فنية ، ولا ضرر من الاستغناء عن القيود التي تعوق حرية الفن ولا يتوقف عليها قوامه الذي

يسلكه في عداد الفنون .

ومن تجاربنا في تاريخ الشعر العربي يتبين لنا ان قواعد النظم عندنا مؤاتية للشاعر في كل تصرف يلجئه اليه تطور المعاني والتعبيرات في مختلف البيئات والازمنة . فلا موجب للفصل بين قواعد النظم وأغراض الشعر في تجربة من التجارب العربية التي وعيناها منذ نشأت أوائـــل الاوزان الى أن بلغت ما بلغتــه في منتصف هذا القرن العشرين .

ذلك شأن التجارب العربية ، فما بال التجارب فـي أمـــم الحضارة التي تتصل بنا ونتصل بها وتبادلنا ونبادلها مطالـب الفنون والآداب كما يحدث الان بيننا وبين أمم الحضارة الغربية؟ ماذا تفرض علينا هذه الثقافة المتبادلة في ميدان النظم والشعـر على اتصال بينهما أو على انفراد ؟

أما في النظم فلا خفاء بالامر من أيسر نظرة الى آدابنـــا وآداب الامم الغربية التي نتصل بها في العصر الحديث .

فمما لا تردد فيه ان هذه الامم لم تبدع في موازين النظـم بدعا نستفيده منها ولم نكن قـد سبقناها اليه في عصر مـــن عصورنا ، فاذا التزموا الاعاريض معتدلين او مبالغين فليس عندهم ما هو أدق وأجمل من الموشحة في أوزانها التي تقبـــل التنويع والتشجير الى غير نهاية، والتي يعتبر تعدد القافية فيها ندحة وزينة في وقت واحد . فان اطلاق الحرية للشاعر لتوزيع القوافي حيث شاء يوشك ان يعفيه من قيودها كما يزيد الايقاع جمالا على جمال. ولم يبدع الاوربيون ــ حتى في شعر المسرحيات الملحنة ــ فنا من الاناشيد أتم من الموشحة وأصلح منها للتلحين وحركة الايقاع .

فاذا ترخص الشاعر الغربي في القواعد فأسقط القافيــة واختار الوزن الذي يسمونه النظم الحر أو النظم الابيض ــ فجهد

ما بلغوا اليه انهم عادوا الى الاسطر المتوازية او الى الاكتفاء بالمقاطع التي لا تبلغ في دقتها مبلغ الاسباب والاوتاد والفواصل، وكل أولئك طور من الاطوار التي تخطاها الشعر العربي في الازمنة الماضية أو سبقتهم اليه أمة من الامم الشرقية وتوقف بها التطور عنده ، لارتباطه بالتقاليد الدينية .

فليس عند الغرب من فنون النظم جديد نأخذه منه في أبواب التوزين والتنويع .

ليس في فن النظم جديد نأخذه من الاعاريض الغربية لم تكن عندنا أسسه العريقة ، ولم تكن عندنا اصوله وفروعه أو جذوره وأغصانه على حد تعبير « الموشحين » .

لكن الامر يختلف كثيرا في الكلام على « الشعر » أو الكلام على الادب ومدارسه ومذاهبه ودعواته التي تجيش بها الحياة الغربية في كل حقبة ، ولا تتميز منها دعوة واحدة دون أن يتميز لها حكم خاص بالشعر يتناوله قبل أن يتناول غيره من الفنون الجميلة ولا سيما فنون التعبير .

هذه المذاهب الشعرية تعنينا كما تعنيهم وتمتد بآثارها الى أقوالهم وأفعالهم كما تمتد الى أقوالنا وأفعالنا .

لانها من أطوار الحياة التي لا تنحصر في دوائر الفن ولا في أدوار الثقافة على اطلاقها ، وان يكن مظهرها الثقافي هو الجانب الذي يشتغل به النقاد والمؤرخون في ميادين الفنون .

هذه الدعوات أوسع نطاقا من أن يحاط بها في مقال ولكنها تقترب من الحصر المستطاع اذا جمعناها في أدوارها الانسانية العامة التي توشك ان تكون أمواجا دورية في هذا المحيط الزاخر ، اذ هي عالقة بطبيعة الانسان في جملتها ، وطبيعة الانسان واحدة كما قيل في كل زمان ومكان ..

ونحن نعلم ان ابقراط حصر الطبائع الجسدية في أربعة

أمزجة، وهي المزاج الدموي والمزاج الصفراوي والمزاج البلغمي والمزاج السوداوي . ثم جاء العلامة بافلوف بعد تقسيم خصائص الاجسام بين الهرمونات وعائلات الدم وودائع الوعي الباطن والوعي الظاهر أقساما لا تنفد ولا تحصى ـ فعاد الى الامزجة الابقراطية تيسيرا للفوارق العامة وجعلها أساسا لتجاربه النفسية التي تعد الى هذه الساعة من أحدث تجارب العلماء .

فنحن على هذه الوتيرة نقسم الذوق الفني في الانسان الى أقسامه الخالدة حين نقول : ان الناس كانوا منذ فطروا واقعيين وخياليين ، ومحافظين على القديم وطلابا للجديد ، أو أنهم كانوا اذا اكتفينا بقسمتهم الى قسمين اثنين : صنفا يمشي في وسط القطيع وصنفا ينزع الى الاطراف ، امام ووراء وعلى كلا الجناحين من اليمين واليسار ، وقد تفكه بعض الجادين فأطلق على الصنف الاول اسم فريق الضأن وعلى الصنف الثاني اسم فريق المعيز ...

ونرى من تاريخ الامم الغربية منذ ملكت حرية التفكير انها دارت دورتها بين مذاهب الادب خلال القرون الثلاثة الاخيرة ، وانها نزعت في دعواتها المتعاقبة كل نزعة طبيعية تستلزمها أطوار الحياة بعد عصر الجمود والتقليد .

ففي فترة اليقظة الاولى كان من الطبيعي أن ينزع الانسان الى استقلال « الشخصية الانسانية » في وجه التقاليد المطبقة والقيود العتيقة والاحكام التي تطاع بغير فهم ، بل بغير شعور في أكثر الاحوال ، وهذه هي النزعة التي سميت بنزعة الابداع و « الحرية الشخصية » Romanticism .

ومن الطبيعي ان ينتهي هذا الابداع من كل جانب على غير هدي متفق عليه ـ الى شيء من الفوضى والشرود يستحب معه التوقف الى حين ، وهنا ظهرت دعوة العود الى الاتباع والاطراد

على نحو جديد يناسب مطالب الزمن، فنشأت من ثم دعوة الاتباع أو الاطراد الجديد Neo Classicism .

واذا حكم اختلاف الطبائع حكمه بين انصار الواقع وانصار الخيال فهنا مجال الاختلاف بين الواقعيين Realists والخياليين المثاليين Idealists .

وقد يظهر هذا الاختلاف في صورة أخرى بين الطبيعيين Naturalists وبين الفنيين أنصار الفن للفن Art for Arts sake .

ونقول ان الواقعيين والطبيعيين متقاربون لانهم جميعا من أنصار الواقع ، وانما ينفرد الواقعيون بمحاربة النزعات الخيالية ،وينفرد الطبيعيون بمحاربة النزعات الصناعية: نزعات الاغراق في التزويق والتنسيق . واذا اقترنت هذه المذاهب جميعا في عصر من عصور النهضة العلمية فالانقسام بينها يؤول في هذه الحلة الى قسمين : قسم تغلب عليه الصبغة العلمية وقسم تغلب عليه الصبغة الفنية ، ويتسع كل قسم منهما لكثير من الآراء واشتات من الاساليب .

ولا جدوى من متابعة العناوين التي تنتهي في الغرب بصيغة النسبة المذهبية Ism فانها تنطوي جميعا في هذه الدعوات ، ويحيط كل منها بعالم من الاراء والاسباب . ولكننا نجمعها في حدودها الواسعة اذا اكتفينا منها بالرومانتيزم والنيوكلاسيزم والريالزم والايدليزم ، فلا يخرج من هذه المذاهب مذهب جاد يناط به عمل من اعمال البناء والاصلاح في عالم الفنون ، ولا تزال حتى اليوم وافية بأغراض البحث والمناقشة بين المختلفين على الفنون فيما يستحق الخلاف .

وعلى تعدد المذاهب والعناوين في الغرب لا نرى هنالك لبسا على الاطلاق بين المذاهب التي أشرنا اليها وبين عشرات المذاهب التي ينتحلها الدعاة على عجل منذ الحرب العالمية الاولى ، ويندر

أن تعيش احداها أو تستقل عن سواها بصفة من الصفات التي يتناولها التطبيق والتمييز .

فلا لبس على الاطلاق بين مذاهب الجد ومذاهب الهزل في الاداب الغربية ، فمذاهب الجد تدعو كلها الى البناء وتقوم بالبناء فعلا ويعيش ما تبنيه ، ومذاهب الهزل لا تتحدث بشيء غير الهدم والالغاء فلا لون ولا شبه ولا رسم ولا قاعدة في التصوير ، ولا لفظ ولا معنى ولا منطق ولا مدلول في الشعر والنثر . وانه لمن الحظ الحسن ان تقصر هذه الدعوى عن الفنون التي ترتبط بها ضرورات المعيشة والاجتماع ، فانها لو تناولتها لسمعنا بفن المعمار الذي لا حجرات ولا جدران ولا حجارة ولا طلاء فيه . وسمعنا بمجامع الموسيقى التي لا تميز بين الضوضاء والالحان ، ولا محل فيها للمعازف والالات . من هذه المذاهب ما يطلق عليه اسم المستقبلية Futurism أو فوق الواقعية Surrealism أو الذئبية Fauvism ... بل منها ما يسمى بمدرسة التأتأة Dadalism ويقول أصحابه انهم اختاروا له هذا الاسم من أول تأتآت الطفل Da Da وتطلق أحيانا على حصان الخشب ليسهل النطق به على السنة الاطفال . ومؤدى مذهب هؤلاء الدعاة ان التعبير الصحيح عن النفس الانسانية انما يرجع الى صورة الطفولة ورموز الاحلام وخفايا الوعي الباطن كما تبدو للحالم في المنام أو كما يرسلها الناطق عفوا بغير تأمل وبغير انتباه !

ومن هؤلاء الملفقين للمذاهب من يختار اللفظة ويسأل عن معناها فيسخر من السائل لانه يبحث عن المعنى ولا يكتفي بوقع اللفظة في الاذن أو من منظرها للعين القارئة . فمن عناوين مارينتي امام المستقبلية « زانج تمب تيايم Zang Tumb-Tuuum ومن عناوين زميله أردينجو سوفيسي 18 + Bifs ما لا يفهم ولا يترجم . وانما هو مقابل عندنا لحرف الباء ثم الياء ثم الفاء ثم

علامة موسيقية ثم زاي ثم علامة + ثم رقم ١٨) .

وقد عقب صاحب تاريخ الادب الايطالي على امام هذه المدرسة فقال أنه لم يجاوز حدود السخف في شعره .. ولم يخل كلام المؤرخ من مجاملة . لان السخف معنى يوصف بالرداءة .. ولا معنى هنا ولا وصف لرديء أو غير رديء (١) .

***

ولا بد من وضع هذه الدعوات في موضعها من تاريخ الآداب الانسانية والاداب الاوربية التي تظهر بينها فما هو موضعها الصحيح ؟

موضعها الصحيح انها تمثل جانب السخافة الذي لا بد أن يتمثل في بيئة يباح فيها القول لكل قائل والقراءة لكل قارىء ، ولا يخجل فيها العاجز من عجزه ولا صاحب اللجاجة من لجاجته، وهم جميعا في غمرة من محن الحروب والفن والقلاقل والآفات . فهل تخلو هذه البيئة من جانب سخافة في الاذواق والدعوات ؟ وأين هو هذا الجانب ان لم يكن هذا مظهره الذي يتمثل في صوت القنوت ؟

ولسنا نقول ان هذه السخافة جانب يهمل ولا يلتفت اليه ، فانها خليقة أن تدرس كما تدرس عوارض الامراض والعلل والنكبات ، ولكن البون بعيد جدا بين دراستها لهذا الغرض ودراستها للاقتداء بها واعتبارها من مدارس الفن والادب ونماذج الذوق والجمال .

ولا تفوتنا في معرض الكلام على الشطط الفني ملاحظة وثيقة الصلة بموضوع الخلط الذي يقال عنه آنه هو الفن الصحيح

---

(١) صفحة ٤٨٥ من كتاب تاريخ الادب الايطالي تاليف « أرنست هانش ولكنز » .

أو أنه هو التعبير الصادق دون غيره عن الوعي الباطن والسريره الانسانية في أعماقها « اللامنطقية » على حد تعبيرهم المأثور .

فالخلط الهاذر مذهب لم يخلقه دعاة «اللامنطقية» في القرن العشرين ، ولكنهم خلقوا شيئا واحدا فيه لم يسبقهم احد اليه ، وهو اطلاق العناوين العلمية عليه واستعارتهـــا من دراسات التحليل النفساني أو من دراسات العلوم الطبيعية ، وقديما وجد في الشعراء والفنانين من يجنح به هواه أحيانا الى رفع الكلفـــة واطراح الحشمة والابتذال في اللفظ أو المعنى أو في كليهما ، فيسترسل في الهذر واللفظ كأنه في اجازة من « نفسه الفضلى » كما يقولون ، وينسب الى هذه النزوات شعر المجانة والهـــزل وشعر الاباحة والجموح ، وينسب اليه كذلك ضرب من الشعر الذي يخيل الى الناس انه محدثهم بالحكم والامثال وهو في أسلوبه الهازل ساخر بضروب الحكمة والمثل ، كما صنع بن سودون اليشبغاوي (٨٠١ ـ ٨٦٨ هـ)في قصيدته البائية التي يقول فيها :

عجب عجب عجب عجب
بقر تمشي ولهـــــا دنب
ولهـــا في بزبزهـــا لبـــن
يبـــدو للناس اذا حلبـــــوا
لا تغضب يومـــا ان شـــتمت
والناس اذا شتموا غضبـــوا
من أعجب ما في مـــصر يـــرى
الكـــرم يرى فيـــه العنـــب
والنخـــل يرى فيه بلـــح
أيضـــا ، ويرى فيـــه رطب

زهر الكتـــان مع البلســ
ـان همـــا لونان ولا كــذب
كيهود في دير ، خلطـوا
بنصـــارى حركهم طرب

وأدخل من هذا في باب « اللامنطقية » مذهب من مذاهـب الزجل في اللغة الدارجة يعاقبون بينه وبين الادوار المقصودة ، فيبدأون بالدور العاقل ويتبعونه بالدور المجنـــون الى نهايـة الزجل، ويحفظ من هذه الأزجال كثير في مجموعات هذا والاجيال القريبة ، من امثلتها في كتـــاب ترويح النفوس لحسن الآلاتي زجل يقول فيه :

كسرت بطيخـــة رأيت العجـب
في وسطها اربـع مداين كبـــار
وفي المـــداين خلـق مثل البقـر
في كل واحدة اربع قلاع حصـار
وفي القـلاع أقوام طوال الذقون
ودمعهم يجـري شبيـــه البحار
من دمعهـــم تزرع نجوم السما
في خلقـة المشمش عديم المثـال

وأحيانا يقسمون الادوار الى دور صاح ودور سكران . أو يصوغون فيها المفارقات على ألسنة الصبيان كما يجري علىألسنة العامة :

يا ليـــل يا عين معرفش اكدب
والضفدعـــة شايلة مركـــب
وأبـو فصـــاده ريســـها
والقـــط الاعـــور حارمهـــا

الى أشباه هذه « اللامنطقيات » المتواضعة التي يضعها اصحابها في مواضعها ويسمونها بأسمائها ولا تعدو عندهم ان تكون « منفسا » يستبيحونه الى حين ويعرضون به «اللامنطقية» في صورة فنية ، ويعلمون ويعلم الناظرون اليها أنها من قبيل الصور الهزلية أو « الكاريكاتور » ، ولا يطلبون من الانسانية ان تحلها في محل فنونها وأن تنبذ المنطق في سبيلها .

فاذا كان لا بد من هذه اللامنطقية في الاداب العربية فعندها منها ما يغنيها ولها فيها مجال لا يخرج بالعقل من دائرة العقل ولا بالجنون من دائرة الجنون .

الشعر أسبق أم النثر ؟

السيد جوردان شخصية مشهورة من الشخصيات المضحكة في احدى روايات « موليير » التي استوى بها على عرش الفكاهة المسرحية في الآداب الفرنسية ..

ومدار الفكاهة في شخصيــة جوردان انــه غني من محدثي النعمة أراد أن يتشبه بالنبلاء فاتخذ له معلمين يعلمونه الرقص والمسايفة والبلاغة ، وجاء بالطرائف التي لا تخطر على البــال وهو يحاول أن يفهم دروسهم ويعقب على شروحهم وأقوالهم ، فاذا هو كما قال يتكلم « النثر » طوال حياته ولا يعرف ذلك حتى عرفه من كلام معلم البلاغة !

لقد أفهمه معلمه معنى الشعر ومعنى النثر ، فخيل اليــه أن النثر هو ما ليس بكلام موزون منظوم ، وتخيل اذن أن كلامه طول حياته داخل في ذلك التعريف ، وأنه كاد ان يقضي بقية حياته وهو يجهل هذه المعجزة .. لولا أنه تلقى الخبر اخيرا من الاستاذ .

أراد موليير أن يجعل السيد « جوردان » مضحكا بهــذه العبارة فأفلح فيما أراد وضحك الناس مما قال ، لانهم أدركوا على البديهة من غير تطويل في البحث والاستقصاء ان السيــد « جوردان » مخطىء في تصوره الساذج ، وأن النثر شيء غير

مجرد الكلام الذي لا ينطبق عليه تعريف الشعر : وهو الكلام الموزون المنظوم .

فاذا لم يكن الكلام شعرا فليس من الضروري اللازم في هذه الحالة أن يكون نثرا لا محالة . قد يكون كلاما وليس بشعر وليس بنثر ، لان المقصود بالنثر هو التعبير الادبي في غير نظم أو وزن من أوزان البحور الشعرية ، وقد يتكلم الانسان طول حياته وهو لا ينظم ولا ينثر ، اذا كان كلامه خلوا من التعبير الادبي في المنظوم والمنثور .

واذا سأل السائل : أيهما اسبق ، الكلام أم الشعر ؟ فلا محل للخلاف ولا لاطالة الروية قبل الجواب ، فان اللغة مسابقة للكلام المنظوم والكلام المنثور على السواء . ولكن السؤال الذي يقع عليه الخلاف هو : أيهما أسبق ، الشعر أم النثر ؟ ونعتقد نحن أن الشعر أسبق من النثر بزمن طويل . نعتقد هذا ولا نحسب أن الدليل القاطع في تقرير هذا الرأي مستطاع ، ولكنه رأي يقوم على القرائن التاريخية والقرائن النظرية ، ولا ينقضه من الواقع شيء معلوم حتى الآن .

فمن القرائن التاريخية أن الشعراء أقدم من الكتاب ومن الناثرين على العموم ، اذا صرفنا النظر عن الكلام المكتوب أو المحفوظ في الاوراق .

فشعراء العرب في الجاهلية لا يسبقهم ناثر ، ولا يحفظ العرب كلاما منثورا يقترن تاريخه بالتاريخ الذي نظموا فيه قصائدهم المروية ، وما بقي من كلام الكهان المسجوع فهو ــ ان صح ــ أدل على قدم الشعر والقافية ، لان الكلام المقفى محاكاة للشعر الذي تلتزم فيه الاوزان والقوافي ، ودليل على سبق الكلام المنظوم للكلام المنثور ، ولم يثبت قط أن الشعر هو سجع متطور ، لان التاريخ لم يحفظ لنا قط كلاما مسجوعا عن عصر

من العصور ليس فيه شعر ، ولم نعرف عن الشعراء في اقـدم العصور انهم سجعوا ثم تطوروا فنظموا . ولم تزل اسجـاع الكهانة غير أوزان «الشاعرية» في طبيعتها وموضوعها ، فالكاهن لا يتدرج من السجع الى النظم والشاعر لا يتعلم الكلام الموزون من المرانة على الكلام المسجوع .

والآداب اليونانية هي مرجع الباحثـين عن أوائل الآداب الاوربية القديمة ، وهي شاهد آخر على سبق النظم للنثر في جميع الآداب ، لان « هومير » قد نشأ في زمن سابق للقـرن السابع قبل الميـلاد ، وكان من معاصريه في بعض الاقـوال « أرشيلوكس » الذي أشار في قصائده الى كسوف الشمس ، وحسب الفلكيون انه كسوف ابريل سنة ٦٤٨ قبل الميلاد ، أو كسوف مارس سنة ٧١١ قبل الميلاد ، وليس في المحفوظـات اليونانية كلام منثور يرجع الى ما قبل التاريخ .. وكل ما بقي من الكلام المسجوع الذي يقارب ذلك التاريخ فهو من قبيـل سجع الكهان ، أو من قبيل السجع الذي يستعان به في الخطابة ، وأقدم ما ورد من ذكره لا يرجع الى عصر سابق لعصر الناقـد المعروف ثراسيما كوس Thrasymachus وهو من أبناء القرن الخامس قبل الميلاد .

أما الادب اللاتيني فقد كان من الواجب ان تنعكس فيه هذه القاعدة لانه الادب القديم الذي امتاز بالرسائل المأثورة لسعة أطراف الدولة وتجدد الحاجة الى المراسلة بين مكـان تلك الاطراف المترامية ، ومنهم الأدباء والبلغاء .

ولكن الثابت مع هذا ان الاغاني اللاتينية سابقة للملاحم والقصائد في لغة اللاتين بعد تطورها ، وان مشاهير الشعراء سابقون لمشاهير البلغاء والكتاب وأصحاب الرسائل المنتقاة ، ومنهم شيشرون الناقد الاديب الخطيب .

وما يؤثر عن قدم الشعر في الآداب العربية والاوربية شبيه بالمأثور عن آداب الامم الشرقية في جملتها ، فليس في آدابها نثر أقدم من قصائدها المقدسة وأغانيها الشعبية الاولى ، وكل محفوظاتها المسجوعة لاحقة بمحفوظاتها من الشعر الموزون .

وقد يخطر على البال ان السبب راجع الى الحفظ لا الى القدم ، وأن النثر قد سبق الشعر ولكنه لم يبق كما بقي الشعر، لان الكلام الموزون أيسر حفظا من الكلام المنثور . ولكنه خاطر مردود يسهل نقضه بقليل من الروية فيه ، فان سهولة الحفظ نفسها تحتاج الى التعليل ، وليس لها علة الا أن يكون الكلام المحفوظ أقرب الى الطباع وأدنى الى الفطرة وأغنى عن الصناعة، وان الكلام الذي يصعب حفظه بغير التسجيل في الورق يعتمد على صناعات كثيرة ولا يكفي فيه الاعتماد على الفطرة ، فهو معلق بمعرفة الحروف ومعرفة الادوات الكتابية وتطور المجتمع مع تطور الحاجة فيه الى التدوين بغير الوسائل الفطرية ، وهي وسائل الحفظ والتعويل على الذاكرة .

وقد يبدو للسيد « جوردان » أن تأخر النثر عن النظم شيء غريب ، لانه يخلط بين ظهور النثر وظهور اللغة ، وهي ولا شك سابقة لظهور الشعراء والبلغاء .

لكن السيد جوردان مضحك كما اراده موليير ، ومضحك كما رأينا من فهمه لكل شيء . فالواقع أن تأخر النثر عن النظم ترتيب طبيعي لا غرابة فيه ، اذ كانت شروط الشعر تتوافر قبل توافر الشروط المطلوبة للكلام المنثور ، ويكفي لظهور الشعر أن تظهر في انسان من الناس ملكة غنائية ، وهي من أقدم الملكات في الاحياء . أما الكلام المنثور فما الحاجة اليه في المجتمعات الاولى ؟ وما أكثر الشروط الصناعية التي ينبغي أن تتوافر في المجتمع قبل شعوره بالحاجة اليه !

ولا نخلط بين الخطيب والناثر فهما شيئان مختلفان ، فان الخطابة في المجتمعات الاولى صفة من صفات الزعامة ، وليست كذلك صفة الناثر البليغ ، ولكننا ــ على فرض التشابه بين الخطابة والنثر ــ قد نتصور ظهور الشاعر قبل ظهور الخطيب والناثر ، لان ملكة الشعر لا تتوقف على نشوء « القبيلة السياسية » التي تستمع الى الخطباء في شؤونها العامة ، بل لعلها توجد مع الدوافع الحيوية التي تهم كل فرد على حدة ولا تتوقف على سياسة الجماعات .

والغالب أن الشعر فطرة وأن النثر تعليم ، وأن الباعث الى الكلام البليغ يأتي بعد الباعث الى الغناء ، فقد تغنى الحي الذي لا يتكلم ، وليس بالمعقول ان يصل الحيوان الناطق الى الكلام وهو عاجز عن الغناء وعن صوغ كلامه في النغم الموزون .

***

في حديث مروي عن استاذ المدرسة الموسيقية القديمة مصطفى رضا بك ــ رحمه الله ــ أنه كان يعجب للذين يعرضون بين المقامات الموسيقية وعناوين النغمات ، وانه كان يشبههم بمن يتصدى لكتابة خطاب قبل ان يميز بين الحروف وأنواع الخطوط . وهذا قياس مع الفارق كما هو ظاهر ، فان الأحرى ان يقال ان المغني الذي لا يعرف اسماء المقامات والانغام كالشاعر الذي لا يعرف اسماء البحور والاعاريض .

وقد وجد الغناء قبل ان توجد اسماء مقاماته وانغامه ، ووجد الشعر قبل أن توجد اسماء بحوره وأعاريضه ..

لكن العجيب حقا هو أن يوجد ناثر قبل أن توجد الحاجة الى التدوين ، فحيثما وجد النثر فهناك جماعة تحتاج الى تدوين

الكلام ، ولو لم يكن صاحب النثر نفسه هو الذي يدون ما يقول ، بالحروف أو بغير الحروف .

ولهذا نرى ان سبق الشعر لا عجب فيه ، وان سبق النثر فيه شيء من العجب ، وأن أولاهما بالسبق هو اغناهما عن الصناعة وتطور الجماعة ، وأقدرهما على الاكتفاء بالفطرة على أبسط ما تكون .

الشعر لازم

الشعر لازم في عامنا هذا كما كان لازما فيما سلف من ألوف السنين ومئات العصور .

لا ينقص من لزومه شيوع الصاروخ كما قيل ..

بل هو ألزم ما يكون حين تشيع الصواريخ وتشيع معها اخواتها من صفائح الحديد والخشب وآلات النار والكهرباء .

وكلما غلبت المادة وصفائحها وآلاتها تحسس الانسان مكان روحه ، وارتد الى قرارة عواطفه ووجدانه ، يطمئن على نفسه : ألا يزال انسانا بعد ، أو هو قد فقد الانسانية في كيانه وصار مع الصاروخ واخواته آلة من الآلات ، وقطعة من الخشب والحديد ، وشواظا من النار والكهرباء .

وما كانت بالانسان حاجة الى أن يتلمس دخيلة حياته بين جنبيه ، يوم كانت عشرته من الأحياء ، وطعامه من خيرات الاحياء ، ومقامه بين صنوف الاحياء ، ورحلته على متون الاحياء .

ولكنه في عصر الصاروخ ، أحوج ما يكون أن يتلمس موطن تلك الحياة ، وأن يستمع الى نجوى فؤاده بلسان الحياة ، وان ينظم الشعر ويحن الى النغم ويشهد صور الجمال والعطف في كل منظور ومسموع .

وما كان الصاروخ ليحل محل الشعر واخواته من فنون الجمال ، اذ كان الناس لم ينظموا الشعر لانهم بحثوا عن الصاروخ فلم يجدوه ، وانما نظموه لانهم يحسون وينطقون ولأنهم يترقون مع الزمن فيزداد النطق عندهم بالجمال ، ويحسن الانسان من التعبير الجميل ما لم يحسنه الحيوان ، ويستطيع من النظم ما ليس يستطيعه الطير بالتغريد ، ولا الخيل بالصهيل ولا سباع الغاب بالزئير .

ولئن سبق الصاروخ الطيارة لن يسبق الصاروخ سبحات الخيال ..

لقد سبقه الخيال يوم تحدث للانسان عن حصان الآبنوس ، وعن أجنحة واق الواق ، وسبقه الخيال فأملى على الصانع كيف يكون الطيران بالقوة ، وكيف يكون الطيران بالخفة ، وقد كان العلماء يجزمون جزم اليقين الا طيران في الهواء بغير أداة أخف من الهواء ، عجزا منهم عن فهم الطير كيف يطير حين لم يعجز الخيال ، وانما هي القوة يطير بها ذو الجناح كما يطير بها الحصان الطيار .

ان الشعر لازم للانسان الناطق ، ما دام ينطق ويعقل ويترقى بالنطق في معارج الكمال ومعارض الجمال .

ان الشعر الزم ما يكون للانسان في عصر الصواريخ ..

وان حفاوتنا به في هذا العصر شهادة لعصر الصاروخ وتعليه ، لانه لم يتخلف عن عصور تعلم فيها الانسان كيف يكون انسانا بالمنطق الساحر واللسان المبين .

وفي الغرب الذي يدين بالصاروخ علامات كهذه العلامة ، وآيات كهذه الآية ، تنويها بلزوم الشعر وعنوانا على اللهج به والحرص عليه .

في السنوات الست الاخيرات ــ سنوات الصاروخ ــ صارت الجائزة العالمية للادب الى ستة من الادباء : خمسة منهم شعراء ، وهم خيمينيز الاسباني ، وباسترناك الروسي وكوسيميدو الأيطالي وبيرس الفرنسي وسيفريس اليوناني .

ومهما يكن من الرأي في انصاف جائزة نوبل العالمية ، أو في نظرتها الناقدة الى الآداب والفنون فلا نكران عليها انها علامة من علامات الزمن بصوابه وخطئه ، وبما يراه من لزوم وما لا يراه .

ولا علامة للشعر اللازم في هذا الزمن ، أصدق من العلامة التي تدل على أمم خمس : بينها من المشابهات والفوارق ما بين الاسبان والروس والطليان والفرنسيين واليونان .

***

اذا لزم الشعر في لغة من اللغات فانما يلزم لألزم ما فيه وألزم ما في الشعر انه فن من الفنون .

والزم ما في الفن أنه ذو قواعد وأصول ، توائم في كل لغة ما طبعت عليه تلك اللغة ، وتوائمه في اللغة العربية ــ خاصة ــ انها لغة الوزن في كل كلمة وفي كل صيغة ، فليست فيها كلمة واحدة تنعزل من وزن اشتقاق أو وزن سماع .. لا شعر بغير فن .. ولا فن بغير قاعدة .

والذين يقولون بغيرذلك يقولون عجبا يستغربه السامع ويستغرب الذي يسمع ويفقه ما يقال كيف يصغي اليه السمع وكيف يستجيب له الفهم ، وكيف يتكرر بعد تكرار اللسان فيه .

يقولون ان قواعد الوزن تدعو الانسان أن يقول ما لا يلزم، تكملة للوزن حيث لا محل له من الكلام .

هل يقال هذا في الشعر وحده أو يقال في شتى الفنـــون عندنا وعند غيرنا من العالمين ؟

ماذا يصنع منشد الغناء ؟

ماذا يصنع الراقص في حركات يديه وقدميه ؟

ماذا يصنع الموسيقار في صوته المرسل بغير كلام ؟

الا يزيد المغني في غنائه ليطابق فيه بين الالفاظ والالحان؟

أنبطل الالحان لانها تسومنا المد في الصوت وراء ما يلزم.. كما يقال ! او لانها تسومنا الزيادة في الحروف والكلمات وراء ما تتم به جملة المبتدأ والخبر أو جملة الفعل والفاعل ، أو جملة المحمول والموضوع ؟

أنبطل الرقصة التي تسوم الماشي أن يخطو فوق خطوه أو يقصر عنه باختياره ؟

ان الفنان لا يضع في مده أو زيادته غير ما يلزم ، بل غير اللازم قبل كل لزوم : وهو رعاية الفن والقاعدة في الفنـــون وليس الوزن زيادة في المقال بل هو قوام المقال كله ، الا أن يكون من غير الفنون . وانما الشعر تفاعل كامل بين اللفظ والمعنى وقاعدة القواعد الفنية في وزن أو نظام مقدور .

وملكة الشاعر هي الملكة التي تقدر على هذا التفاعل بغير حشو أو فضول ، أو يكون الحشو والفضول ــ ان كانا ــ زيادة للمعنى وتوكيدا للاثر ، لا وقرا محملا عليه ، ولا فضولا ملصقا به ، ولا لغوا مضافا اليه .

وكل بيت في الشعر المطبوع آية على صدق هذا التفاعل التام بين الالفاظ والمعاني والاوزان ، وآية على لزوم الوزن كلزوم لفظ الشعر ومعناه .

أمامنا مثل من أبيات لامرىء القيس وصفا للفرس :

وقد أغتـــدي والطير في وكناتهـا
بمنجرد قيـد الاوابـد هيكـــل

مكر مفـــر مقبل مدبر معــا
كجلمود صخر حطه السيل مـن عل

كميت يزل اللبد عـــن حـال متنه
كمـــا زلت الصـــفواء بالمتنزل

لا شك ان كلمات « الهيكل » و « من عل » و « المتنزل » قد جاءت لوزن القافية اللامية .

ولكن هل هي زائدة ؟ كلا .. ونجرب حذف الهيكل لنرى كيف ينقص المعنى والاثر ، ولو كان من الكلام المنثور .

نقول مثلا : « اننا نغدو مبكرين قبل نهوض الطير بمنجرد قيد الاوابد ... »

فنسمع وصفاً للسرعة ولا نسمع وصفا للشكل والحجم والمنظر ، وانما يتم ذلك كله حين نقول انه قيد الاوابد هيكل أي أنه ضخم جسيم .

ولقد يقال ان كلمة اخرى تحل محل « هيكل » حين نقول « ضخم أو جسيم أو مكين » .

فهل ترانا نشعر بأثر لهذه الكلمات كما شعرنا بأثر الهيكل فيما حققته الكلمة من وصف الجسامة والصورة والمثال ؟

جواب ذلك عند من يتهمون القافية بزيادة الفضول ، ان لم يكن جوابهم هنا من فضول المقال .

ونأتي بعد ذلك الى كلمة « من عل » وهي التي تتم وصف

الجلمود وهو ينحط مع السيل، فهل يتم الاثر بحذف هذه الكلمة؟ هل التذكير بانحطاط الحجر من الاعلى فضول وزيـــادة بغير مدلول ؟

وهل ذكر المطر دون وصفه بالمتنزل تنزيه للبيت من اللغو أو هو مما يتمم هذا الوصف للمــطر بالتنزل والزلل عن متــن الصفواء في هذه الحال .

وأبيات غير هذه الابيات من كلام المعري يقول فيها مفتخرا:

الا في ســـبيل المجد أنا فاعل
عفـــاف واقــدام وحزم ونائل

أعندي وقد مارست كل خفية
يصدق واش أو يخيــب سائل

تعد ذنوبي عنـــد قوم كثيرة
ولا ذنب لي الا العلا والفضائل

فمما لا شك فيه أن النائل والسائل والفضائل قد جــاءت في مواضعها هنا لان القافية لامية .

ولكن لماذا نغيرها لضرورة المعنى ؟

ولماذا نقول معنى غير هذه المعاني التي تؤدى بهذا النظــم وهذه القافية ؟

ولماذا نعدد فضائل اخرى تزيد على هذا العدد أو تنقص منه ، بعد ذكر العفاف والاقدام والحزن والنائل .؟ واذا كانت كلمة العطء مثلا تؤدي معنـــى كلمة النائل ، فلماذا نفضلهــــا عليها ؟

ويقول ابن الرومي في وصف مغن كريه الصوت والغناء :

أبو سـليمانَ لا ترضى طريقته
لا في غنـــاء ولا تعليم صـبيان

له اذا جاور الطنبـــور محتفـلا
صوت بمصر وضرب في خراسان

فمما لا شك فيه أن خراسان جاءت هنا وزانا لصبيان ، بل لا شك ان « محتفلا » في الشطر الاول كلمة لازمـــة لتمام البيت ..

لكن الشاعر قد يقول بدلا من الشطر الثاني : « صـــوت بمصر وايقاع ببغداد » اذا كانت القافية دالية .. فما الـــذي يختلف بين هذين الاسمين ؟

وقد يحذف الناثر كلمة « محتفلا » بعد الطنبور فيقول : له اذا تناول الطنبور صوت هنا وضرب هناك .. فهل يكسب البيت بحذف هذه الكلمة ويقوى ؟ أو يخسر ويضعف ؟

ان كلمة « محتفلا » تصور لنا اجتهاد المغني وتأهبه بجلسته وايماءه واستعداد السامعين للاصغاء الى شيء حسن ، فاذا بهم يفاجأون بالصوت الرديء ، فلا يكون اثره في نفوسهم كأثره فيها وهم لا يرون ذلك الاحتفال ولا ينتظرون بعده الاتقـــان والكمال ... فما جاءت « محتفلا » هنا فضولا لاجل الوزن ، بل كان تفاعل الكلمة مع الوزن سببا لاستدراك نقص واستكمال اثر ، لم يكن لهما في النثر من داع منبه لهذا الاستدراك .

اننا نردد اليقين بالشعر اللازم والفن الألزم ..

لزوما يتم فيه المعنى واللفظ بالوزن والقافية ، وتـــؤدي فيه ملكة الشاعر المطبوع عملها « تفاعلا » حيا بين نغماتـــه وحروفه وكلماته ، تتزاوج فيه جميعا لتزداد بلاغة في الاثـــر

وايناسا للسمع ، واشباعا للاداء ، ونفيا للفضول ، وتجاوبا بين الوقع والايقاع ... وعلى ذلك جبلت ملكة الشاعر المطبوع . من رزقها تال وتغنى وأفهم وأثر ، ومن لم يرزقها فلا حق له في قول الشعر ولا في القول فيه ، ولان يسكت فلا يقول شعـــرا ولا يقول عن شعر خير له وللناس، وخير للشعر والفن وللعقول والاسماع .

* * *

التجديد في الشعر

اذا أوجزنا قلنا ان التجديد هو اجتناب التقليد ، فكل شاعر يعبر عن شعوره ويصدق في تعبيره فهو مجدد وان تناول أقدم الاشياء . هل شيء في هذا العالم الارضي اقدم من الشمس ؟ ان الذي يصفها اليوم صادقا في وصفه غير مقلد في تصويره مجدد تمام التجديد ، وان لم يأت بكلام جديد .

هكذا تجدد الشمس النهار ، وتجدد الارض الربيع ، ويجدد الشباب الامل والحب جيلا بعد جيل .

وليست الدنيا عتيقة بالية لأنها تجيئنا كل عام بربيع كالربيع الذي تقدمه ، وليس الشاعر عتيقا باليا لانه يجيئنا بذلك الربيع كما جاءت به الدنيا في حينه ، موصوفا على الصورة التي عهدها آدم في جنة الفردوس ، ثم عهدها أبناؤه في جناتهم على هذه الغبراء ! ... التجديد ـ في كلمتين ـ هو اجتناب التقليد .

أما اذا تعمدنا الاسهاب والتفصيل ، وتناولنا عناصر الشعر جميعا فهي مختلفة في قبولها للتجديد ، أو مختلفة على الاصح في حاجتها الى التجديد .

هذه العناصر هي اللفظ والوزن والموضوع ، وهي على هذا الترتيب في حاجتها الى التجديد مع الزمن : فاللفظ الذي يتألف منه الشعر يبقى الف سنة ولا يطرأ عليه تغيير يذكر ، ويصلح

في هذه الحالة لشعر امرىء القيس كما يصلح لشعر البارودي ، مع قليل من التحوير الذي لا يلتفت اليه الا المختصون بتسجيل أطوار الكلمات .

ونعني باللفظ هنا المفردات في غير الجمل والابيات ، وهي المفردات التي تطرأ عليها الزيادة القليلة كل بضعة قرون ، أو يطرأ عليها اختلاف الاستعمال من فترة الى فترة في حياة اللغة الواحدة ، ولا بد للشاعر من متابعة هذه الاطوار وقد يكون هو عاملا من عوامل الزيادة والتصرف في الكلمات .

الا أن الجهد في تجديد المفردات يظل على الدوام أقل وأهون من الجهد في تجديد الاوزان وتجديد الموضوعات. فالمعجم الشعري اليوم قريب من المعجم الشعري في عهد أصحاب المعلقات . أما الوزن فقد اختلف في عدد البحور ، واختلف في عدد القوافي ، ولا يزال قابلا للاختلاف ، وفي حاجة إلى الاختلاف .

كانت أوزان الشعر في الجاهلية قليلة البحور ، وكانت القصيدة الواحدة قليلة الابيات. ثم تعددت البحور ومجزوءاتها ، وتضاعف عدد الابيات في القصيدة الواحدة ، وطرأ التنويع على القافية في الرجز ثم في التسميط والتوشيح ، ثم انتهينا الى العصر الحديث فظهر بيننا من دعاة التجديد من يدعو الى الغاء القافية ونظم الشعر مرسلا أو مطلقا على الطريقة الاوربية ، ولكنها دعوة لم يكتب لها النجاح ، ولا نظنها جديرة بالنجاح في المستقبل . لان أعاريض الشعر العربي تستلزم القافية من حيث لا تلزم في الاعاريض الاوربية ، وقد يكون الاطلاق من القافية في الاعاريض الاوربية نفسها مقصورا على المطولات والملاحم التي تصلح للقراءة وقلما تصلح للسماع . والشعر قبل كل شيء سماع .

والذي نعتقده او نشعر به ، أن تنويع القوافي أوفق للشعر العربي من ارساله بغير قافية ، وانه يقبل التنويع في أوزان المصاريع والمقطوعات على أسلوب الموشحات ، فيتسع للمعاني المختلفة والموضوعات المطولة ، ولا ينفصل عن الموسيقية التي نشأ فيها ودرج عليها ، ولعلنا لا نحتاج الى تيسير أوسع من هذا التيسير ، كائنا ما كان موضوع القصيد وان طال غاية المطال .

تجديد قليل في اللفظ ، وتجديد أكثر منه في الوزن ، وتجديد أكثر من هذين التجديدين في الموضوع . فكيف يكون هذا التجديد في الموضوع ؟

ان صرف الشعر الى الاجتماعيات والاحداث العامة رأي من الآراء في تجديد الموضوعات الشعرية ، ويقترن به رأي آخر ينادي بالطابع الاقليمي في الشعر خاصة وفي الادب عامة ، ويقول آخرون بالشعر المسرحي أو شعر القصة المسرحية وغير المسرحية ، وكل هذه الآراء مقبولة من ناحية مرفوضة من ناحية ، لان العبرة في الشعر بالملكة التي توحي معانيه ، وليست العبرة بالعنوان الذي نختاره لموضوعاته ، كعنوان المسرحية أو عنوان الشعر الاقليمي ، أو عنوان الشئون الاجتماعية والمسائل العالمية .

ونحن اذا نظرنا الى الشعر من ناحية الملكة التي توحيه وجدنا ان ملكة الشعر الغنائي قد لازمت القصيدة العربية من نشأتها الاولى ، فهي تتردد بين نغمات الغزل والفخر والحماسة والرثاء ، او تتردد بين ألوان الشعور الفردي البسيط ، ويندر أن تتخطاه الى الشعور المركب المتوشج ، وهو الشعور المتجاوب بين عدة نفوس على عدة أمزجة وفي عدة حالات .

فاذا كان للتجديد في موضوع الشعر وجهة ، فهذه هي الوجهة التي أمامنا ، ولتكن سبيلها الرواية المسرحية أو الحادثة العالمية أو الاوصاف الاقليمية ، فانما العبرة بالملكة التي توحي المعاني في جميع الموضوعات ، وليست العبرة بالعناوين التي تخلعها على هذه الموضوعات .

والفرق بين الشعر الغنائي والشعر المركب المتجاوب هو الفرق بين الربابة وبين الفرقة الموسيقية التي نسمع منها عشرات المعازف في نغمات متعددة مع التناسق بينها والوحدة في مجموعها . وينبغي أن نذكر هنا أن التنوع والتجاوب هما المقصودان بالتصرف والتجديد ، وليس المقصود هو كثرة الآلات التي نعزف عليها في وقت واحد . فان ألف ربابة توقع لنا لحنا واحدا هي أسلوب ساذج بغير تصرف . وقد يكون التصرف كل التصرف في ربابة ومزمار ودف وبيان تختلف وتتجاوب وتفلح في الارتفاع بالشعور من البساطة والانفراد الى التجاوب والتركيب .

ولكن الخير أن نبقي كما نحن ، وأن نقصر نظمنا على الشعر الغنائي ، اذا كنا ننظم في الموضوعات الجديدة تقليدا للذين سبقونا الى النظم فيها ، فان التقليد نقيض التجديد ، والدرهم الصحيح أنفس من الدينار الزائف يحكي الذهب باللون والصورة ولا يحكيه بالمعدن والقيمة .

ومن أمثلة الدعوات الزائفة الى التجديد أن يسمع بعضنا بالشعر الاقليمي في اللغة الانجليزية ــ وأكثره من شعر الامريكيين ــ فيخطر له أن الشعر الاقليمي اختراع واختيار ، وينسى أنه واقع طبيعي لا محل لفرضه على الشعراء ، حيث لا تفرضه عليهم طبيعة الحياة ، وفي أمريكا أقاليم لا تتشابه

في الموقع ولا في المكان ولا في المعيشة ، فهم لا يختارون الاقليمية في الشعر ولا في الجغرافية ، ونحن هنا لن نستطيع أن نزرع قمحا في التربة المصرية دون أن يصبح قمحا اقليميا باختيارنا أو بغير اختيارنا ، ومن قال لشاعر :كن اقليميا فقد قال له كن مقلدا . ولكنه اذا كان من طبيعته منتميا الى اقليمه فلا حاجة به الى الامر والارشاد .

كذلك يقول بعضهم متعجبا : هل توحي حرب طروادة الى هوميروس بالالياذة ولا تظهر في العصر الحديث الياذة أضخم منها بعد الحرب العالمية العظمى ؟

ولو كان هؤلاء القائلون يفهمون وحي الابتكار في الشعر لما خطر لهم أن شاعرا عصريا ينبغي أن ينظم الياذة في الحرب العالمية ، لان شاعرا قديما نظم الياذة في حرب طروادة . من أين لهم مثلا ان هوميروس كان ينظم في الحرب العالمية الياذة لو أنه عاش في زماننا ؟

من أين لهم أن ضخامة الحرب هي التي توحي بالنظم فيها ؟ فقد تكون الحرب بين عشرين فارسا متقابلين أعنف في اثارة النفس من حرب الملايين بين الخنادق لا يشهد بعضهم بعضا ولا يعرفون من الحركة غير ضغط الزناد !

كذلك لا يفقه التجديد من يحسب أن الشعر المسرحي حيث كان أرفع من الشعر الغنائي في كل موضوع . فان الشاعر المسرحي الذي لا يرسم لك شخصية واحدة صحيحة أقل من الشاعر الغنائي الذي يتحدث لك عن غناء البلبل فيصدقك الحديث والشعور ، فكل فضل الشاعر في الملكة التي توحي اليه شعره دون العناوين التي يطلقها على موضوعاته ، ونحن لا نفضل الشاعر المسرحي على الشاعر الغنائي الا لان الشاعر

المسرحي يستطيع شعر الغناء ويستطيع زيادة عليه ، وهــذه الزيادة عليه هي الحس المتجاوب في النفوس المتعددة ، فان كان يملك هذا الحس فهو صاحب الفضل بهذه الملكة أيا كان الموضوع الذي يختاره لنظمه ، وان لم يملكها فالموضوع لا يعطيه ملكة هو محروم منها .

واذا كان التجديد هو اجتناب التقليد فالتجديد كذلك هــو اجتناب الاختلاق ، والمختلق هو كل من يجدد ليخالف ، وان لــم يكن هناك موجب للخلاف . ان الذي يمشي على يديه يأتي بجديد ويدل على براعة لا يستطيعها من يمشي على قدميه . ولكننا قد نضع في يده درهما وقــد نزج بــه في مستشفى المجاذيب ، ولا نمشي على الايدي من أجل تلك البراعة وذلك الاختـــلاف أو الاختلاق .

نجدد فلا نقلد ولا نختلق ، ونحن مجددون كمــا ينبغي ــ وكأحسن ما ينبغي ــ اذا خرجنا بالشعر العربي من لحن الربابة الى لحن الفرقة الموسيقية ، شعورا منا بتعدد النغمات النفسية، لا لمجرد المباهاة بكثرة المعازف وارتفاع الضجيج .

***

أدب وفن

من هو الاديب ؟

كان جماعة من « الادباء » يتحدثون عن وظيفة الادب الاجتماعية ، فاختلفوا في الفرق بين وظيفة الاديب في المجتمعات القديمة ووظيفته في مجتمعاتنا العصرية ، فخطر لي ان اسألهم: ومن هو الاديب في المجتمعات القديمة ؟

اننا نتكلم عن الادب في المجتمعات قديمها وحديثها كأن الادب بمعناه الذي نعرفه اليوم قد كان معروفا هكذا بين جميع الامم وفي جميع الازمنة ، وهو ولا شك خطأ لا يصمد لاول سؤال .

فأنت اذا نزلت اليوم ببلد من بلدان الحضارة وقلت لهم دلوني على رجل من أدبائكم لم يجهلوا ما تريد ودلوك على واحد ممن يصح أن يطلق عليهم وصف الاديب كما تعنيه ..

ولكن على من يدلك أهل الجاهلية مثلا اذا نزلت بينهم وقلت لهم : دلوني على واحد من أدبائكم ؟ ..

انهم لا يدلونك على الشاعر ، ولا على الراوية ، ولا على النسابة ، ولا على الخطيب ، وان كان العلم بالشعر والتاريخ والخطب مما يدخل في نطاق صناعة الادب في الازمنة الحديثة . ولو انك سألت عن أديب في صدر الاسلام لفهموا انك تقصد

انسانا بريئا من العنجهية البدوية واللوثة الاعرابية :

واني على ما في من عنجهية
ولوثة اعرابيتي لأديب

وقد تتحدث الى هذا الاديب الذي يدلونك عليه فيخوض معك في سمر شائق وطرائف شتى من أطايب الحديث ، ولكنه قد يرضيك من هذه الوجهة ولا يحسب في زمنه من أهل العلم ، ولا يحسب في الزمن الحديث من زمرة الادباء .

ولعلهم يدلونك على مثله في أنس محضره وظرف معشره لو أنك نزلت بمصر أو بقطر من أقطار العربية في أواخر القرن التاسع عشر ، وسألتهم أن يجمعوك بأديب من الادباء .

أما معنى الاديب كما نفهمه اليوم ، فهو من المعاني المستحدثة التي تطورت فترة بعد فترة في العصور الاخيرة ، فكان الاوربيون يفهمون من مقابل هذه الكلمة Man of letters

انه رجل مطلع على الكتب دارس للعلوم ، لان دراسة الكتب على اختلافها كانت هي الفارق بين العلماء والجهلاء . ثم شاعت الدراسة وتنوعت فعرفوا الفرق بين عشرات من الموضوعات التي يطلع عليها الدارسون ، ومنها الموضوع الذي خصص لمعنى الادب بمدلوله المصطلح عليه في هذه الايام ...

ولكن ما هو هذا المدلول ؟ ومرة أخرى من هو الاديب ؟

أهو الشاعر ؟ أهو القصاص ؟ أهو ناقد الشعر ؟ أهو المطلع على سير الادباء والقصاصين والنقاد ؟

انك اذا قلت « فلان شاعر » فقد وصفته بغير حاجة الى وصف الادب بعد ذلك ، وكذلك تصف « القصاص » سواء كتب القصة المطولة أو النادرة القصيرة ..

فاذا قلت عن العارف بالشعر والقصاص انه أديب قيل لك : حسن ! ولكن ما الفرق بين مؤرخ الادب وناقد الادب وبين الاديب ؟

حينئذ يلوح لك أن دليلك القديم لم يكن على ضلال بعيد..

ونعني بالدليل القديم ذلك المرشد الذي كنت تسأله في العصور الاولى أن يرشدك الى أديب فيذهب بك الى رجل حسن الحديث ..

فالاديب بكلمة واحدة هو « المحدث » في جميع العصور ، وقيمته في كل عصر تختلف باختلاف حديثه ومن يحدثه ومن يتطلب منه الحديث ، سواء كان حديثه مما تسمعه الآذان أم تعبره الاعين في صفحات الاوراق .

وبهذه الصفة وحدها يمكن أن تميزه من الشاعر ، ومن القصصي ، ومن الناقد ، ومن مؤرخ الاداب .. أيكون الاديب شاعرا ؟ أيكون قصاصا ؟ أيكون ناقدا للشعر والقصة ؟ .. أيكون عالما مطلعا على تاريخ هؤلاء وتواريخ غيرهم ممن يحفل بهم التاريخ .

نعم ، ولكنه في هذه الحالة يكون شاعرا وأديبا، أو قصاصا وأديبا ، أو ناقدا وأديبا ، أو مؤرخا وأديبا .. ولا يلزم حتما أن يكون واحدا من هؤلاء ليقال انه أديب . فهو محدث حسن الحديث أيا كان موضوع الحديث ، وأية كانت صفاته الاخرى التي تقترن بحسن الحديث .

وبهذا المعنى كان أديب الزمن القديم محدثا في مجلس الصحب أو محدثا في مجلس الامير .. وبهذا المعنى أصبح أديب الزمن الحاضر محدثا لقرائه ومستمعيه ، ولو لم يجمعه بهم مجلس أو مقام .

ولم ننزل بوظيفة الاديب لأننا جعلناه « محدثا » في العصور الاولى أو في هذه العصور .. فانما العبرة بما يقال وبمن يقال لهم في جميع الاحاديث .

فمن الناس من يحدث ليعلم ويهذب ، ومنهم من يحدث ليضرب للناس أمثال البطولة والشرف ، ومنهم من يحدث ليروح عن النفس ، ومن يحدث ليكشف للنفس سريرتها ، ومن يحدث ليسلي ويلهي ، ومن يسلي ويلهي كرام الناس ، ومن يقصد بالتسلية واللهو غير هؤلاء الكرام .

وكلهم على هذا المعنى أديب ، ولكن شتان شتان بين أديب وأديب ..

فلا ينزل الادب لانه حديث ...

وانما ينزل الادب اذا نزل موضوعه ومن يستمع اليه ..

وقد نزل الادب في عصرنا هذا وصعد على جميع هذه الدرجات ، فكان من أدباء العربية في أوائل القرن العشرين من يوصف بالادب لانه سمير مجلس ، ثم شهدنا من أدباء العربية في أيامنا هذه من يحدث قراءه جميعا كما يشاء فيجد من يصغي اليه . وكل ما تغير بين أمس واليوم ان الحديث كان بالامس موقوفا على سامع واحد أو سامعين قلائل ، فأصبح اليوم موجها الى مئات وألوف ، لعلهم لا يجتمعون بالمتحدث في مكان .

وربما صح أن شيئا آخر قد تغير بهذا الصدد ، وهو أن الادب ــ حيثما كان بضاعة تنتظر الجزاء ــ لم يكن ينتظر جزاءه فيما مضى من غير الآحاد القلائل ، وأن الاديب كان يدون أحاديثه في الورق ليقرأه كل من حصل عليه ، ولكنه لا ينتظر الجزاء الذي يغنيه في عيشه من هؤلاء القراء ، وانما ينتظره من فرد يتصل به ويعول عليه .

أما اليوم فالاديب على نقيض ما كان بالامس ، انه ينتظر هذا الجزاء ممن يوجه اليهم حديثه على يد المطبعة أو المذياع ، وهم مئات وألوف في وطنه وفي غير وطنه وفي زمنه وغير زمنه ، لا يلقاهم ولا يلقونه في أغلب الاحوال .

وذلك هو باب الخير الكثير .. وذلك أيضا هو بـــاب الشر المستطير ...

لان استغناء الاديب عن هذا السيد أو ذاك قد فتح له باب الاستقلال في المعيشـــة والاستقـــلال بالـــرأي ، والاستقـــلال بالشعور .

الا أنه قد يغنى عن هذا السيد أو ذاك ثم يتقيد بهـــذه الجماعة أو تلك ، واستعباد الجماعة شر من استعباد الآحاد .

وليس من الحتم أن تستعبد الجماعة محدثها ، لان الجماعة طوائف شتى من الناس ، ولمن يحدث هذه الطوائف أن ينـــص الحديث لمن شاء منها ويضن به على غيره ، وأن يقنع بالمهـــذب الكريم من سامعيه ويطوي كشحه عن سواه ، فله ولا شـــك أن يختار وان صعبت عليه الموازنة بين أسباب الاختيار .

وهناك باب من أبواب الحرية يطرقه من يستطيع حـــين يشاء ، فيتحدث « المحدث » العصري وحده ، كأنما يتحـــدث لنفسه .. ويسمعه من يريدون أن يسمعوه ، وهو لا يأخذ نفسه بكلفة الجليس في محضر الامير أو أشباه الامير .

وهو على كل حال « محدث » على نمط العصر وأسلوبـــه ، وخليفة للمحدث القديم على ما كان لعصره من نمط وأسلوب .

وليس لوظيفة الادب في اعتقادنا تعريف أصدق من هـــذا التعريف ، فانه هو التعريف الوحيد الذي يزيل اللبس بينه وبين

الشاعر والراوية والناقد والمؤرخ ، ولا يمنعه مع ذلك أن يأخذ بسهم أو سهوم من جميع هذه الفنون ، على اعتبار أنه مادة من مواد الحديث .

فمن هو الاديب في كل عصر من العصور ؟ هو المحدث في كل مجتمع ، على اختلاف العصور .. وتسأل مرة اخرى : هل الادب اذن وظيفة اجتماعية ؟

فان أردت أن الحديث يجري بين متحدث ومستمع أو مستمعين فالادب ولا شك وظيفة اجتماعية ..

ولكنك خليق أن لا تنسى بعد هذا أن الملكة الشخصية شرط لا معدى عنه في كل حديث كائنا ما كان قائله ومستمعوه ، فان الناس جميعا أعضاء في بنية جماعة ، ولا يحسن التحدث منهم الا الآحاد المعدودين ..

كذلك لا تنس أن الاديب في مجتمع هذا العصر يستطيع أن يكلم نفسه ولا يحسب من المجانين بل من صفوة العقلاء .. أو يضمن المستمعين اليه كلما كان حديثه لنفسه جديرا بالاصغاء.

* * *

الفن بين الصدق والكذب

ما الصدق ؟ هو كما عرفوه مطابقة للواقع ...

ولكن ما هو الواقع ؟ وكيف نطابقه ؟ هل نطابقه بادراك الحواس ؟ أو نطابقه بألفاظ اللسان ؟ .. أو نطابقه بوعي القريحة والخيال ؟

كل أولئك مطابقة .. وكل مطابقة من هذه المطابقات صدق على حسب ذلك التعريف ، ولكنها على هذا تختلف فيما بينها أوسع اختلاف في التعبير والتمثيل .

فاذا رأيت مرجا من مروج الربيع صدقت في وصفه حين أقول انه رقعة من الارض ذرعها ألف ذراع ، يتخللها جدول ماء ، وفيها ثمر من فصيلة كذا وكذا وزهر من فصيلة كذا وكذا في علم النبات ..

وصدقت في وصفه حين أقول انه جميل مريح ..

وصدقت في وصفه حين أقول انه يتألق كما تتألق العيون ، ويزدهر كما تزدهر الوجنات ، ويفتر كما تفتر الثغور ، وتمرح فيه النضرة كما يمرح صفو الشباب في الصبايا الحسان ، وتتغنى فيه العصافير كما تتغنى الوصائف الثملات في الاعراس ..

أما اذا قلت انني رأيت فيه ثغورا ووجنات ، ولمحت فيه احداقا مؤتلقات ، واستخفني المرح من قدود حسانه ، واستطارني الطرب من ألحان عيدانه ، فما انا بكاذب ، وما أنا

بمخالف لما قلته في تلك العبارة التي أوردتها مورد التشبيه ، وكل ما هنالك انني حذفت الكافات والكأنات ، واعتمدت على فطنة السامع في فهم هذه التشبيهات .. فعبرت عن الواقع بأسلوب يختلف في اللفظ ولا يختلف في المدلول .

ان كان هذا هو الكذب الذي أرادوه حين قالوا ان « أعذب الشعر أكذبه » فهذا هو الواقع بعينه فيما نراه .

وغاية ما في الامر أننا نطابق الواقع هنا بوعي القريحة والخيال ، ولا نحب أن نطابقه بلغة الحس ، أو بلغة الحساب والاحصاء ..

وأيا كان نوع المطابقة فهو صدق على أية حال ..

***

مثل آخر قريب من هذا المثل ..

أعرابي غمر يغرب في رحلة مهلكة في مفازة موحشة ..

تسأله فيقول لك انها عامرة بالغيلان والسعالى ، متجاوبة بأصداء الجن والعفاريت ، من يسلكها لا يسلم من شر سكانها هؤلاء ، ومن سلم منهم فقد كتب له عمر جديد ..

هذا الاعرابي الغمر كاذب ان شئت ، ولكن في حساب واحد ، هو حساب الرحلات الجغرافية والمباحث العلمية .

فان الرحالين والباحثين يجوبون تلك الصحراء ويعودون منها فيقولون وهم صادقون : ما عثرنا في تلك الصحراء بسعلاة ، وما السعلاة التي ذكرها الاعرابي مما يمكن العثور عليه ..

ولكنه اذا كذب في حساب الجغرافيين أفما من حساب آخر هو صادق فيه ، أو مطابق للواقع فيما يدعيه ؟ ..

بلى ! هناك حساب هو صادق فيه كل الصدق ، مطابق للواقع كل المطابقة ، وهو حساب الشعور والخيال ..

لانه وصف الخوف من الهلاك ، ولا فرق بين الهلاك من الغول والسعلاة والهلاك من الوحشة والانقطاع . وغاية ما في الامر أنه وصف الخوف محذوفا منه الكافات والكائنات ، ولا يزال صادقا حين قال لنا : ان من يسلم من شر تلك المفازة فقد كتب له عمر جديد ..

وكذلك قل في عرائس البحار ..

وكذلك قل في كنوز الارض وما يحرسها من المردة والشياطين ..

وكذلك قل في همسات النسيم ونجوى الانفاس ..

وكذلك قل في كل واقع نطابقه بالشعور والخيال، ولانقصر المطابقة فيه على اللمس والعيان ..

***

وننتقل الى الشعر الذي يتمثل فيه هذا الضرب من الواقع فنذكر بيت أبي الطيب في وصف الاسد :

ورد اذا ورد البحيرة شاربا
ورد الفرات زئيره والنيلا

فعلماء الطبيعة يقولون لك انه كذب .. لانهم يقيسون سرعة الصوت في الهواء ، وسرعة الصوت في الماء ، ويقيسون المسافة بين البحيرة ومصر والعراق ، ويقدرون النسبة التي يتخافت بها الصوت فيجدون ان زئير الاسد الذي وصفه أبو الطيب لا يصل الى النيل ، ولا يصل الى الفرات ..

أفكاذب أبو الطيب فيما وصف ؟ ..

ان قلت نعم مع علماء الطبيعة ، قلت لا على الاثر مع سامع ذلك الزئير ..

لان زئير الاسد ملأ جوانب نفسه وشاع في منافذ حسه ، فلم يدع فيها فراغا لغير الرهبة والحذر ..

ورهبة تملأ كل مكان في دنياه ، خليقة ان تملأ كل مكان على وجه الارض ، ولو في الساعة التي ملأته الرهبة فيها ، وذلك حسبه من مطابقة الواقع كما وقع في لحظة من اللحظات ..

ولو أن أبا الطيب قال يومئذ في وصف شعوره بزئير الاسد انه وصل في الدقيقة الى بعد كذا من الاميال لما خالف الواقع في حساب العلم الطبيعي ، ولكنه لا يذكر لنا شيئا عن الواقع في طبيعة الشعور .

وهذا هو الواقع الذي يعنينا ويعنيه من وصف الاسد وزئيره ..

كذلك يقول البحتري في وصف البناء السامق :

ذعر الحمام وقد ترنم فوقه
من منظر خطر المزلة هائل

فيصيب في تمثيل الذعر كما يحسبه الواقف على شرفات ذلك الصرح ولا يخطىء الا من ناحية بعيدة من هذه الناحية ، لانه يقول عن الحمام المذعور انه يترنم ، وللترنم حال لا تشبه حال مذعور ..

ويقول أبو العلاء في سخرية الموت والحياة :

رب لحد قد صار لحدا مرارا ضاحك من تزاحم الاضداد

والواقع ان اللحد لا يسخر ، ولكنه من حقه ان يسخر اذا

استطاع ، وان هناك سخرية في تعاقب الموتى على مكان واحد يكرهونه ، ويتزاحمون عليه كأنهم يشتهونه . فاذا أعرنا اللحد سخريتنا فنحن لم نغير من السخرية ولا من الواقع ، ولكنها « استعارة » لا تضيع معها الحقوق ! ..

هذه خلاصة القول عن الفن بين الصدق والكذب ..

فلن يكون الفن جميلا اذا كان فنا كاذبا لا يطابق الواقع ولكن أي واقع ؟ .. وأي مطابقة ؟ ..

الواقع في الشعور ، والمطابقة لذلك الشعور ، وهي مطابقة لا ريب فيها ، ومطابقة أصدق من كل مطابقة أخرى ، اذا كانت المطابقات الاخرى خلوا من تمثيل ما نشعر به ونؤديه في فن من الفنون ، سواء أديناه بالقلم أم بالريشة أو بالازميل أو بالوتر والمزمار ..

ويصدق على الواقع التاريخي ما يصدق على الواقع الحاضر أمامنا ..

فمن مثل لنا بطلا في غير عصره فأحسن تمثيله فهو صادق في الفن كاذب في التاريخ ، أو هو شاعر حسن ومؤرخ رديء ، نلومه على كسله وجهله ، ولا ننكر عليه الصدق في حسه وخياله ولا القدرة على حسن تعبيره وتمثيله .. فنمنحه درجة النجاح في الشعر ونضن عليه بها في التاريخ ..

وكل فن جميل ، فلن يكون كاذبا ابدا ، لانه لا بد له من مطابقة الواقع ، على اختلاف صور المطابقة في الشعور ..

ولقد قيل عن أرواح شكسبير وعفاريته انها لو برزت الى عالم الحياة لما برزت في غير الصورة التي تصورها .. وما قيل عن المخلوقات الخيالية في شعر شكسبير يقال عن كل مخلوق

خيالي يمثل لنا حالة نفسية نشعر بها ونتصورها فيه ، لانـه ولد من شعورنا ، فان لم يطابقه فلا صلة بيننا وبينه في عـالم الحس ولا في عالم الخيال .

❋ ❋ ❋

المدرسة الرمزية

١ ــ حب الازياء

كانت باريس فيما بعد القرون الوسطى عاصمة الحضارة الاوربية ، وكان بلاطها الفخم مصدر المراسم والتقاليد في ارجاء الغرب كله ، تصدر عنه الازياء والآداب والعرف المتبع في مجالس الطبقات العليا ، وكان لها الشأن ــ كل الشأن ــ يومئذ في جميع البلدان . فلا تنقضي فترة يسيرة من الزمن دون ان يسفـــر التنافس بين فرسان البلاط وحسانه عن شارة جديـــدة وزي جديد ، ولم يكن لهم بد من طرافة يتحدثون بها في عالم الادب والفن كما يتنافسون بالطرائف في عالم الشارات والازياء. فلما بدأت نهضة الاحياء الحديثة باستحيــاء الاساليب اللاتينيـــة واليونانية رحب بها طلاب الجديد ريثما طال عليها العهد فبرموا بها وتطلعوا الى نمط جديد . فتوالت الانماط بين أواخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن العشرين من المدرسة المجازية الـــى المدرسة الواقعية الى المدرسة البرناسية الى المدرسة الرمزية ، الى هذه المدارس التي تسمى بالمستقبليـــة تارة وبما وراء الواقعية تارة اخرى ، ولا تستقر طويلا على حال .

ولم يكن التفات الناس الى عاصمة الازياء وانتظارهم منها الجديد بعد الجديد هو الباعث الوحيد الى تعاقب هذه المدارس

بمختلف الاسماء والآراء ، وانما صادفت هذه الحالة معينا لها من حب الاندفاع في السليقة الفرنسية ، فأصبح حب التغيير نتيجة لازمة لكل اندفاع بلغ مداه واستنفد قواه .

فلا تجد في غير فرنسا ولعا كهذا الولع بالمدارس الادبية المتلاحقة ، ولا سأما كهذا السأم من أسلوب بعد أسلوب ، وصبغة بعد صبغة .

وفي فرنسا نفسها لا تجد هذه المدارس في القمم العالية أو الاعلام البارزة من افذاذ الادب المعدودين، وانما تجدها في بيئات الاوساط واشباه الاوساط الذين يخضعون لموجات التقلب وحركات التكلف والاصطناع .

أما أعلام الادب الفرنسي من أمثال موليير وراسين وفولتير وشاتوبريان ولامرتين وهوجو وموسيه وأناتول فرانس وبروست فأنت لا تجدهم تحت راية من هذه الرايات ، ولا على شارة من الشارات، واذا بدت على احدهم مسحة من هذه الصبغة او تلك فهي مسحة لا تنحرف به قط عن اللونين الخالدين اللذين يرجع الانقسام بينهما الى طبيعة الانسان لا الى تقلب الازياء بين جيل وجيل ، وهما لون الواقعية ولون المجازية ، أو لون البساطة ولون التنميق ، وسمهما بعد ذلك بما تشاء من الاسماء .

٢ ــ ظهور الرمزية

وكان الصف الاول من صفوف الطليعة في هذه المدارس هو صف الاحياء ، أو صف الاساليب اللاتينية واليونانية القديمة ، ولا يخلو من دعوة الى بساطة « الطبيعة » على ألسنة الفلاسفة والشعراء .

ثم تفنن الادباء في المجاز على أنماط شتى من الاساليب المجازية التي توشك ان تتعدد بتعدد الآحاد .. فأسلوب هوجو مجازي ، ولكنه مجاز يريك الدنيا كأنها في موكب دائم من الطبول والابواق ومن الغنائم والاسلاب ، واسلوب لامرتين مجازي ولكنه مجاز يريك الدنيا كأنك تعيش منها أبدا في عالم مسحور تتهامس فيه الارواح وتتخافت فيه الاصداء .

واتفق في الايام الاخيرة من هذه المدرسة المجازية أن شاعت مباحث العلم ومقررات العلماء المحدثين، فظهرت المدرسة الواقعية والمدرسة البرناسية ، ونزعت كلتاهما الى الاسلوب المدرسي البسيط ـ أسلوب اللاتين واليونان ـ ممزوجا بلون الدراسات العلمية التي اشتغل بها كل عقل مثقف في عهد المدرسة البرناسية على التخصيص .

ويدل اسم المدرسة البرناسية على مذهبها بعض الدلالة لان اصحابها يسمون انفسهم بالبرناسيين المعاصرين منتسبين الى البرناس وهو جبل ابولون وعرائس الفن في اليونان القديمة. فالبرناسيون المعاصرون مدرسيون من ناحية الاقتداء بأعلام الادب اليوناني القديم ، ومحدثون علميون من ناحية التجديد العصري على نمط لم يعرفه قدماء اليونان .

وكان شعارهم « الكلمة المحكمة » أي الكلمة في موضعها الذي لا تتجاوزه للتنميق أو للتهويل ، وعقيدتهم « ان الفن للفن » بغير قصد اخر غير احكام التعبير وحسن الاداء .

وأفرط البرناسيون كما يفرط الدعاة الى المدارس الخاصة فيندفعون فيها الى الطرف الاخير ، أو الى حيث يحسن الارتداد والرجوع ، وكان افراطهم هذا مسوغا بعض التسويغ لظهور الرمزيين .

٣ ـ مسوغات الرمزية

والتعبير بالرموز عادة قديمة في تعبير الانسان ، بل عادة قديمة في بديهة الانسان .

فالحالم مثلا يعبر في منامه عن شعور الضيق او الخوف بقصة رمزية يتمثل فيها شيئا مخيفا في صورة وحش أو مارد مرهوب .

والكاتب الذي لم يعرف الحروف الابجدية يرمز الى المعاني بالشخوص والرسوم ، ويعبر لك عن الكتابة بصورة الكاتب أو صورة القلم أو صورة المكتوب ، وقد يلجأ الى الاستعارة بعد عرفان الحروف لانها نوع من التصوير الذي يساعد على اختصار التعبير .

وكهان الديانات يرمزون ويعمدون كثيرا الى الكنايات والالغاز ، لانهم يجعلون لغة الدين لغة سرية ينفردون بها ولا يطلعون سواد الناس على دخائلها ، فيختارون الرمز في التعبير وان قدروا على الافصاح والتصريح .

والنسوك المتصوفون يرمزون لانهم لا يستوضحون المعاني الغامضة التي تجيش بها نفوسهم في حالة كحالة الغيبوبة أو نشوة من نشوات الذهول . فيؤثرون التشبيه لانهم عاجزون عن التوضيح ويخاطبون من يعرف حالهم برمز من هنا وتورية من هناك فلا يحتاج منهم الى زيادة إيضاح .

وكان بعض الدول يقهر الرعية على عقيدة لا يدينون بها وقد يدينون بغيرها ، فيشيرون الى عقائدهم برموز يفهمونها ويجعلون للالفاظ الشائعة معاني غير معانيها المتفق عليها في اللغة المتداولة ، ثم ينبذون تلك الرموز اذا ارتفع عنهم الضغط والاكراه .

وقد يكون الرمز اختصارا لعبارة مفهومة أو صورة ظاهرة، كرمز الرياضيين والكيميائيين بالخطوط والنقط الى الافلاك أو العناصر أو المقادير .

فالرمز شيء مألوف في تعبير الانسان وفي طبيعة الانسان ، ولكنه مألوف على حالة واحدة لا يخلو منها معرض الرمز والكتابة، وهي حالة الاضطرار والعجز عن الافصاح ، فلم يرمز الانسان قط وهو قادر على التصريح والتوضيح ، ولم يجد كلمة واضحة لمعنى واضح ثم آثر عليها الالتواء شغفا بالالتواء .

فاذا لوحظت هذه الحالة فالرمز اسلوب متفق عليه لا يحتاج الى مدرسة تنبه الاذهان اليه . فالخيال لا يستشير مدرسة من المدارس لتشير عليه أن يحلم بالصور والتشبيهات أو يحلم بقواعد التحليل والتركيب في معامل الكيمياء، والشاعر لا يعاب اذا مثل لنا الكواكب والازهار فألبسها ثياب الاحياء ، ومن ضاق به اللفظ فعمد الى التخييل والتشبيه فالناس لا يحسبونه من هذه المدرسة أو تلك ، لان المدرسة التي يصدر عنها في هذه الحالة هي مدرسة البديهة الانسانية حيث كان الانسان وبأي لغة من اللغات ألغز أو أبان .

وفحوى ذلك انه لا حاجة إلى مدرسة لتعليم الناس كيف يرمزون ويكنون حين ينبغي الرمز وتنبغي الكناية ، ولكنهم قد يحتاجون الى مدرسة لتذكيرهم بحقيقة واحدة قد ينسونها في دفعة الافراط والمغالاة ، وهي أن الحياة تنطوي على كثير من الاسرار ، وان العالم نور وظلام وجهر وخفاء ، وانه يفاجئنا أحيانا بمعاني لا تترجم عنها الألفاظ ولا غنى فيها عن الاشارة والاستعارة ، أو عن تمثيل الظل بالظل ، والحجاب بالحجاب .

وقد كانت الآداب الفرنسية بحاجة الى هذا التذكير في

النصف الاخير من القرن التاسع عشر ، ولم تكن هذه الحاجة مقصورة على الآداب الفرنسية في الواقع لأنها كانت حاجة من حاجات التطور العقلي في العالم بأسره ، ولكنها أظهر ما تكون حين يكون الاندفاع من الاطراف الى الاطراف .

فالعالم الاوربي قد تنقل في ثلاثة أطوار عقلية منذ عصر الاصلاح :

طور لم يكن فيه سلطان للعقل في تفسير الوجود ، وطور ثار فيه العقل لحقوقه المشروعة ثم بالغ في الثورة حتى أوشك أن يستبد بكل سلطان ، وطور ثارت فيه البديهة الانسانية لتذكر العقل بالحقيقة التي نسيها في شططه وغلوائه ، وهي أن البديهة الانسانية تشاطر العقل حقوقه في تفسير العالم والاتصال بخفايا الوجود .

ففي الطور الاول كان السلطان للكهنة ورجال الدين ، وكانت النصوص التي يساء فهمها ويساء العمل بها هي مرجع المراجع كلها في العلم والحكمة والفنون والاداب .

وفي الطور الثاني تفرد العقل بتفسير كل شيء وزعم ان العلوم التجريبية وحدها كفيلة بالكشف عن جميع الحقوق وجميع الاسرار .

وفي الطور الثالث صنع « رد الفعل » صنيعه المعهود في أمثال هذه الاطوار ، فثار المفكرون انفسهم على العقلية Rationalism كما ثار الفنانون على الواقعية Realism وسمعنا بضروب شتى من دعوات المثاليين والنفسانيين والروحانيين وفلاسفة المنطق الحديث الذي يدين بالبصيرة كما يدين بالقياس والتحليل .

في هذه الفترة ظهر الرمزيون في الاداب الفرنسية وكان لهم حق في الظهور .

بل ظهروا « متأخرين » عن رواد هذا المــــذهب في الاداب الاوربيـــة الاخرى ، وفي عالم الفنون التي لها تأثير بين عــلى الآداب ..

فكانت موسيقى « فاجنر » تدوي في ارجاء القارة الاوربية قبل أن تتحول الموسيقى الفرنسية من لغة الطرب والمشاهــــد الواقعية الى لغة الاغــــوار والكنايات ، وكان كولردج وبرونىنج وسوينبرن وتنيسون مـــن أعلام الشعر الانجليزي يتناولــون المعاني الغامضــة تارة بالرمــز والكناية وتارة بالكلمــات التي تماثلها في الغموض . ويكفي أن يذكر القراء تأثير دافيد هيوم في روســو وفولتير ، وتأثير بيــرون في لامرتين ، ليذكروا أن المدرسة الرمزية في الآداب الفرنسية لم تكن فريدة في الآداب الاوربية حين ظهرت في أواخر القرن التاسع عشر وراجت الى أوائل القرن العشرين .

لكنها ظهرت سائغة مــدعوة الى الظهور بدعوة التطــور في التفكير والشعور ، ثم استحقت الاحتجاب قبل أن تتمكن من الثبات على الاساس الصحيح .. وصدقت عليها الفكاهة التــي تحدث بها ظرفاء بغداد عن بهلول المجنون ، حين قالوا انه كان يغني بدرهم ويسكت بدرهمين .

فان المدرسة الرمزية التي وجب ظهورها وجب سكوتها بعد ذلك مرتين ، ولم يلبث الفرنسيون أن أطلقوا عليها اسم مدرسة الهبوط والانحدار Decadents ولم يظلموها بهذه التسميـــة الصادقة ، لان شعراءها وكتابها قد جعلوا ديدنهم من الرمـــز

أن يرمزوا الى كل وضيع خليع ، وأن يعتبروا التسمية مطلوبة لذاتها لا لمزية من مزايا التعبير والتقرير . فلو تهيأت لهم للمعنى الواحد عبارتان تؤديانه على السواء لفضلوا الاغمض منهما على الاوضح في غير سبب معقول لهذا التفضيل ، بل يفضلون الغموض على الوضوح ولو كان الوضوح أجمل في اللفظ وأقرب الى البديهة وأثبت في الافهام .

وما هو الا أن تلقفوا من الافواه كلمة عن مذهب فرويد وأقوال العلماء النفسانيين عن « الوعي الباطن » و « اللاوعي » المكنون في أطواء النفس حتى اندفعوا من الرمزية المتطرفة الجامحة الى رمزية أبعد منها في التطرف والجموح . فنشأت بينهم مدرسة يسمونها بمدرسة ما وراء الواقع ، تترجم الرموز بالرموز ، والالغاز بالالغاز . وراجت هذه البدعة الجديدة في عالم التصوير ، لان رواجها في عالم الكتابة والشعر يستلزم جمهورا كاملا من المخبولين والادعياء ، وقلما يجتمع جمهور كامل من هؤلاء ، كما يتفق إجتماع الآحاد من طلاب الصور الملفقة بين الاغنياء .

وخلاصة ما وعاه هؤلاء الرمزيون الغلاة من الوعي الباطن أنهم لا يفقهون ما هو الوعي الباطن وما هو الوعي الظاهر على السواء ، فان الوعي الباطن قديم لم تخلقه التسمية الحديثة في كتب العلماء النفسانيين ، وقد كان الناس بوعيهم الباطن حين وصفوا ما وصفوه وصوروا ما صوروه من المناظر والضمائر والوجوه ، من شأن العقل الباطن أن يظل عقلا باطنا حيث خلقه الله ، فان برزت لنا بعض خباياه فليس معنى بروزها أنها تلغي العقل الظاهر وتبطل عمل الحواس ، وتقلب معالم الاجسام والاشياء ، ولا موجب لتمييز المصورين بالقلم أو الريشة

بالتخمين والتنجيم عن الوعي الباطن أو العقل الباطن لانهم يستعدون لصناعتهم بمزج الالوان ونقل الاشباه لا بالتدريب على الكهانة ونقش الطلاسم ووضع الالغاز .

فالرمزية في حدودها المعقولة ــ ما لم تجعل الدنيا كلها رموزا وكنايات وأطيافا ــ تعيش في الظلام ولا تعيش في الضياء ، وهي ضرورية ما شعر الانسان بضرورتها في تمثيل الدقائق والاسرار ، ولكنها تخرج من الضرورة الى الضرر اذا أصبحت مطلوبة لغير سبب وأصبح شعارها « الرمز للرمز » والغموض للغموض والتلفيق للتلفيق .

وهي على الجملة « خطر » حين تصبح مدرسة قائمة بذاتها لان الانسان لا يحتاج الى مدرسة ليكون انسانا يعبر باللفظ الصريح حين يتأتى له التعبير باللفظ الصريح ، ويعبر بالكناية حين لا تسعفه وسيلة غير وسيلة الكناية . وقد عرف الناس « الاستعارة » في جميع اللغات فلم تكن استعارتهم الا ضربا من الرمز والتصوير بالكلام ، ولم تفسد هذه الاستعارات الا حين اصبحت فنا مصطنعا وانقطع ما بينها وبين البداهة الصادقة والتخيل السليم .

وكذلك أفاد الرمزيون الفرنسيون حين التزموا هذه الحدود المعقولة ومثلوا ثورة البديهة على غرور العلميين والعقليين ، وأطلقوا الشعر الفرنسي والشعر الاوربي عامة من أوزانه المتحجرة وقيوده العتيقة ، ولكنهم لم يقفوا عند ذلك فاستحقوا أن يقال فيهم انهم : غنوا بدرهم وسكتوا بدرهمين .

***

فهرس

كتب للمؤلف

صدرت عن دار الكتاب العربي

- ابن الرومي ٠ حياته من شعره
- مطالعات في الكتب والحياة
- مراجعات في الاداب والفنون
- يسألونك
- الفصول
- رجعة ابي العلاء
- ساعات بين الكتب
- بين الكتب والناس
- الشيوعية والانسانية
- داعي السماء بلال بن رباح
- ابراهيم ابو الانبياء
- عبقرية الامام على
- عبقرية عمر
- عبقرية الصديق
- عبقرية خالد
- عبقرية محمد
- حياة المسيح
- عمرو بن العاص
- الفلسفة القرآنية
- حياة قلم
- الحسين ابو الشهداء
- الاسلام في القرن العشرين
- التفكير فريضة اسلامية
- عثمان ذو النورين
- مطلع النور
- المرأة في القرآن
- الانسان في القرآن
- حقائق الاسلام واباطيل خصومه
- ما يقال عن الاسلام
- فاطمة الزهراء والفاطميون
- معاوية بن ابي سفيان في الميزان
- ابو نواس الحسن بن هانيء
- جحا الضاحك المضحك
- هذه الشجرة
- انـا
- سارة
- عقائد المفكرين
- ابليس